المرفأ البعيد

حنا مينة



حنّا مينه

المرفأ البعيد

الكتاب الثالث

من « حكاية بحّار »

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعَة الأولى
حــزيــران ـ ١٩٨٣م

أنا لم أمت في تلك العاصفة أيّها البحر. ضاجعت الموت، على فراشك، بحاراً قرشاً، من نسله فرس الماء وعروس البحر. صارعت الأمواج، روحاً متوحشة، تعرف أنه لا خيار: المقاومة أو القاع، وطالت المقاومة، وطال العذاب، ولم أيأس من النجاة. الغضب ألهب نفسي، صيّرها كتلة عناد. وفي عراك شرس، بين غضب البحر وغضب الإنسان، انتصر غضبي، وتقرّر مصير كاترين الحلوة: إنها لي، لعنة أبوّة الى أبد الدهر.

هل تجرأت عليك، فصرت لامبالياً حيالك؟ وهل غفرت أنت، أم ما زلت تنشد الثأر؟ أنا لا أستهين بك. معاذ الله! والدي علّمني، والعاصفة علّمتني، وكذلك العمر. وها أنا، كمن يتقدّم الى الله مجبولاً بالندم والتوبة، أتقدم إليك مملوءاً بالخشية والرهبة، راغباً، من رأسي الى اسفل قدمي، أن أؤدي لك واجب الاحترام، سائراً على رمل شاطئك، إلى معبد الماء المقدّس، كالحاجّ السائر على الرمل الحار ليؤدي فريضة العبادة.

إنني أمشي على حافّة الماء واليابسة. هذا ليس طقساً من طقوس البحارة، وليس هواية من هوايات المرافىء. الهارب وحده يفعل كما أفعل. الخائف يتجنّب الدروب المفتوحة. يلجأ الى شعاب الجبال، وقفر البراري. يبتعد عن الأماكن

المألوفة. يستبطن الليل ويصحب الوحدة. يكون مضطرباً. يكون عاقلاً. أنا لست كذلك، لاهرب ولا خوف. أسير باختياري. أبتعد عن الطرق والناس وأستسلم لذكرياتي، أنا ككلّ بحار، مجنون على نحو ما. إنني أهرب من جنوني وهو يتبعني، إنه في قميصي، في صدري، في الخطا التي تترك آثارها على الرمال من ورائي، فكيف أتخلّص؟ أركض؟ يركض معي. أجلس؟ يجلس معي. أسبح؟ يسبح معي. إنه أنا، أنا، أنا.. وهو الريّس عبدوش الذي قطع الحبل ليغرقني، وكاترين الحلوة التي خانته معي، ووالدي الذي أبحث عنه، وهو سيدة القصر التي أمضي اليها.

كل منّا له هوى، وكل منّا مجنون بهواه، وهكذا نعيش مسكونين. الخليّون هناك. تحت الخيام. أكلوا وشربوا وناموا، وبهدوء يمارسون لعبتهم الصغيرة. إنهم يجهلون البحر، برغم أنهم على شاطئه، ويجهلون الفرح، ولو كانوا في قلبه، ولا يعرفون اللذّة حتى ولو تعانقوا الى مطلع الفجر، عقلاء، عقلاء، عقلاء، وماذا يفعل مجنون بين عقلاء؟

أيّها البحر! إنني أصلّي بصمت. أندمج بالماء والملح والزبد. أبتهل معهم، وفي صمتك الرهيب، وسرّك الأزلي، وصحرائك الواسعة، أجد نفسي. لقد أسرتني وأطلقت سراحي. أعتقتني. حررّت عنقي من قبضتك الحديدية، وقلت لي: «اذهب وقل للبحّارة ما تشاء، وقل عني ما تشاء

أيضاً، فالصراع بيننا لن ينتهي، والغلبة، في النهاية، لمن يبقى بعد المعركة الاخيرة».

وأسائل نفسي: متى المعركة الأخيرة؟ اليوم، أيها البحر، كانت المعركة الأخيرة، ربما، ذلك الفتى، وإن لم يفز في الغطس، فقد فاز في السباحة، في الذهاب مع مداك، في البقاء بين أحضانك، أنا تلاشيت. خارت قواي، ومن وهن جررت نفسي الى الشاطىء، وعلى رملك الحارّ انطرحت قتيلاً مهزوماً. المرأة الجميلة، في المساء، سكبت لي حساء في صحن. لم تقل «كلْ أيّها العجوز» لكنها أشفقت عليّ كعجوز، والشفقة، أيّها البحر، نهاية رحلة، نهاية قصة، نهاية عمر.

وأسعى لكي أتجدد، العروق، في جسمي الشبق، تتشهّى. تصرخ من جوع. لكن المائدة قد رُفعت، أو هي على وشك أن تُرفع. أكلت طويلاً من موائد الأجسام، وجاء أوان غسل الأيدي، والتنحّي للآخرين، الراغبين في وليمة الجسد، والقادرين عليها. لماذا أكابر؟ لماذا أعاند؟ لماذا لا أستريح؟ ولماذا، في هذا الليل من حولي، لا أسلّم نفسي لليل، وللقافلة المسافرة الى المجهول، ولا أُنهي، مرة واحدة، الدورة التي بدأتها، ومن أعوام وأعوام وأنا أتخبّط في شوطها؟

سيّدة القصر تنتظرني؟ أعرف هذا. ومن جديد، حين أقرع بابها، سأضع كلّ قوتي في ساعدي. أقول لها، دون

كلام، سعيد حزّوم جاء في الموعد، وفي الموعد سيمضي، ولن يكون عشيقاً ولا حارساً ولا صياداً من بركة الدار. أكبر من حارس هو، وأغلى من عشيق، وأعزّ من صيّاد، فقير ينتظر، يبتهل لكل زانية في الأسماك، بحّار هو. بحار ٱبن بحار. رجل لجّة وشراع. فارس ٱمرأة كفّت بعدها النساء عن الغواية.

وقد لا تفهم سيدة القصر من أكون وماذا أريد، عندئذ تومىء الى القصر وأومىء الى البحر، ويكون فراق من جديد، ويكون ترحال من جديد، ويكون بحث عن والدٍ ضائع، لا بد أن ألقاه، ولو أنفقت مئة عام أعطيتها، في البحث عنه.

إنما أنا جّواب آفاق، إنما البحار جوّاب آفاق. وإنما الأفق موعد مضروب للسائرين على الماء، وقد كُتب علي، تلك الليلة، حين قطع الريّس عبدوش الحبل، أن أسير على الماء، وأن أصنع المعجزة، وقد صنعتها.

قال لي والدي يوماً: «لا تكن رديئاً كبحّار يخون زميله في البحر» كان يعرف، من تجربته، أن البحّار الذي يضطجع في الرعد، ويعصف في الريح، وينهمر في المطر، يحسّ، وهو في أحشاء المحنة، أنه تطهّر من كل أحقاده. يُصبح، تجاه الموت، عارياً، كسيف بلا غمد. في هذه الحال، أنتظر منه كل مروءة، إنه يستطيعها ولو بتضحية نفسه. لكن والدي لم يتكلم عن بحّارين، يتصارعان على امرأة

تنتظر في أحد المرافىء، ومستعدّة، كل لحظة، أن تعطي نفسها للأقوى، بينهما. هنا تختلّ المعايير. هنا تتحطم القواعد. مع المرأة لا قاعدة ولا معيار، وفي سبيلها، أيّ شيء لا يصير؟ لقد عشت ما يكفي لكي أدرك أن البحّار لا يخون زميله لأجل ثروة، بينما يخونه، بكل يسر، لأجل آمرأة. إنه في العراك لأجلها، ينقلب إلى فاتك، على نابه يلتمع شر الجحيم، فإذا كانت المرأة مثل كاترين الحلوة، وكان زوجها كالريّس عبدوش، فإن فكّ القرش يتّسع لابتلاع وفاء الدنيا كلها.

كنت أحسّ، منذ بدء الرحلة، أن الريّس عبدوش تغيّر. والدي، قال لي: «يا بنيّ، المرأة تُغيِّر، تؤثّر على البحّار، كالريح على الشراع». بعد ذلك قصّ عليّ هذه الحكاية: «مصارع قوي، في إحدى القرى، لم يستطع ابن امرأة ان يلوي ظهره. امرأة، أخوها مصارع ايضاً، قالت له: «أنا كفيلة بهزم المصارع الذي ستنازله». تعجّب أخوها. لم يشأ أن يصدّق، قال لها: «هذا ادّعاء كبير.. أنت لا تعرفين قوّة ومهارة هذا الخصم.» أجابت: «أنا أُضعف من قوّته، وأجعلك تغلبه». اتفقا، وبناء على طلبها، دعا المصارع الخصم للمبيت عنده، وفي الليل، وكانوا ينامون في غرفة واحدة، مدت المرأة رجلها خلسة فمَسّت رجل المصارع، وتكرّرت العمليّة حتى الصباح، ولم يحدث غير ذلك. لكن شقيقها، عند المصارعة، غلب الخصم القوي،

وعاد الى البيت يسأل شقيقته: «ماذا صنعت له»؟ قالت ضاحكة: «لا شيء.. جعلت قدمي تلامس قدمه فقط.. شغلت فكره».

الرّيس عبدوش كان مشغول الفكر أيضاً. أدرك أن كاترين لم تمسّ قدمي فقط، بل صارت لي بكاملها، أضمر شيئاً لم تبح به عيناه. فكر في الأمر طويلا وهو في قمرته. كان يريدني غير ما أنا. شجاعتي لم تعجبه. بصعوبة وافق على صعودي لقطع السارية عن الدقل. كان يحدس بفوزي في هذه المهمة. إنه يبحث عن سوأةٍ ما في تصرّفي، لو كنت جباناً لاحتملني، ولو كنت فاشلاً لاحتقرني. كان يرضي غروره على هذا النحو. ولو جاء بحّار وحذّرني منه لما صدقت.. محال! أين زمالة الرجال؟ أين أخوّة البحار؟ كيف تطاوعه يد على قتلي ونحن نواجه عدواً أخطر؟ لكنه هو، المجروح الكرامة، المنتهك الحرمة، حين واجه الموت على ظهر المركب، لم يشأ ان ينجو منافسه، قال وهو يقطع الحبل «لن تكون كاترين لي ولا لك». إنها ضربة ثأر، صيحة شمشون عليّ وعلى أعدائي». فعلها ثم واجه الموت.. ظن أنه يسقيني كأس العقاب الأخير، فمشى الى حتفه وهو منتشٍ بالنصر..

بحّار يقتل بحّاراً؟ ريّس يُغرق أشجع بحارته؟ رجل في ساعة الهول يسفك دم رجل؟ ايه أيتها المرأة، يا نسل حواء... لماذا لطّخت سمعة ريّس كان زينة في الريّاس؟ لماذا

حرقت دمه وأشعلت النار في حناياه؟ لماذا، كالريح الملعونة، مزقت أشرعة المركب وبعثرت بقاياه!؟

كاترين الحلوة لم تجب أبداً. ما قالت كيف ولماذا؟ علّقت رأساً جديداً على اوتاد الرؤوس فوق عتبتها. تركت مكاناً فارغاً لرأسي أيضاً. كان السمّ في ملاغمها، وكانت تعرف أنها ستقتلني، وأن سمّها سيسري في جسدي، وأن شيئاً في الكون لن يوقفها عن إغراء الرجال، ومضاجعتهم ثم قتلهم.. ترى فهم الريّس عبدوش ذلك وهو يواجه العدم فوق مركب يترنّح ويغرق؟ بكّته ضميره أم طغى صوت الريح على دقات القلب الحجري المثقل بجريمته؟ وفي الساعة الرهيبة، حين لم يبق إلا خيط دقيق يفصل بين الموت والحياة، أما حاول أن ينجو، وأن يعيش بأيّ ثمن؟ أم تراه آثر رجولته على حياته، فأبى أن يعيش ملطخاً بالعار؟

لا أحد يدري المصير الذي انتهى اليه الريّس عبدوش ومركبه. لم يأت خبر منه، ولا استطاع قارب النجاة أن يخلص بمن فيه. ذهب الجميع في تلك الرحلة المشؤومة وقرأ البحارة، في الميناء، الفاتحة على أرواح الجميع. أنا فقط تمكّنت من النجاة. حين قطع الريّس عبدوش الحبل، تأرجح قارب النجاة بشدّة ولامست إحدى حافتيه الماء. صرخت النساء من الرعب، والرجال أرخوا الحبل ايضا. تركوني وسط اللجة أصارع جبال الموج وهوج الرياح. ضرب البحر

بيننا ضربته الجبارة فهوى، كلانا، الى القاع، ردمتنا المياه الفائرة، ومنذئذ لم أعد أدري شيئاً، اختفى المركب والقارب عن عيني، لشدة ما جرفني النوء بعيداً. أقدّر أن المركب قد فرط من ارتطامه العنيف بكتل الماء المتنمّرة، المتدحرجة والمشرئبة عليه، غار في الأعماق ولم تطفُ إلا الأخشاب التي تفكّكت عنه. حدث ذلك بعد غرق القارب بمن فيه، وهذا هو السبب في أن أحداً من ركابه لم ينج. انقلب القارب رأساً على عقب. أفرغ حمولته البشرية في الهاوية التي انفتحت تحته، استسلم للريح. أعطاها نفسه دون مقاومة، فحملته وهي تزغرد فائزة بغنيمتها، لم يتحطم من فوره، ولم تصل أيدي الذين كانوا فيه الى أيّما قطعة خشب، لذلك غرقوا جميعاً وبسرعة. بقيت وحيداً في البحر. لم يكن على جسدي إلا قميص وسروال، تخلصت فوراً، وربما أثناء السقطة، من الحذاء، كان هذا أفضل. اللباس على جسدي وقاني ضربات الريح، ولم يعقني عن السباحة. عمدت الى المراوغة. هذه تعلّمتها في مرسين، كان يحلو للأولاد أن يسبحوا في النوء، وكان الوقوف عمودياً في الماء أفضل طريقة لتجنّب الانجراف والتعب. كانت الريح تعوي، تصفر وهي قادمة من الاعماق، حاملة صخورها المائية بجبروت رهيب، وفي هذه الحال، عند قدوم الموجة العاتية، كنت أخادعها بالغطس تحتها، وهذا ما سمح لي بأن أبقى في دائرة ضيّقة نسبياً، أسبح فيها، أغوص، أتخبّط، لكنني

أمتنع على الموج الذي يريد حملي الى بعيد، ورطمي بأيّ جسم يوقف انجرافي كغصن آدمي ينهشه الزبد.

يقال إن البحارة يشيبون باكراً. سألت والدي عن ذلك فضحك. «هذه من قصص البحر» قال. كان يميل الى التصغير من شأن الأحداث البحرية التي يعمد غيره الى التضخيم منها. لا يؤمن بالرعب الذي هو، كما يقول، مثل البرد، سبب كلّ علة. «البحار الذي يشيب بسرعة يكون قلبه في قدميه». انتهى الحكم. والدي كان يقيس على نفسه ويصدر أحكاما. حسناً! أنا لا أشارك والدي هزءه من حكاية الشيب هذه. لماذا يريد ان ينتقص من أفعال البحارة، وهم يواجهون النوازل في أحلك الليالي وأدعاها الى الخوف القاتل؟ البحر يُشيب البحارة، أنا منذ تلك الليلة، بدأ الشيب في رأسي، لم أنتبه اليه إلا في ما بعد، لكنني واثق أنه بدأ مع ذلك الانحدار الذي أسقط قلبي وأنا أهوي الى القيعان وأصعد الى القمم، مقذوفاً كالكرة الى الدوائر المائية المزبدة التي تتلاعب بي، قبل أن يشل البرد والمطر والريح قدرتي على المقاومة، ويضغطني التيار السطحي الى تحت فيختل توازني وأغرق كالملايين الذين سبقوني، والملايين الذين سيتبعونني في طريق الجحيم هذا، طريق الموت في العواصف الهوجاء.

سأقرأ بعد ذلك عن الرحلات البحرية القديمة وما صادفها من خبّ وسوء حظ، وسأفهم كيف ينجو بعض

البحارة في بعض الحالات النادرة، وكيف يكتب الخلاص لقارب صغير، بينما القارب الكبير يتحطم، وكيف يقاوم البحارة الذين قذف بهم من على متنه الى البحر على أمل التعلق باحدى أخشاب مركبهم المحطم. سأعرف هذا فيما بعد، أما في ذلك الوقت فلم أكن انتظر تلك الخشبة التي ساقها إليّ القدر، والتي تعلقت بها يومين كاملين، حتى قيض لي مركب مسافر انتشلني وهو في طريقه الى الجنوب، وبعد أن رسا في المرافىء الفلسطينية تابع مسيره الى الاسكندرية.

أعطاني ريّس المركب وبحارته بعض الثياب وبعض المساعدة. قالوا لي اقصد ميناء الاسكندرية وقص عليهم ما جرى معك. إذا كان الريس عبدوش قد نجا فستجده هناك. وإذا صادفك الحظ فعثرت على والدك تكون قد بلغت هدفك من الرحلة كلها. انت لا تريد أن تعمل معنا، ولا ترغب بالإقامة في الإسكندرية. أنت تبحث عن والدك، وهذا مسعى محمود. أنت أخونا في هذه المهمّة اللعينة، وقد فعلنا لأجلك ما استطعنا، فنسأل الله لك السلامة والتوفيق.

لم اعثر على والدي في الإسكندرية. اكّد ريّاس الميناء والبحارة أنهم لم يروا ولم يسمعوا بغريب اسمه صالح حزوم. اعطيتهم أوصافه خشية أن يكون قد بدل اسمه، فلم يتعرّف عليه أحد منهم، وعندما يئست من العثور عليه، قررت

العودة إلى الوطن، ونزلت في مركب لبناني حملني إلى طرابلس، ومنها إلى اللاذقية.

وجدت خبر الكارثة قد صار من المنسيات في مدينتي. قامت رئاسة الميناء في اللاذقية بكل التحريات الممكنة. خرجت زوارق بحارية إلى مسافات بعيدة. سأل أهالي الركاب والبحارة عن مصير المركب طويلا، ولما لم يقفوا له على أثر، اعتبروا الحادث منتهيا، وقرروا أن العاصفة قد حطمت مركب الريّس عبدوش بكل ما فيه، وأن الخسارة كبيرة، في الأرواح والأموال، لكن البحر والقدر هكذا أرادا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

ظهوري، بعد شهور من حادث الغرق، كان مفاجأة أذهلت الجميع. وجدت أمي تلبس السواد، وفي بيتنا ما يشبه المناحة، وفي خمارة أبي الوفق لافتة جديدة لريّس جديد يبسط حمايته على المحششة. وفي الميناء قصص متضاربة عن العاصفة وغرق مركب الريّس عبدوش. كان البحارة قد شرعوا في رواية أخبار وحكايات نسجوها من مخيلاتهم عن النوّية التي تسببت في الكارثة البحرية. وبرغم أن الناس كانوا متلهفين لسماع اقوالي، ومستعدين لتصديق كل ما أقول، فإن خبر قطع الحبل لاغراقي، الذي قام به الريّس عبدوش، كان بعيداً عن التصديق، وسيرفضه الريّاس، دفاعاً عن رجولة وكرامة زميلهم، وسيرفضه البحارة لأنهم يستكبرون على رجل وصاحب مركب في مثل قوة وشجاعة

ومهارة الريّس عبدوش، أن يقيم وزناً لبحار مثلي، وأن تكون كاترين الحلوة التفتت إليّ، وأن زوجها انتظر كل تلك المدة حتى يثأر مني، او يهدم أعمدة البناء عليّ وعلى نفسه. بخلاف ما كنت أتصور من حفاوة واستقبال، صرت متهما في براءتي، إذ كان عليّ أن أثبت أنّ روايتي للأحداث صحيحة، وأنني نجوت بطريقة شريفة، فلم أترك المركب للغرق وأفرّ، ولم استأثر بقارب النجاة لنفسي، وأن حكاية صراعي مع الأمواج، إلى أن قيض لي ذلك المركب الذي انتشلني، هي حكاية صحيحة، ولم يكتف البحارة والريّاس، في حلقات الميناء أو في المقاهي، باستجوابي مداورة، في محاولة لسبر أقوالي، لاختراق حاجز المجهول ورؤية الحادثة كما وقعت والتأكد منها، بل راحوا يناقشونني في الوقائع.

أصعب شيء عليّ، أنا البحار المستجدّ، كان إقناع الآخرين بأن ذلك قد تم كذلك، وأنني أروي الأحداث كما وقعت، دون ميل الى المباهاة، ودون رغبة في تكسُّب الشهرة، أو في اصطناع بطولة ما. من سوء حظي أن أحداً من البحارة أو الركاب لم ينج، وبذلك ضاعت الشهادة التي كانت ستدعم أقوالي، وهذا ما ولّد في نفسي رغبة في التحدي، أو في لا مبالاة باردة، حين كان عليّ أن أتكلم على العاصفة، وتحطّم الصاري، وصعودي إلى رأس الدقل، في تلك الليلة الرهيبة، لأقطع الحبل وأحول دون ارتطامه به،

وما تطلّب ذلك من صبر على المكاره، واحتمال للريح والمطر، وما بذلت من إرادة وعزم في تلك العملية الخطيرة.

على أن القدر، بعد شهور من ذلك، ساق إليّ بحاراً كان يعمل على المركب الذي انتشلني. روى هذا البحّار واقعة العثور عليّ كما جرت، وأكد أنني كنت أصارع الموج، في حالة من التلف الكامل، وأنّ فتوتي وحدها، هي التي سمحت لي بالبقاء على قيد الحياة، محتفظاً بتلك الخشبة التي تعلقت بها، وأنه لم يكن معي لا قارب ولا أيّما أداة للنجاة، وأن الصراع مع الأمواج، لمدة يومين كاملين، هو وحده علامة باهرة من علامات الشجاعة والمهارة البحرية.. هكذا صار ما أقوله موضع قبول، ثم موضع تصديق، وكفّ من حولي عن استجواباتهم السخيفة، وتطابقت روايتي مع رواية ذلك البحار، وعندئذ بضربة سحر، انقلب الجو من حولي، وأصبح في وسع الريّس عبدالحميد، الذي مال إلى تصديقي منذ البدء، أن يقول لمن في حلقته: «سعيد بحّار ابن بحّار، لقد بقي، كما قال، في المركب حتى النهاية، ولولا إلحاح الريّس عبدوش في أن ينزل منه لما نزل. كان، في عناده المأثور عن والده، يبقى حتى النهاية.. لكن الريّس عبدوش، وأنتم تعرفون أي رجل هو، وأي التزام له بشرف البحر والرياسة، آثر أن يبقى وحده، فإما أن يغرق مع مركبه أو يخرج به سالماً. إنّه من هذا البلد، من بحارته الشجعان، وما كان، في أية حال، لتصرف بطريقة أخرى، تجعله يعيش،

إذا قدر له أن يعيش، وهو يذكر لحظة جبنه وتخلّيه عن مركبه في ساعة الشدّة.» وبعد تجديد النار لناركيلته يروح يتابع مديحه، ومن حوله تتضوّى العيون بومضات الإعجاب والتقدير للريّس الذي حافظ على شرف رياسته حتى اللحظة الأخيرة. وبرغم أن محاولة الانتقام حدثت معي بالذات، فقد رأيتها أنا نفسي مبررّة بسبب كاترين الحلوة، ورحت أطري رجولة الريّس عبدوش، ومهارته، وإصراره على البقاء وحيداً مع المركب. إنّ البقاء مع المركب حتى يخرق، ومساعدة الركاب والبحارة على النجاة، مسألة حساسة بالنسبة للعاملين في البحر، وهي حساسة كما شرف الفتاة العذراء، ومن الصعب على ريّس يحترم طقوس البحر أن يخل بها.

- لقد كان عليّ، بناء على نصيحة البحّار العجوز، البحّار الذي عملت معه على الزورق قبل السفر في البحر، أن اسكت عن موضوع قطع الحبل، لأن أحداً لن يصدقه من جهة، ولأنه يطعن ريّساً عملت معه في عرضه، وهذا يؤثر على سمعتي كبحّار، ويجعل الريّاس يتجنبونني، ويفسد علاقاتي بالميناء إفساداً غير قابل للإصلاح. إضافة إلى أن التبجّح في موضوع الجنس مرفوض بعامة، فللبحارة أن يعاشروا من أرادوا من نساء المرافئ، لكن نساء المرفأ الذي يعملون فيه، وينتسبون إليه بلداً وموطناً، مذموم ذكرهن، وهو طعن في زمالة العمل، ومن الضروري، إذا وقع أيّ

اتصال بين بحّار وامرأة في هذه الميناء، أن يظل طيّ الكتمان، وأن يصر البحار على نفيه، وأن تدارى الاشياء مداراة برغم أن الجميع يعرفون، ويقدّرون، أن نساء المرافئ عرضة دائماً للإغراء، ولإقامة علاقة عابرة. غير أن البحّار، كما هو الشأن مع كل رجل، يفكر أن السوء عند الآخرين، وأن بيته محصن، وامرأته مصون، وأن المثل القائل «حوالينا ولا علينا» مثل جيِّد، ينطبق عليه تماما.

شيء آخر كان عليّ أن أمسك لساني عن ذكره، هو علاقتي بعزيزة، ذلك أن وجود بيتها في منطقة المرفأ يعطيه ضمانة ضد الولوغ في سمعته. هذا أمر كنت فيه عفيفاً، ملتزماً، فلم أبح به لأيّما إنسان حتى ولا للبحّار العجوز. كنت واثقاً أنه لن يفشي هذا السر، وأن عمره، وخلقه، وزمالة العمل، تنهاه عن الثرثرة بخبر ائتمنته عليه، لكن هذا الاطمئنان العقلي، لم يحل دون الظن أن العجوز قد يتكلم يوماً، وأنه قد يفعل حتى بقلب أبيض، فيما هو يذكرني بالخير، أو يمتدح شجاعتي أمام البحّارة.

أنا بلا عمل الآن، وبلا نقود، أعيش عالة على امي. شهور انقضت قبل أن أستطيع استعادة ثقة الآخرين. لقد علمتني سفرتي مع الريّس عبدوش، هذه السفرة التي انقلبت الى كارثة، دروساً كثيرة، لا من ناحية التمرّس بعمل البحر، ومواجهة العاصفة والخروج منها سالماً، بل أيضاً من

ناحية العلاقات الاجتماعية على ظهر المركب، مع البحارة والركاب والريّس، ومع الناس في الموانئ الأخرى، مثل ميناء الاسكندرية، ومع جماعتي في ميناء اللاذقية ذاته. ثمن كل تلك الأشياء التي تعلمتها دفعته من صبري وأعصابي. دفعته مضاعفاً في البحر والبر، وبقيت، طوال شهور، متّهماً بصدقي ووفائي، متهماً بتصرفي كرجل وبحّار، معذّباً باحساس أن الآخرين ينطوون على مشاعر خبيثة ضدي، وأنهم لا يقولون كل شيء في وجهي، ويتساءلون في نفوسهم عما إذا كانت الأشياء قد جرت تماماً كما أقول، وأنني لم أغدر بأحد، ولم أهرب قبل الجميع، وأنني وفيت بشرف بحار يعرف أن ريّسه، وفاء لشيم البحر، سيغرق مع المركب كما حدث مع الريّس عبدوش.

خلال ذلك كله لم أتصل بعزيزة، ولا هي حاولت أن تتصل بي، ترصدت الصبي الأسود فلم أقع له على أثر. خيّل إلي أن عزيزة سمعت بنبأ غرق المركب، وأنها قطعت الأمل من عودتي ثانية. وبعد أن ظهرت في الحي توقعت أن تحاول الاتصال بي بشكل من الأشكال. إنها رأتني ولا شك. من المؤكد أنها رأتني، فليس من امرأة تصبر على فتح نافذتها والنظر الى الشارع. ثمة احتمالان: أن تكون عزيزة قد انتقلت من بيتها، أو أنها لا تريد أن تلقاني خشية زوجها، أو افتضاح أمرنا، إن لم يكن هذا الأمر قد افتضح حتى الآن ووشى بنا الصبي الأسود لسيده.

وكما يجب على بحار يعود بعد حادثة أليمة، ذهبت إلى بيت الريس عبدوش. استقبلتني كاترين الحلوة بلهفة. ظنت أني أحمل خبراً عن زوجها، فلما رويت لها ما وقع للمركب، أخذت تبكي، وزارتها والدتي بعد أيام فوجدتها في السواد، حداداً على زوجها، وقد تغيرت علاقتها بنا، لحدس خاطئٍ هو أن سفرتي مع زوجها كانت شؤماً عليه، أو أنّ لي يداً في غرقه، بسبب ما تعرفه هي وحدها من علاقتها بي، ومن ظنون الريّس عبدوش حول هذه العلاقة، ومن عداء ومنافسة بيننا، وتصفية حساب خلال العاصفة. لقد حزرت، بطبيعة الأنثى، أن المودة بيني وبين زوجها كانت مفقودة، وأنه اصطحبني معه مضطراً، كيلا أبقى على البر، وأنه دبّر أمراً للانتقام مني، لكنّه لم ينجح في تدبيره، وأنني كنت الأقوى وكنت الفائز.

ثم أرسلت إليّ يوماً تدعوني لزيارتها. كانت شديدة، صارمة، مصرة على أن تعرف ماذا جرى على المركب طوال الرحلة. أنكرت في البدء. قصصت كل شيء وفق روايتي للحادثة في الميناء، لكنها ألحت على قول الأشياء كما جرت، وقالت لي وهي تؤكد على الكتمان: «إن العلاقة، بيننا، ما زالت سراً، ويجب أن تبقى سراً. إننا أصحاب مصلحة مشتركة في ذلك. أنت لأنك بحار، ولأن معرفة الميناء بأن لك علاقة بزوجة الريّس الذي تعمل معه تؤذيك جداً، وأنا لأنني زوجة، ولأني امرأة تريد أن تبقى محترمة، وسيكون

ضاراً جداً إذا ما تسرّب نبأ ما عن هذه العلاقة، ثم هناك والدك.. كيف تواجه الناس إذا عرفوا أنك خنت والدك؟ إنني أعرف بالحياة منك، وأدرى بمواقف البحارة وسلوكهم، وسيكون مفيداً لنا نحن الاثنين أن نلزم الصمت، شرط أن تقول لي الاشياء كما جرت، كيلا يؤنبني ضميري في علاقتي بك مستقبلاً، وكي أرتاح نفسياً حين أثق أنك لم تغدر به، ولم أكن السبب في غرقه».

هكذا نفذت إلى النقطة الأساسية في حالتي النفسية، النقطة التي تقوم على تبرئة نفسي أمامها، واكتساب الاعتبار في نظرها، أو الحفاظ على الاعتبار السابق على الأقل. إن امرأة مجربة مثل كاترين الحلوة، لم يكن من السهل خداعها، ولا من اليسير الاختباء عن نظراتها التي تسبر طويتي. كنت أريد أن تصدقني، ويهمني، من دون سائر الناس، أن تصدقني هي بالذات، وأن تكف عن النظر إليّ بشك، فأنا محتاج لها جسديا ونفسيا، وراغب في أن تبقى علاقتي بها جيدة، مهما تكن هذه العلاقة، وحتى لو اقتصرت على الصداقة، في أيام السوء تلك، الأيام التي كنت أحسب أني سأدشّن فيها بحاراً تتحدث الميناء كلها عن شجاعته، عن براعته، عن معجزاته، فاذا أنا في ورطة الاتهام، أناضل لاكتساب الثقة، والحفاظ على سمعة جديرة بي كبحّار، وجديرة بي أكثر كابن صالح حزوم. من هذه الزواية نظرت إلى الموضوع. وجدت أن الصدق في الحديث مع كاترين أكثر

فائدة لي ، أدعى لراحتي ، فأنا ، بعد كل شيء ، أكاد أنفجر ، وبحاجة إلى إنسان أفتح له صدري ، وأحكي الأشياء كما جرت .

كاترين كانت ذكية أكثر مما قدرت ، استمعت إلى قصة الرحلة من أولّها إلى آخرها دون مقاطعة ، دون احتجاج ، وبشيء من الإيجابية تجاه ما أقول أحيانا . كانت تهز برأسها وتقول: « طيّب » تشجعني على المضي في الكلام ، وفي أعماق عينيها الواسعتين ، الجميلتين ، مسافات من الرؤية المنعكسة عن تصورّها لما أقول ، وتخيّلها ، بدقة ، للظروف التي جرت فيها الحادثة ، وتوترها مع توتر الحدث ، ومع جو العاصفة ، وسدورها فيما هي تصغي ، كأنها تعيش العاصفة ، والريح ، والمطر ، وكل اهوال تلك الساعات الرهيبة ، بأحاسيسها ، وأنها تشهد ، وتفرح لبؤس الرجال وهم يتخبّطون بكل جبروتهم ، أمام جبار أعظم هو الطبيعة ، وقدرتها المدمرة الماحقة لكل ما يعترضها .

حين انتهيت من قصتي ألقت في وجهي هذا الحكم:

- أنت قتلت الريّس عبدوش!

فوجئت . كدت اصرخ : «أيتها العاهرة! بعد كل ما فعلت لأجل المركب ، والبحارة ، والركاب ، لضمان نجاتهم ، ودفع الكارثة عنهم ، وإنقاذ الأشياء مضحيّاً بنفسي ، أُتّهم بأنني قتلت الريّس عبدوش؟ » ولعلها أدركت النقمة الفائرة

في ذاتي، واستعدادي، تلك اللحظة، لقتلها، لتقويض البيت عليّ وعليها، لذلك استدركت قائلة:

- انت لم تقتله مباشرة.. تحدّيته فقتلته..
- كيف؟ وما هذا الاستنتاج السخيف، ومن الذي تحدّى الآخر بيننا، أنا أم الريّس عبدوش؟
- أنت!

قالتها بتشديد، بحسم غير قابل للمراجعة، قالتها بشفتيها، بعينيها، بيديها، بشعرها، بتقاطيع وجهها، بجسدها كله الذي يسكنه الشيطان. ويطل منه بلسانها أيضاً. «أنت! أنت! أنت!» كذلك صرخ كل ما فيها، كل ما في بيتها، من العتبة إلى الباب إلى النافذة، إلى السرير والصورة، والمقعد، إلى أول وآخر أداة في ذلك المنزل الذي تسكنه ساحرة، كما خيل إليّ للحظة. تمنّيت، ساعتها، لو كنت أحمل سكيناً، عصاً، أداة قاتلة. وفطنت هي، حالاً، إلى يدي بأصابعها المتشنجة من شدة القهر والغضب، وصررت بأسناني في نوبة حقد أخرس، أعمى، ولم يبق إلاّ أن أثب عليها، وأنشب أظافري وأسناني في عنقها. أمّا هي فقد ابتسمت. ألقحبة ابتسمت. تعرف متى تبتسم، تدرك متى تغري. ومتى تزجر. متقنة لكل الأساليب الأنثوية الأفعوانية القاتلة، وتبدّت، خلال ذلك، بثيابها السود، بوجهها الجميل الخالي من المساحيق، بعنقها الأبيض، على ورد، بشفتيها المرتعشتين كشريحتين

مخضبتين. تبدّت، أجمل من كل ما رأيتها، أنضج من كل ما عرفتها، أفتن من تلك الدقائق الساحرة التي كنت أقضيها على صدرها وهي تئنّ ونتأوّه، قبل أن تبلغ الاندفاعـة الاخيرة الصاعقة، بعنفها وحرارتها ودفقة الشبق المركز فيها.

- أنا تحديتّه؟ سألتها بصوت حاد، مكـتوم من الانفعال، مطوَّق بما تبقى من إرادة السيطرة على النفس.
- نعم: أنت، لا بصفتك إنساناً، بل بصفتك عشيقاً.. لا شيء يتحدّى الرجل مثل عشق زوجته.. (وبعد ابتسامة) أنا هنا أتحدث عن الريّس عبدوش لا حبّاباً.. اتحدث عن رجل لاعن قوّاد.
- مع ذلك، مع ذلك.. لم آت بما يمكن أن يكون تحدياً له.
- وجودك الى جانبه على المركب هو التحدّي بعينه.
- كان عليّ ألا أسافر إذن؟
- وهل كان يسافر لو لم تسافر؟ ما أظن.. أنت لا تعرف من هو الريّس عبدوش إذن..
- وما كان عليّ أن أفعل؟ إذا سافرت تحدّيته، وإذا لم أسافر تحدّيته، فماذا عليّ أن أفعل؟.. قولي أنت..
- كان عليك أن تسافر.. هذا أدعى إلى طمأنينته..
- وهذا ما فعلته..
- لكن تصرفك على المركب أفسد اللعبة..

- كيف؟
- تصرفت كندٍّ له.. أظهرت من الشجاعة والرجولة ما استفزّه.
- لم يحدث هذا قط.. حاولت أن أثبت له أنني بحار جدير بثقته..
- وهذا ما أخافه.. هذا ما شكل تحدياً له.. لماذا لم تتركه يصعد إلى الدقل؟ لماذا لم تظهر شيئاً من الجزع خلال العاصفة؟ شيئاً ولو قليلاً.. كان كافياً لأن يطمئنه إلى أنك لست الرجل الذي يمكن أن تهواك، وأن تتبعك، كاترين الحلوة.. زوجته.
- هم.. هذا ما لم أفكر فيه.. لم تكن لي فراستك ولا تجربة والدي.. إني عديم الخبرة..
- انت لم تفكر في أشياء كثيرة.. طمحت، منذ الرحلة الأولى، أن تبرز بحاراً، أن تقلّد والدك في سلوكه، في رجولته وشجاعته، لكن والدك، كان رجلاً، لا صبيّاً ،مثلك..
- أنا لست بصبي أولا، ولم اطمح الى البروز ثانياً، ولم أكن أقلد والدي.. أنت تفترضين أشياء لم تحدث.. تريدين الوصول إلى نتيجة معينة، مقررة سلفاً..

وقفت كرمح. الأصح أنتصبت واقفة كأن نابضا دفعها إلى أعلى.. التمعت عيناها بغضب مفاجيء. رفعت اصبعها في وجهي وأطلقت هذه الشتيمة:

- أنت وغد.
- أنا لا أسمح..

قلتها واقفاً.. أضفت:

- لو كنتِ رجلاً لجعلته يدفع ثمن هذه المسبّة.. سعيد حزوم ليس وغداً.. إنه شريف.. (وبلعت عبارة كدت أقذفها في وجهها) اعقلي.. تأدّبي والا...
- واذا لم أتأدّب في حضرة الريّس؟

قالتها بسخرية، ووضعت يدها على كتفي وأجلستني على المقعد..

- أنت جرو صغير يحب النباح لا أكثر.. إفهم ما أقول.. لا أريد لأحد أن يستغفلني.. أنت قتلت الريّس عبدوش.. قتلته بيده.. دفعته إلى قتل نفسه.. إلى الانتحار.. أنا أعرف ما أقول، فلا تحاول النباح عليّ.. كان عليك أن تتصرّف بشكل آخر، أكثر لياقة وشهامة..
- وما الشكل الآخر للتصرّف؟
- أن ترفض النزول من المركب قبله.
- لكنّه أصرّ..
- وكان عليك أن تصّر أيضاً.
- لكنّه الريّس، بعد كل شيء.
- في العاصفة لا يبقى ريّس وبحار..
- أنت لا تعرفين حياة البحر..
- اعرفها أكثر منك.. جميعهم تحدّثوا إليّ عنها، بدءاً من والدك..

- من عادات البحر أن يبقى الريّس مع المركب أو السفينة في حالة الخطر..

- هذا ضروري كيلا ينزل الريّس قبل الجميع.. ويترك البحارة والركاب للموت.. قال لي الريّس عبدوش إن الريّاس يبقون للأخير.. حتى يوفروا أسباب النجاة لمن معهم وبعد ذلك، إذا كان المركب سيغرق لا محالة، يستطيع ربّانه النزول منه.

- وهذا ما فعله الريّس عبدوش..

- لكنك نزلت قبله.. أنت عشيق زوجته كما كان يعتقد، ومعنى هذا أنك تريد النجاة، لتكون الزوجة لك وحدك.. أثرت غيرته، جنونه، قطع الحبل كان جنوناً.. كان جريمة، ارتكبها الريّس عبدوش ثأراً لشرفه وكرامته ورجولته..

- ولِمَ لم ينج بنفسه بعد ذلك؟

- لم يعد يريد النجاة.. بعد محاولة إغراقك لم يعد يريد الحياة، ولا الظهور في الميناء، لقد حطمتَه نفسياً .. قضيت عليه تماماً.

- أنا غير مسؤول عن هذه الأفكار السوداء الشيطانية!

- بل أنت مسؤول تماماً.. لو بقيت معه ربما استطعتما انقاذ المركب، وانقاذ نفسيكما أيضاً.

- والنتيجة؟ تريدين اتهامي؟ تقديمي إلى المحكمة؟ إفعلي ما تريدين، سأقول كل شيء كما صار.. أنتهي من هذه

القضية القذرة.. يكفي ما عانيت منذ عودتي.. كنت أنتظر المدائح على فعلتي.. خيّل إليّ أنني قمت بعمل كبير.. صارعت النوء يومين.. وأن الميناء ستعرف قيمتي، وأنني سأبلغ شهرة كشهرة والدي، فاذا كل شيء عكس ما تصورت.. في الميناء يتهمونني.. يشكّون في الحادث.. وأنت هنا لا تكتفين بالشك.. تصدرين عليّ حكماً. إذهبي الى جهنم.. إذهبوا جميعا الى جهنم.. لن أبالي بكم جميعا.. أنا بحار ابن بحار.. تصرفت وفق الشرف والتقاليد البحرية.. أنا لم أقتل الريّس عبدوش.. أنتِ هو القاتل.. خيانتك هي التي قتلته.. لقد خنتِ والدي وهو في السجن. من اجل ذلك طردك من مرسين.. وخنت الريّس عبدوش وهو مسافر.. وستخونينني أيضاً.. وربما كان لك عشيق جديد الآن.

خرج صوتي عاليا، وكلماتي عنيفة. رحت أدور في البيت وقد استبد بي غضب اعمى. رغبت في تحطيم الاشياء وتحطيم نفسي، يكفي ما تحملت. كنت في عداد الاموات. انقذني ذلك المركب بأعجوبة. بقيت أياماً ملقى في عنابره. في الإسكندرية عرفت الغربة والذل والألم. من الذي غدر بي؟ من الذي قطع الحبل؟ ولماذا؟ كله لأجلها. لأجلها هي لا سواها. صيادة الرجال هذه. قاتلة الرجال هذه. خاربة البيوت. كادت تخرب بيتنا. أوقعت والدي في حبالها. كاد يرتكب حماقات لأجلها في مرسين. كل رجال الميناء، كل

البحارة العرب، لم يكفوا لإشباعها، خانتنا مع الأتراك ايضا، الخيانة في دمها. السمّ في شفاهها.. تتغداني قبل أن أتعشاها. تخلق حججاً كي تبتعد عني. اللعنة على حواء! اللعنة على حواء! تمثل عليّ دوراً. تلهبني كيلا انطفىء تشعل النار فيّ من جديد. تدفعني إلى الموت في سبيلها. تريدني زوجاً.. أفهم هذه اللعبة. ستارة اخرى، «حبابا» آخر، لكنني لن أتزوجها، كنت يوما عشيقها. أسأت الى ذكرى والدي، دنست شرف الريّس عبدوش. تسببت في غرقه لأجلها. هي السبب. قاتلة. رهيبة، شيطانة في صورة امرأة.. ملعون البطن الذي حبل بها.. ملعون السرير الذي ضمّها. ساحرة! لا شك أنها ساحرة ربما كانت من عرائس البحر، عروس البحر تفتن البحارة وتقتلهم. هذا ما تفعله هي أيضاً.. يجب أن أنصرف. نعم.. الانصراف، الهرب.. النجاة بالنفس، هذه هي العاصفة. أمكر وأفظع من العاصفة.. إذا لم أفرّ غرقت.. تريد إغراقي.. لكنني لن أغرق.. يبدو أنها لا تعرف أيّ سبّاح أنا..

مضى الوقت سريعاً وأنا في هياجي وثورتي، كنت أدور في البيت على غير وعي، كانت العروق تنبض في رقبتي وجبيني، الدم يتدفق حاراً صاخباً. بلغ بي الانفعال درجة الجنون. خرجت عن طوري تماماً. تحاشتني. وقفت في زاوية الصالون وهي تتابعني. تنتظر أن أهدأ. أن أعود الى رشدي. تعرف كيف تهاجم. وكيف تدافع، وكيف تتراجع،

معلمـة، اكـبر معلمة. عاهرة! قوادة.. تضاجع الريح..
استدرت إليها:

- إسمعي! أنا أعرف ماذا تريدين.. لعبتك القذرة لا تجوز علي.. أنا خارج ولن اعود.. لن اعود أبداً..

- ...

- لا تتصلي بي بعد الآن..

- ...

- ألا تتنازلين في الرد عليّ..؟

- ...

خرجت كعصفة ريح قوية.. كقذيفة منطلقة.. أغلقت الباب بشدة ورائي. لم أحترم خصامي مع امرأة، رجل يتقوّى على امرأة!.. ايّ شرف يحصل عليه الرجل وهو يتحدى امرأة؟ هي قالت هذا بعد ذلك. لعلها أجرت مقارنة بين والدي وبيني. والدي كان شيئاً آخر. أعقل، أوزن، أقدر على تمالك نفسه، أحزم بالبتّ في الأمور. كان تصرفي طائشاً. ينسجم مع عمري. مع تجربتي.. وكانت هي، الخبيرة، المجربة، تعرف هذا، وتعرف أنها تسلطنت علي. ثورتي أكّدت لها هذه السلطنة. حين خرجت كانت، كما قالـت، واثقة أنني سأعود، وأن نباحي الصوتي يستمد غلواءه من نباحي الجسدي.. كانت تقرأ في عيني، في وجهي، في أصابعي، في أظافري، أنني جائع اليها، وأنني أشتهيها، وأن هذا السواد، الذي يزيد من بياض جسدها،

قادر على ترويضي، وأنها في سواد لباسها، تمهد لليلة حمراء من لياليها، وهذا الخصام ليس إلا قماشة حمراء تستثير بها الثور الذي هو أنا.

لشد ما كرهتها وأنا أغادرها، كان كرهي يتساوى مع حبي. خطأ! أنا لا أحبها. أشتهيها فقط. حرماني الطويل، فراقي الذي امتد شهوراً، لباسها الأسود، جسمها الأبيض، العنق ومجرى النهدين الحليبي، كل ذلك استثارني. زاد في استثارتي أنني جئتها طامعاً في مودتها، في تفهمها، في وقوفها إلى جانبي ضد الذين يشكّون في أمري، فاذا هي لا تشّك فقط، بل تصدر حكما. قالت بقناعة، بإدانة، بصوت قاطع كشفرة السكين: «أنت قاتل! أنث قتلت الريّس عبدوش» يا آلهي! أنت تعرف أنني لم أرتكب هذا الإثم.. أيها البحر أنت تعلم أنني كنت صادقاً في البقاء على المركب، وأنه هو الذي أرغمني على النزول إلى قارب النجاة. وهو الذي قطع الحبل كيلا انجو، وأنني ما كنت افكر، وحتى لو فكرت، ما كنت لأستنتج ما استنتجته كاترين. لقد أبحرت برغبتي، بإرادتي، وعملت على المركب مخلصا، مندفعا، غامرت دون حذر، خاطرت بروحي، صعدت الى الدقل في قلب العاصفة، ما اكترثت بتوفير نفسي، وبعد هذا كله ألقي جزاء من هذا النوع؟ أعاقب بالشك والاتهام؟ يصير الأمر لديها حكما؟ أنا أرفض هذا الحكم. أرفض الشّك والتهمة..

أرفض كل شيء.. وأرفضها هي أيضاً، أرفضها ولن أعود إليها لن أعود لن أعود..

قصدت خمارة توفيق. قلت في نفسي: «هذا ما تبقى» أسكر، أتحدّى، أقاتل، وليجرب ابن زانية في هذا المرفأ أن يدوس على رجلي، أن يرميني بنظرة، بزهرة، أن يعصر الملح في عيني، وعندئذ، ستعرف اللاذقية، مدينة المكر، من أنا، ومن يكون والدي.

رحّب بي توفيق كما يجب. اعتاد أن يراني دائماً في خمّارته. حزن على الريّس عبدوش، لكن حزن الخمّار، كحزن المرأة، لا يدوم، كلاهما يبحث عن زبون، عن ضحكة، عن نكتة. كلاهما يبدل صاحبه كما يبدل قميصه. إلى البالوعة بكل أحزان الدنيا. لتذهب مع المياه القذرة، مع مجاري المدينة، ولتصب في البحر، وهو هذا الواسع، يتقبّل كل شيء، ويطهّر كل شيء: الحزن، والقذارة، وافتراءات الناس.

قلت لتوفيق:

- نصّية يا أبا الوفق، وتعال اشرب معي.
- نصّية على رأسي. لكن الشرب معك لا.. ألا تراني مشغولا؟

يكذب! إنه لا يريد أن يشرب معي. هو أيضاً هذا الحشّاش، هذا القواد، نسي من أنا، ونسي معركتي معه. إلى

الجحيم بكل ما يفكر به، أستطيع، وقتما يطيب لي، أن أحطم أنفه، أن أذكّره بأن سعيد حزوم، ابن صالح حزوم، لا يرفض كأسه، ولكن مالي وله؟ لماذا صرت حساساً إلى هذا الحد؟ لماذا أشك في الناس وأعتبرهم أعداء؟ أين راغب درويش الآن؟ ضحك من فكرة البطولة. قال: «البطل رجل مغفل» أنا كنت مغفلا حين سعيت إلى البطولة. خضت معركة في هذه الخمّارة لأجلها. صعدت الى الدقل لأجلها أيضاً. قاومت الأمواج يومين لا حبّاً بالحياة فقط، بل حبّاً بالبطولة أيضاً.. باطل هذا الحلم، أن اصير بطلا فهذا لا شيء. والدي ما كان يفكر بالبطولة، لذلك ما كان ليصدم اذا لم تأت. الأريحية لوجه الله. فعل رجولة كانت لديه.. مثلها مثل المعروف. لم يصنع معروفا وينتظر جزاء، كان يعمل ويرمي في البحر. معروفه يزرعه في البحر، ولا ينتظر منه ورقا ولا زهرا.. أنا توقعت الزهر فاذا بي أحصد الشوك. كاترين الحلوة حصّدتني الشوك. وقبلها رجال الميناء، واليوم توفيق الخمار. تفو على هذه الدنيا، على هذه القحبة!

في هذه اللحظة جاء توفيق الخمّار وجلس على مائدتي:

– أراك مغضبا!

– لا شيء.. اعتكار مزاج لا أكثر..

– بل هناك أشياء.. من يراك يحسبك خارجاً من معركة..

– الدنيا كلها معركة..

- أنا صفّيت حسابي معها..
- وأنا أحاول... من السجن، إلى العاصفة، إلى المرأة.. اللعنة!

قال أبو الوفق محاولاً تهدئتي:
- افعل كما أفعل أنا.. لا أبالي بشيء. قطعة حشيش، وكل خطير يهون.. (اضاف): من كان يظن أن سيد الرجال، رأس الرياس، يضيع على هذا الشكل؟ وأن زوجته كاترين الحلوة، تعتزم الزواج بهذه السرعة؟ أمس كان عندي الرّيس زيدان، وكان واضحاً أنه يعتزم أن يتزوجها. هو لم يقل شيئا.. هذه أشياء لا تحكى في الخمّارات. العرض غالٍ رغم كل شيء. وهو متزوج، له عائلة وأولاد، ولا أدري أي شيطان أغراه بها. يقال إنه كان يحسد الريّس عبدوش عليها.. هذه امرأة لا تتزوج سوى الرّياس. تفتنهم او تسحرهم.. بودّي لو أراها مرة، لو أرى صورتها مرة، لأعرف أي جميلة بين النساء تكون، ومدى إغرائها الذي تتحدث عنه الميناء كلها.. أتسمعني؟
قلت وأنا اجتهد لأكبت انفعالي:
- أسمعك.. أسمعك تماماً.. كأسك..

شربنا كأسينا برشفة كبيرة. كان أبو الوفق مخبلاً قليلاً، بقايا الحشيش لم تزايله. في هذه الحال يبدو ظريفا ومقبولا.

سوى أنه لا يتوقف عن الثرثرة، يقول الأشياء وكأنّه يرويها لنفسه، يكون شعره مشعثاً، قميصه مفتوحاً، ذقنه نابتة، ومن هيئته كلها يتبدى الاهمال والبلادة. إنه لا يستيقظ الا ليلاً. آنذاك يستعيد وعيه، وتتملكه روح شريرة، مردّها الى شعوره بالخيبة، وبالضيق، ورغبته في أن يتسلطن على محششته، وأن يهابه الصيادون والبحارة المدمنون، الذين يقبلون عليه أكثر ما يقبلون وهم في حالتين من إفلاس ومناكدة.

صاح صوت من طرف الخمارة، مبلول، متعتع، ماجن:

- أين أنت يا توفيق.. يا ابن الغريبة[١].

- ماذا تريد يا ابن الانتياسة[٢].

- تعالَ نظف هذه الطاولة..

- فشرت..امسحها بسروال أمك..

قال رجل في أقصى الخمّارة:

- أمه كانت بلا سروال..

قال أبو الوفق:

- كانت مستعدة على الدوام..

قال الرجل:

- مثل استعدادك وأنت غلام..

- استعداد أمك كان من الجهتين..

- أنت يا توفيق ركزت على جهة واحدة.. وهي الجهة

(١) و (٢) نوعان من السمك.

المقبولة فيك..

- يا ابن العايبة! ألا تخرس وتتوقف عن زفارة اللسان.. أو تريد أن أقطعه لك؟

- اقطعه يا أبو الوفق.. حسّون بلا لسان افضل.. في هذه الحال لا يستطيع أن يعض..

قال توفيق:

- حسّون لا يعض في الحالتين.. ينبح فقط.. أما لسانه فقد أجرّه في السجن لامرأة «الكومندان». كان خادماً عندها، وكانت معتادة على.. وقد نسيت كلبها في فرنسا، فقام حسّون مقامه..

أجاب حسّون:

- أنت سافل يا أبو الوفق..

فقال صياد:

- كلنّا سفلة.. زبائن توفيق من ماركة واحدة..

نهض توفيق وقد أنعشه الحوار، فوقف في منتصف الخمارة وقال:

- اسمعوا يا أوباش.. أنا لا يهمني من أي ماركة زبائني.. المهم أن يدفعوا.. خذوا علما بعد اليوم.. «الدين ممنوع والعتب مرفوع والرزق على الله» غداً سأكتب لوحة.. أعلقها على الباب..

قال حسون:

- علقّها على مؤخرتك.. هذا هو الباب الواسع.

وقال عجوز أدرد:

- توفيق ولد طيب لا يفعلها.. كفّوا عن هذا السخف.. بيننا أوادم..

وقال توفيق:

- وصلة كشكش بك انتهت.. العمى! ألا تريدون أن يمر يوم بسلام؟ دعوني أشتغل وإلا القيت ابن الإبرة الذي يرفع صوته بينكم خارجاً.

هكذا انتهى ابو الوفق إلى نوع من استياء. إنه يدخل في منولوجات مفاجئة مع زبائنه، لكنه لا يستطيع إيقافها إلا بمعركة. كانت الخمّارة أشبه بزريبة للكلاب، وكان العراك دائماً فيها على أيّة عظمة تلقى داخلها، فاذا لم يكن ثمة عظام، هرّت الكلاب بعضها على بعض، في عرير يأخذ طابع الهراش غالباً. كنت أعرف زريبة الكلاب هذه، وأجد فيها، خاصة أيّام البطالة والنحس، منفرجاً لصدري، لكنني لا أشارك في السباب ولا المزاح، لا أتقبل سلاطة الألسنة ولا بذاءتها.. أريد ألاّ أستسلم لهذا الجو الموبوء، وآسف أن الأيام اضطرتني إلى التماس التسلية في خمارة قذرة كهذه.

الآن وأنا في أزمتي النفسية، بدت لي الحياة رخيصة إلى درجة تجعل المرء يكفر بالعيش فيها. كنت آنف الانحطاط إلى ما صار إليه هؤلاء السكارى، لكنني أحسّ بالسقوط تدريجيا، وعبثا أتعلق بجوانب البئر التي أهوي الى قاعها.

كل نتـوء تمسكـت به انقلع في يدي. كل جذر، في حوافي البئر، او عند فوهته، كان يتملص أو يتحطم كعود يابس. كل شيء يدفعني إلى أن أستسلم وأهوي. هكذا أستقر في القعر وأستريح. إنني أرفض هذا المصير.. لقد أعددت نفسي لشيء أفضل. عاهدت والدي أن اكون بحاراً ومناضلاً، أن أخلفه في البحر وفي النضال، أين أنت الآن يا والدي؟ كيف كنت تتصرف لو وضعتك الأيام في موضعي؟ أنت لا تعشق نساء البحّـارة، «هؤلاء زملائي- كنت تقول- أحبابي، إخوتي» لكن الريّس عبدوش عشق كاترين الحلوة، تزوجها أيضاً، فما كان موقفك لو عدت ورأيتها معه؟

فكرت بهدوء، زايلني الهياج تدريجيا. مجيء توفيق إلى طاولتي بدّد شكوكي، هو لم يفكر بمقاطعتي اذن. لم يتعال عليّ. ما شكّ ولا اتهم. أبو الوفق خارج إطار الشكوك والاتهامات. لا يتعب نفسه في سؤالك ما هذا ومن أين؟ لا ينصب نفسه محققا ولا قاضيا. المهم لديه أن تدفع، وحتى إذا كنت مفلساً يمهلك. بعد ذلك كل الناس سواسية لديه. الشريف مثل العاهر، الأمين مثل الخائن. العفيف مثل السارق. بـل ربمـا كره الشرفـاء وأصحـاب الفضيلـة والبنطلونات.. أول دخولي خمّارته لم يشأ أن يستقبلني كما يجب. حسبني أفنديا. كذلك حسب راغب درويش. كل شيء ملوّث هنـا. الثيـاب والنفوس والجدران وكؤوس الشراب. لا محل للنظافة ولا ضرورة لها. البذلة البيضاء

مرفوضة. كذلك مرفوض القميص الأنيق المكوي. توفيق لا يتعامل مع هذه الأشكال. توفيق لا يحزن على أحد أيضاً. ممنوع مرور الحزن من هنا. اخلع أحزانك وأنت على الباب. اخلع وقارك أيضاً. كن ماجنا. سفهيا، خليعا، وتدبر نفسك بين أمثالك من الماجنين السفهاء. هو نفسه سفيه ومجرم، لكنّه، حين علم أني اشتركت في مقاومة فرنسا وسجنت، احترمني. أكرمني. عرّفني إلى الريّس عبدوش.. كان هذا في الماضي. الآن تغيرت الصورة. المركب غرق. الريّس عبدوش مات. أنا عدت دون إكليل غار. كاترين الحلوة تريد إلباسي إكليلا من الشّوك. تتهمني بقتل زوجها، تفلسف اتهامها. تريد تبريراً لموقفها الجديد، لخيانتها الجديدة، لزواجها من الريّس زيدان، ولما تمض شهور على غرق الزوج السابق.. أيّة امرأة هذه؟ أفعى بصورة امرأة؟ جنيّة بوجه حسناء؟ قاتلة بيدين بريئتين؟.

شربت، شربت، شربت. لم أسكر، لم أدخل في عراك مع أحد. لفحتني ريح أريجية، أحسست بالراحة. رغبت في البكاء، بكيت دون دموع. تراءى لي والدي بوجهه المهيب ورجولته الفياضة. خيّل إليّ أنه عاتب عليّ. «أنت نسيتني – قال لي – ومن حقك أن تنساني، فمن غاب عن العين ينساه القلب».

ماذا أقول لوالدي؟ بحثت عنك في اسكندرونه، واللاذقية، والاسكندرية. سألت عنك البحارة والرياس

وعمال المرافيء. حملتك في قلبي سجينا وطليقا، لأجلك صرت بحّاراً وصارعت البحر، إنه يعرف هذا، يحدس به ولا شك. لكنّه يعرف، او سيعرف، أنني خنته مع كاترين الحلوة، وأنني انتهكت حرمة البحر، والمرأة التي أحبّها دنست شرفها، والريّس الذي عملت معه تسببت في غرقه.. سلسلة من الوقائع القذرة.. هذه حياتي، لا بحر ولا نضال، لا فروسية ولا مقاومة. إنني أسقط. ولو كانت في بيتنا صورة له لأبصرت الدموع على وجنتيه... لقال لي: «اسمع، دع كاترين الحلوة وشأنها، الريّس عبدوش كان شريفا. كان ريسا وبحّاراً. تزوجها بعد أن تركتها أنا. لم تكن لي علاقة بها. موقفه، من هذه الناحية، سليم، وينسجم مع أخلاق البحر.. وكاترين لم تقترف ذنبا، ذئبة هي. امرأة رهيبة، ساحرة، شيطانة، قل ما شئت، لكنّها معذورة في سعيها إلى رجل يتزوجها ويحميها. كان الريّس عبدوش زوجها وحاميها.. أنت من أنت؟ مجرد عشيق؟ وماذا في وسعك؟ أيّة ضمانة او حماية تقدمها لها؟ أنت تعيش عالة على أمك المسكينة التي تعمل في إدارة التبغ.. أنت لا شيء وربما لا تكون شيئا في المستقبل، فماذا تصنع بك كاترين الحلوة؟ دعها تتزوج الريس زيدان.. ابتعد من طريقها، ابتعد.. ثب إلى رشدك.. انتبه إلى نفسك.. أصلح وضعك يا بني.. لا تيأس من الخطوات الاولى، لا ترجع وأنت في أول الطريق.. سأعود يوما.. دعني أفتخر بك حين أعود.. لا

تخن الأمانة التي حمّلتك اياها ».

قال سعيد في نفسه: « والدي على حق، كأنني رأيته في هذه اللحظة. كاترين تحتاج الى زوج لا إلى عشيق، كل امرأة تحتاج الى زوج، أنا لا أستطيع أن أتزوج كاترين في ظروفي الراهنة. وسواء كان اتهامها صحيحا ام خاطئا، فإن الصراع عليها، بيني وبين الريّس عبدوش، انتهى. انزلقت من أيدينا كلينا، لم تعد له ولا لي. قريبا تصير زوجة الريّس زيدان. لا أدري من هو بين الرياس، ولا من يكون بين الرجال، وربما تعارفنا في المستقبل، لكن حكايتي مع الريّس عبدوش لن تتكرر. لن أبحر مع ريّس بيني وبينه امرأة. قد يلعب بي الشيطان من جديد. يخضعني لتجربة جديدة. تكفي التجربة الاولى.. أفضل ما أعمله هو البعد عن كاترين الحلوة. نسيانها. حذفها من حياتي. عليّ أن أسعى إلى رزقي. لا بد من تدبير عمل، أعود إلى الميناء عند اللزوم، كلّه بحر، على الشاطيء بحر وفي اللجّة بحر. هكذا شاءت الظروف، ليس في وسعي أن أتحدى الظروف ».

لم أكمل زجاجة العرق. وجدت جسمي يرفض المزيد. كنت أستشعر البؤس، لم ينجح العرق في إطفاء بؤسي. العقل سيطر على العاطفة. كان ذلّ داخلي يفترسني. كان شعور معذب بالضياع يجعل الدنيا مضبّة في نظري. من أنا؟ ماذا فعلت؟ لماذا يلاحقني الفشل؟ لم اكمل تعليمي، لم أعثر على جثة والدي، لم أجده حيا، لم أثبّت اقدامي في الميناء

ولا في البحر. لم تدم لي عزيزة ولا كاترين.. لم أتبّع والدي على طريق البحر ولا طريق النضال.. اللعنة على كل وجودي. الدنيا تعاقبني. البحر يقتصّ مني. غضب والدتي يفرِّع شوكا في طريقي.. أنا وحيد، منبوذ، عاطل عن العمل، متشرد، أنا في النقطة التي تنبأ لي بها راغب درويش. لو كان الآن الى جانبي لاصطادني بيسر ليجعلني عصفوراً في سربه. عنصراً في شبكته. زلمة من أزلامه.. وبعد ذلك، أيّ مصير أنحدر إليه؟ أي سمعة سيئة أجلب لعائلتي ووالدي؟ وكيف أظهر في الميناء، وبين البحّارة؟.. مخيف، مخيف، مخيف.. كل شيء يدفع بي إلى السقوط، إلى الهاوية، إلى جهنم، وضد هذا السقوط يجب أن أقاوم: ضد تلويث سمعة والدي وعائلتي يجب أن أصارع.. مستحيل.. اليابسة ليست أقسى من الماء. في البحر صارعت، قاومت الموت وانتصرت عليه، فكيف أستسلم هنا، على البر، حيث لا عاصفة ولا ريح ولا موج؟ «قاوم يا سعيد، قاوم، أخرج من تحت هذا البؤس، ابتهج قليلا. أنت ما تزال في الشباب. الأيام طويلة أمامك. دربك مفتوح. لا تعذب نفسك بالندم. كل ما فعلته كان جيّدا، كان شريفا، ارجع إلى ضميرك، أسأل هذا الضمير، كن أقوى من التهم والنظرات المسننة، إستعد ثقتك.. أطرد هواجسك بعيدا. من الغد إنزل اليمناء، خاطب العمال والبحارة في موضوع الشغل. لا تكن خجولا. تجربة ومرّت.. البحار يمرّ بتجارب كثيرة. والدك،

قبلك، مر بتجارب كثيرة، وإذا لم يحدثك عنها، فلأنه كان يرفض الكلام على المحن ونقاط الضعف، كان صموتا، لا تصدر عنه شكوى. كان كالبحر، عميقا وكتوما».

التقيت، بعد أيام، البحار العجوز. من النظرة الاولى أدرك أنني لست على ما يرام. أنا لم أشك. ما تحدثت عن عكرتة الزمن. بلعت السكّين وسكت. قلت إنني أبحث عن عمل. قلت أيضاً إنني لا أستطيع الإبحار وترك عائلتي. أخفيت الحقيقة. تظاهرت بالاعتداد، لكن وجهي فضحني. كان العجوز كيّسا. كان فطنا. لم يشأ أن يحرج موقفي. أمسك عن الكلام حول ما يعرف. ساعدني على فتح قلبي له. شيئا فشيئا فكّ عقدة لساني. بحت بما أعتبره سرّا: محاولة كاترين الحلوة اتهامي بدفع زوجها الى الغرق مع المركب. قال العجوز بعد أن أصغى إليّ طويلا: «إسمع يا سعيد، البحّار، لكي يصير بحّاراً، يلقى كالحديدة في النار، تنزل المطارق على رأسه، يتشكّل وفق قانون البحر: التجربة، فالخطيئة، فالندم. أنت لا تستطيع أن تمر بالوحل دون أن تتسخ قدماك. لا يمكنك أن تدخل حريقا وتخرج أبيض كالثلج. الاشياء تترك آثارها، وكذلك الأحداث، وبحثك عن البراءة غير مجد. زمن البراءة مضى. انتهى يوم نزلت البحر، يوم عملت في الميناء، يوم سافرت مع الريّس عبدوش. ثم ما حاجتك الى البراءة؟ وما ضرورة شهادة حسن السلوك؟ في الميناء لا يتعاملون بهذه الأوراق. في

البحر تصبح الطهارة زائدة ومربكة. المرأة تظل خائفة حتى تفقد بكارتها. البحّار يظلّ جبانا حتى يفقد سمعته الحسنة. انتبه! أنا لا أدعوك إلى الشر، ولا إلى الرذيلة. معاذ الله. كل ما أريده ألاّ تعير أذنك لما قيل أو يقال. لا تطلب براءة من أحد، ولا تأبه للإدانة تصدر في حقك من أحد. كن أنت. ذاتك. شرفك. ضميرك. ولا تفعل في السرّ ما تخجل منه في العلن. حافظ على رجولتك، على شهامتك، على أخوّة البحر. وتعلم أن تدافع عن حقك بلسانك وبيدك، ولا تسأل عن المنية.. الموت يأتي مرة واحدة، والانسان يموت ميتة واحدة».

قلت للبحار العجوز:

– لكنّهم يتهمونني ظلماً..

– ولهذا أقول لك لا تسأل. لو أرتكبت إثما كان يحقّ لك أن تحزن، أن تندم، ولو لم يدر به أحد، ولو لم يتهمك أحد.. التّهم كثيرة، والمظالم كثيرة.. لكن الحق لا بد أن يظهر.. الذهب لا يصير نحاسا.. الفضة لا تكون قصديرا.. المعدن الأصيل يبان. الشدائد ضرورية. وإلاّ كيف يعرف المرء عدوّه من صديقه..؟ تريد أن تكون بحّاراً وتخشى على سمعتك؟ ما شاء الله.. أيّ بنت أنت؟.. هيّا.. لديّ بعض الطعام هنا.. تعال نأكل.. غداً انزل إلى الميناء. اجلس في المقهى.. تعاط مع البحارة والرياس، اعرض نفسك.. قل بصراحة إنك تريد عملا،

والريّس الذي يريدك على مركبه يسأل عن مهارتك قبل أن يسأل عن شرفك.. إنه سيستخدمك في البحر لا في البيت.. في الظلمة والمطر والريح. في فتح القلوع وطيها، في تشغيل البكرة وشد الحبل ورفع الياطر، لا في الحياكة ولا التطريز.. إنس كل هذه الأوهام. ارمها في البحر.. قف وقفة رجل في أيّ معركة، تجاه أيّ كلب من كلاب فرنسا، وعندئذ تجد المحبة والاحترام والتقدير.. أنت بحّار، إذن تخلّق بإخلاق البحر، وأنت مواطن، دافع إذن عن وطنك.. وكل شيء بعد ذلك يهون.. صدّقني!

تكلّم العجوز بعد ذلك طويلا. أكلنا وهو يتكلم. دخنّا وهو يتكلم. كان فيما يبدو، ينتظر هذا اليوم ليقول أشياء كثيرة، يعتقد أنّها مهمّة نافعة، لكنه لا يجد من يقولها له. ارتاح لإصغائي، والدي أيضا، على كثرة الذين كانوا يصغون إليه، كان يسرّه أن يجد مخلوقاً جديداً يصغي إليه. الصيادون والبحارة دأبهم الحكايات، المواعظ، رواية الغرائب، تلقين أصول المهنة للآخرين، هم لا يقولون: نريد أن نعلمك، أن نزودك بإرشاد أو خبرة، يتكلمون عن تجاربهم فقط، يطيب لهم، في ساعة صفاء، أن يتحدثوا عما مر على رأسهم، وأحب الناس إليهم، أولئك الذين يتقنون الاصغاء، ويستزيدون. كل صياد حكواتي، كل بحار سندباد، وكل منهما، لو كان قادراً على كتابة حكاياته

وتجاربه، لوضع قصصا مثيرة.

قلت للعجوز:

- لكن كاترين الحلوة تريد أن تتزوج من جديد!

- من الذي ستتزوجه؟

- الريّس زيدان..

- هم.. هذا ريس أيضاً.. معروف ومشهور.. سيتزوجها لا حبّاً، ولا مصلحة، بل إرضاء لشهوة، حبّاً بالشهوة.. سمع من البحارة عنها. يتحدثون عن جمالها وفتنتها بغير اقتصاد.. حين عادت من مرسين كاد البحارة يقتتلون لأجلها.. لم ترض بأي منهم.. كانت تعرف ما تريد.. الملعونة تعرف كيف تنتقي. تريد الرجل فحلاً ومهيوباً وصاحب مركب، تريده ريّسا على الأقل. تثق أنها قادرة على الحصول عليه، وثقتها لا تخيب. ما أظن يصمد لإغرائها.. كلهم يسقطون في شباكها.

- لكنها امرأة مرفأ بعد كل شيء..

قلت ذلك رامياً الى الانتقاص منها، كان كلام العجوز يؤجج شهوتي إليها، كنت أبحث عمن يقبحها في وجهي، يرذلها، يقول عنها كلاماً منفراً، وها هو العجوز. من حيث لا يدري، لا يغريني بها فقط، بل يشعل النار في صدري شوقاً إليها.

قال العجوز:

- نساء المرافيء تختلف.. بينهن الجميلات أيضاً، أكثر

النساء خبرة امرأة المرفأ. قادرة، لكثرة تجاربها، أن تفتنك عن نفسك، أن توفّر لك متعة جارحة كالحلاوة.. فوق ذلك، نساء المرافيء درجات.. منهنّ العادية، منهنّ الساقطة، منهنّ القبيحة، ومنهنّ الجميلة والذكيّة، هؤلاء من نصيب السياح، الأثرياء، قباطنة السفن والمراكب، القوّادون، في كل مرفأ، يسبرون غورك بنظرة. صارت لهم خبرة، تجربة. حاسة شم قوية. من شكلك، من لباسك، من طريقة ظهورك في المرفأ يعرفون الى أي صنف من الرجال تنتمي، ويقودونك الى بغيتك، إلى المرأة التي تناسبك..

أنت تتكلّم عن تجربة، عرفتَ نساءً كثيرات ولا شك..

- أنا بحّار بعد كل شيء.. لكنني لم أغرق في بحر النساء.. كانت لي عائلة وأولاد، وكان عليّ أن اقتصد. ثم إن طبعي ليس ماخوريا، أفضّل اللقمة النظيفة..
- مثل والدي إذن؟
- لا، الذي وصل إلى كاترين الحلوة كما تقول، لا بد أن يكون قد عرف قبلها نساء كثيرات.. والدك ريّس دون رياسة.

قلت في نفسي: «أنا أيضاً وصلت إلى كاترين الحلوة دون أن أعرف قبلها نساء كثيرات، وقبل أن أكون ريّساً او

بحاراً.. ما أظن والدي كان نهما أو مفرطا في الجنس. كانت له عائلة وأولاد. كان حريصاً على سمعته، وأنوفاً إلى درجة المرض».

استأنف العجوز كلامه فجأة:

- إسمع يا سعيد.. ابتعد عن كاترين الحلوة.. إنس موقفها منك.. دعها في حالها والتفت الى عملك. ما سمعته عن زواجها بالريّس زيدان ليس كذباً.. ستتزوج من جديد.. تحمي نفسها وتتمتع بالجاه.. غداً تتعرّف بالريّس زيدان وتتبين أي رجل هو.. مهما يكن. الابتعاد عن كاترين الحلوة ضروري. إذا استمر اهتمامك بها وعرف الناس تقع في كارثة. الريّس زيدان لا يسكت من جهة، والشكوك حول غرق الريّس عبدوش تتجدّد من جهة أخرى، وسمعتك تسوء في الميناء والبحر.. احذر يا بني.

قلت جاداً. أعني كل كلمة أقولها:

- لن أعود إليها أبداً.. هذا قراري.. العلاقة بيننا انقطعت.. سأبدأ بالبحث عن عمل... وأتابع السؤال عن والدي.. أعرف واجبي، هذا هو واجبي الأول.. أريد السفر لأجله، كي أبحث عنه، وخلال ذلك قد يظهر هو.. من يدري؟ قلبي يحدثني أنّه سيظهر.. ما رأيك؟

- على المرء ألا يقنط من رحمة الله.. إذا كان لم يغرق فلا بد أن يظهر..

- أنا واثق أنّه لم يغرق.. فتشت الباخرة كلها ولم أعثر عليه.. الجثّة ليست إبرة.. لو كانت في الباخرة لعثرت عليها..
- تريد الإبحار من جديد إذن؟
- هذا ما أرغبه..
- وإذا صادف وعرض عليك الرّيس زيدان أن تعمل معه؟
- سأرفض.. لن أعيد التجربة..
- من يدري.. أنت لا تعرف ماذا تدبّر كاترين الحلوة.. هذه امرأة داهية..

ودعت البحّار العجوز وخرجت من الميناء، صعدت في طريق الكهوف إلى بيتنا قرب معُصرة الزيت. كانت أمنية داخلية تداعبني وتدفعني إلى التريّث في السير، وإلى التلفّت والتحرّي، عساني أقع على أثر للصبيّ الأسود، لا شك أن عزيزة قد سمعت بأخباري. لا يمكن أن يكون خبر غرق المركب ظلّ مجهولاً منها بعد أن انتشر في الميناء كلها. ربما حسبتني غريقاً الآن. هذا جائز تماما. إنني مقصر في حقها. وفت لي فخنتها. كاترين ألهتني عنها. لم أقل لها حتى وداعاً.. أي نذل أنا! امرأة تحبك، تواصلك. تسلّمك قلبها، وبعد أن تعبث بها تهجرها دون سبب، دون حق.. والآن ترغب في العودة إليها مدفوعاً بشهوتك لا بحبك.. أنت تحب كاترين الحلوة.. لا تكذب على نفسك. لا تتركها تخدعك.. تحب كاترين الحلوة لا عزيزة. حين تكون تلك لا تكون

هذه.. عزيزة، بحاسة المرأة، تدرك هذا.. انتظرتك حتى ملّت، حتى قطعت الأمل منك، واكتشفت أنك لا تستحق أن تفكّر فيك.. إنها هنا. ربما كانت تراقبك، لا بد أنها رأتك، لا بد أن تكون عرفت بعودتك. لكن المرأة ترفض أن تكون ألعوبة.. إنها تعاقبك، فتحمّل العقاب.. احصد ما جنته يداك..

دخلت البيت، خرجت، صعدت إلى السطح، نزلت إلى البحر، وقفت فوق الصخور، تلفّت حتى خفت أن أثير الشبهات، حدّقت في نوافذ البيت، ترصّدت الباب.. عبثاً.. لا أثر للصبيّ الاسود، لا أثر لعزيزة.. هذا الإخفاق في العثور عليها أيقظ مشاعر دفينة حولها. ساعد الحرمان في إيقاظ مشاعري الجنسيّة. تملكتني شهوة غريبة مسعورة. خشيت إذا تهاونت في ردع نفسي أن أقتحم البيت ليلاً، أن أثير فضيحة لا تقوم لي بعدها قائمة في الميناء، عزيزة لن تكون لي بعد اليوم.. يجب أن أفهم هذا، وكاترين لن تكون لي أيضاً. أنا لن أذهب إليها. لن ألبّي دعوتها. نصيحة البحّار العجوز في محلّها، الآن لا شيء يربطني بهذه المدينة. التجربة جرحتني، في السفر وحده دواء لجرحي. إلى حين أتمكن من السفر أرضى بأي عمل في الميناء. سيكون عملاً مؤقتاً على كل حال.

في مقهى الميناء جلست منفرداً، عاودتني أحاسيس الغربة عن الجو، كنت في وضع خائب، في الاسكندرية،

عقب حادث الغرق، حسبت أنني سأدخل المقهى في هالة من البطولة، غذيت أحلاماً سرابية. صحيح أن الريّس عبدالحميد امتدحني، لكن غار البطولة تحول إلى شوك. بقيت متهماً بشيء لا أعرفه. يقال إن الضمير في حال كهذه، يكون مرتاحاً، ضميري ليس كذلك، الراحة تحتاج إلى أعصاب. تحتاج إلى ثقة. إلى قدرة على المواجهة. والدي كان يملك كل هذه الصفات. لكن والدي عاش في زمن آخر. لم تكن فيه الأكاذيب بهذه الكثرة، ولا الشكوك بهذه الكثرة. كان الرجال يقدّر بعضهم البعض، كانت كلمة الشرف عهداً. الآن تغيرت الاحوال. صار على المرء أن يكافح كي يثبت براءته، كي يقنع الآخرين بأنّه مخلص وشريف..

خيم ظلّ على طاولتي، إنسان ما انحنى فوقي. كانت مفاجأة: قاسم، ذو الرقاقة اللحمية بين الاصبعين. خفق قلبي للقائه. هذا من الماضي، من الرجال الذين وثق بهم والدي. من الذين نذروا أنفسهم لنشر الوعي في الناس. أهلاً أهلاً.. هذا أنت يا قاسم؟ أين كنت؟ من أين طلعت؟ لكم تمنيت أن أراك، أن أتبادل الحديث معك.. أهلاً.. وتبادلنا التحية مصافحة. وفي نفسي رغبة ملحّة أن أقبّله، أن أقول له إنك على حق.. اصحاب المراكب شيء، والبحّارة شيء آخر، أولئك سادة وهؤلاء أجراء، الريّس عبدوش، الذي قلت لك إنه يعتبرني كابنه، عاملني، كما توقعت، معاملة بحّار على مركبه، معاملة عامل عند صاحب عمل...

ابتسم قاسم في شاربه الكث، الذي يغطّي فمه:

- الحمد لله على السلامة.. سمعت بقصتك.. سمعت الأقوال حولك.. لم أستغرب.. كل هذا متوقع.. كل شيء يحدث في الميناء.. الطيبة موجودة وكذلك الشراسة. أخوّة البحّارة وعداوتهم أيضاً.. لا تبتئس.. قل لي كيف جرى الحادث!؟

اخبرته بكل شيء. ائتمنته على سرّي وأبلغته أن الريّس عبدوش قطع الحبل لإغراقي.. قلت له إن كاترين الحلوة هي السبب.. سألني:

- ألا خبر من والدك؟
- لا خبر..
- سألت عنه في مصر؟
- في الإسكندرية..
- ومن أدراك أنه ليس في القاهرة مثلا.. كان عليك أن تذهب إلى القاهرة.. أمّ الدنيا هذه..
- لم أتمكن.. كنت بلا عمل، بلا فلوس، وكان همّي أن أعود إلى عائلتي بأسرع ما يمكن..
- وماذا تعمل الآن؟
- لا شيء.
- وماذا تنوي أن تعمل؟..
- لا أعرف.. أفضّل السفر للعمل في أي مركب..

- سيكون ذلك صعباً بعد اليوم.. نحن على أبواب حرب.
- أية حرب هذه؟
- الحرب العالميّة الثانية..
- وما أدراك؟

رازني قاسم بنظرة فيها طيبة وظلال ابتسامة. الأصح استغباني. أشفق عليّ من هذا الغباء. أين أنا إذن؟ ألا أسمع الأخبار؟ ألا أجلس في المقهى؟ والصحف..؟ الدنيا على أبواب حرب.. كيف لا أعرف هذا؟ ما هي المشكلة التي تستغرق وقتي وعقلي كل هذا الاستغراق؟.

- هتلر احتلّ تشيكوسلوفاكيا..
- وماذا يعني هذا؟
- يعني أنّه يحتل أوروبا بلداً بعد آخر.
- والدول الأخرى؟
- من؟ فرنسا؟ بريطانيا؟ بلجيكا؟ تآمروا في ميونيخ.. يهادنون هتلر وهو يندفع في اجتياح أوروبا. يأملون في أن يتّجه الى الشرق بدل الغرب.. إلى الاتحاد السوفياتي..
- لا أفهم شيئاً..

ضحك قاسم بغير تحفّظ. قال:

- أعرف أنك لا تفهم شيئاً، وأنا لا أستطيع، في جلسة واحدة، أن أشرح لك كل شيء.. ما هو مهم أن تعرف أنّ فرنسا، بحجّة الحرب، باقية في سورية. بعضهم يعلق

أملاً على انتصار ألمانيا.. إذا انتصر هتلر لا نفعل سوى تبديل نير بنير.. سنواجه أياماً صعبة.. الحرب بعيدة، ولكننا جزء من العالم، إذا دخلتها فرنسا امتدّت النار إلينا.. في كل الأحوال سيتوقف العمل في البحر.. وسنواجه البطالة والجوع..

- وما العمل؟
- لا أدري.. غير أنّ استعادة اللواء الآن صارت بعيدة جداً.. أعطوه لتركيا كي تقف على الحياد.. لكن تركيا تلعب على الحبال.. إنها تميل الى ألمانيا..
- وماذا يفعل زعماؤنا..؟
- بعضهم يصلّي كي تنتصر ألمانيا.. وبعضهم يصلّي كي تنتصر بريطانيا..
- ومن يصلّي لأجل سورية؟
- نحن..
- لم أفهم..
- ستفهم في المستقبل.. المهم أن تبحث عن عمل الآن.. أي عمل.. في الميناء أو خارجه.
- لكنني بحّار.. لا مهنة لي غير البحر..
- مهنة البحر لا تطعم خبزاً بعد اليوم.. فتّش عن عمل في مكان آخر.. في الريجي مثلاً.
- والدتي تعمل فيها..
- طيّب.. اعمل أنت أيضا..

- وماذا أعمل.. حمّال؟
- ولم لا؟

ضربة على رأسي، صدمة عنيفة، استشعرت أنّ هذا الإنسان الجالس أمامي، على الطرف الآخر من الطاولة، بارد كقطعة حديد، كملمس احدى الزواحف. نظرت إليه بتحديقة جامدة زجاجية فارغة من أيّ معنى، سوى الاستغراب والاستنكار لمنطقه الجافّ القاسي، خيِّل إليّ أن في يده مقصّاً، وكلما رفرفت جناحي للطيران قصّهما، فأسقطني على أرض الواقع، حيث أرتطم بعنف، فأفيق على بؤس شديد، كنت أنتظر أن يشجعني على الإبحار، أن يعطي خيالي المشدود إلى الماء الأزرق، دفعة جديدة، أن يعزّيني عما أصابني، أن يتفهّم وضعي كبحّار، أن يفكر معي لنهتدي إلى حل، إلى عمل، لكنّه، بدلا من ذلك، أطلق على الطير الذي في داخلي رصاصة. قتلني بواقعيّته وبرودته ومباشرته، وقلة احتياطه أمام أيّما إحساس رقيق لجليسه.

قلت له في عتب ظاهر:

- إذن ترى من اللائم أن أشتغل حمالاً؟
- وماذا في ذلك؟
- أنسيت أنني بحّار؟
- حين لا يكون عمل في البحر، لا بد للإنسان أن يشتغل على البر، اللقمة لا ترحم.. ثم أنت صاحب عائلة..

أيرضيك أن تعمل أمك وتتبطّل أنت؟

- طبعا لا..

- إذن تقبّل الواقع.. دع أوهام البحر والسفر.. فنحن على أبواب حرب.

- أنت تحكم على الأشياء وكأنّها وقعت..

- هذا أفضل من أن تقع ونحن في غفلة عنها.

- ولكن المراكب تسافر..

- قريبا تتوقّف.. جرِّب أن تفهمني..

- على هذا النحو صعب أن يفهمك أحد.. كلماتك ضرب على الرأس..

زوى ما بين عينيه ونظر إليّ مليّاً، فكر ولا شك بابن صالح حزوم العامل والبحار، وتلمّس روح النضال فيه، روح الواقع، مخايل الفهم، ودون امتعاض، وبشيء من المسايرة المشفقة قال:

- إنّما أنا أتحدّث مع سعيد حزوم.. المهاجر مثلي من اللواء، الذي عرف «الكريزة» في اسكندرونة، ورأى العاطلين عن العمل والجياع.. أتحدّث مع عامل في المرفأ قبل أن يكون بحّاراً، أتحدّث مع صديق..

اعترفت:

- ولكنك خيّبت آمالي في البحر.. لا تنسَ أنني أبحث عن والدي..

- سيكون البحث مستحيلاً بعد الآن.. لن يكون هناك سفر كالسابق..
- أمّا بالسنبة إليّ فسيكون.. سأسافر بأيّ شكل، وأبحث في كل مكان..
- أنت تتهرّب من الواقع..
- قل ما تريد..
- وتتهرّب من الشغل على البر..
- البحّار لا يصير حمالاً.. البحّار خلق للبحر فقط..
- أرجو أن تتحقّق أحلامك.. رؤيتنا للأشياء تختلف الآن، لكنّنا سنلتقي.. إنني صديقك على كل حال.
- صديقي، أهلاً وسهلاً، ولكنك لا تحمل إلاّ أخبار السوء.
- ما ذنبي إذا كانت هذه هي الأخبار.. جرب ألاّ تخاف المصاعب..
- أنا لا أخافها..
- موفّق إذن..

افترقنا على شيء من جفاء، كنت ممتعضاً، مستفزاً بدعوته إياي للعمل حمّالاً. ربما قبلت، أو فكرت على الأقل، لو جاءت النصيحة بقالب آخر، ألطف، أكثر مراعاة للمشاعر، قاسم لا يعرف مراعاة المشاعر، أو لا يريد ذلك. قال إنّه يتكلم مع سعيد حزوم. هذا واضح، أنا هو أنا، لن أخون الماضي أو الحي أو الوالد. لكن الحياة تدير ظهرها لي دون مبرّر، أتعذّب بغير ذنب، لماذا لا يريد أحد أن يفهم

طموحي؟ لماذا تقابل رغبتي في الابحار بعدم الاكـتراث؟ هل تنتهي أحلام السفر والبطولة والنضال إلى العمل في الريجي؟ هذه مكافأة الذي هزم البحر في أوّل معركة معه؟ قد لا أكون هزمته. هذه كلمة كبيرة. أستغفر البحر. أستغفر الله. لكّن العاصفة كانت شديدة، ومن حمولة المركب لم ينج غيري أنا. نعم أنا أقولها متحدياً، أنا الذي صارعت البحر، يكون جزائي أن أشتغل حمّالاً في إدارة التبغ؟

لا أدري كم من الوقت مضى عليّ وأنا فريسة انفعال شديد، مكبوت، دون صوت، لكنه صارخ من عيني وذقني وأنفي وكل أعضائي. شهوة العراك تأججت في دمي. نهشتني كما بأسنان قرش شرس. صارت حكّة في جسدي. زاد من حدتها ألاّ مال معي كي أذهب إلى أيما خمارة وأسكر. آخر من كنت أنتظر منهم موقفاً كهذا هو قاسم، أنا أحترمه، معجب به الى آخر حد. أقدّر تضحياته وسهره في سبيل الناس، لأجل الوطن، ضد فرنسا، ضد الظلم، ولكن المنطق البارد يستفزني، يقول الكلمة وكأنها قدر. تحت مظاهر اللطف يخفي سطوة معلم، يتنبأ، يريدك أن تقتنع أن نبوءته لا تخيب. ينصحك، وفي طيات النصيحة أمر، قرار، إرادة تعوّدت الحسم. أكره هذا الأسلوب. الدنيا أخذ وعطاء. المسايرة حلوة. التقدير يصيب ويخطيء. ربّما وقعت الحرب، وربّما لا تقع أبداً، لماذا أغلق البحر وسدّ عليّ أبواب السفر؟ سأسافر، سأسافر، سأسافر...

ركبني العناد، كل شيء حولي يضعني في مواجهة عنيدة. لا يعقل أن يكون كل الذين كلموني على خطأ وأنا على صواب. مع ذلك أخذتني العزّة بالإثم. أحلو عنادي، صار خوخة في فمي، صرت أتلمّظه وأنا أحس أعلى درجات القهر. عزمي على السفر أصبح قاطعاً. أسافر دون مركب. أسافر كأيّ راكب يريد دنيا الله الواسعة. أتشرّد؟ وما ضرر التشرّد؟ هناك، في الغربة، أعمل أيّ شيء.. لا خشية ولا عيب في الغربة. والدي كان يقول: «في الغربة تهون الاشياء.. المغتربون يعملون بائعين متجولين في أميركا.» أنا أيضاً أفعل هذا. أكنّس الشوارع لو اقتضى الأمر. أحمل الأكياس والصناديق على ظهري.. الخلاصة، أجرّب حظي. من المفيد أن أجرّب حظي. أتوقّى الرذيلة. لا أكون سمساراً ولا قواداً. وما تبقّى يا مرحباً به.

هنا انبثقت في ذهني فكرة ارتعدت لها «ماذا لو وقعت في حبائل عصابة من العصابات؟ أمثال راغب درويش يملأون الدنيا، وأنت قوي، أنت ثور حقيقي، وسيكون مفيداً لهم، ما دمت تعرف السجن والبحر والميناء، أن تشارك في نشاطاتهم المنوعة، وأن تؤدّي لهم بعض الخدمات: تهريب هذا الشيء أو ذاك، قتل هذا الإنسان، تصفية ذلك العدو، سرقة هذا المتجر أو هذا البيت، يا إلهي! أيعقل هذا؟ أصبح مهرّباً وقاتلاً أو لصاً؟ أنحدر إلى هذا المستوى؟ عندئذ أكون قد كفرت بكل شيء. أنحدر إلى جهنم دفعة

واحدة.. أغوص في الوحل، أصبح مثل راغب درويش، هذا الإنسان الذي قد ألقاه مجدّداً، والذي ربما ينتظر ضعفي؟.. أدخل السجون؟ أعيش في المباغي؟ أصاحب المومسات؟ ينتهي سعيد حزوم نهاية مفجعة كهذه؟ ».

ما حييت لن أنسى نكد تلك الفترة من عمري. المركب، في العاصفة، اذا تقطعت الحبال التي تربطه إلى الرصيف انفلت في الميناء وتخبط على جوانبها. أنا مركب تقطّعت حباله وانفلت من رباطه، إنني أتخبّط في المدينة، اضطرب في الميناء، تتعب رجلاي، يدوخ رأسي، لا أستقر على قرار أو أثبت على رأي. لو كان والدي موجوداً لهداني. كنت أستشيره، آخذ برأيه. أنتفع بنصيحته. إذا لم أنتفع بها أذعن لها. والدي كان يأخذني بالصرامة اللازمة، كان يعيد ربط حبالي، بوجوده كنت أنجو من هذه الدوّامة التي أنا فيها.

خطرت لي أمّي، لكن ماذا في وسع امرأة بسيطة مثلها؟ مانعت، في المرة الماضية، بسفري فخالفتها وسافرت. سببت لها من الآلام ما لا يطاق. حسبتني غرقت مع الذين غرقوا، تجددت فجيعتها بأبي. أقامت مناحات في بيتنا. لم تكد تصدق نجاتي. لم تكد تفرح بعودتي، فكيف أنكأ جراحها بعرض السفر عليها من جديد؟ وحتى لو نكأت هذه الجراح وفاتحتها بعزمي على السفر فأيّة نصيحة في وسعها أن تقدمها لي سوى الدموع؟ ستقول لي: «كرامة لله، يا سعيد، لا تسافر. لا تقهر قلبي مرّة أخرى.. يكفي حزني على والدك.

قلت لك إن البحر غدّار فما أصغيت إلى كلامي، ركبت رأسك وسافرت مع الريّس عبدوش. رأيت الموت بعينيك. نجوت بأعجوبة. ما كل مرة تسلم الجرة. دع عنك فكرة السفر. حاول أن تجد عملاً في الميناء، في المدينة، في إدارة الدخان.. إبحث تجد. أفضّل أن نبقى جياعاً شرط أن نبقى مع بعضنا. والدك كان معذوراً، كان مطارداً، كان تحت حبل المشنقة، هذا مبرّر غيابه.. أمّا أنت فلا أحد يطلبك، ولا أحد يهددك، فلماذا السفر ».؟ دموع، دموع، دموع.. ليس عند أمي، بعد تلك الحجج، سوى الدموع، ستظل تبكي حتى تغرقني وتغرق نفسها.. لا.. لن أذهب إليها وأستشيرها. الأفضل في حال السفر، أن أغادرها هارباً. صحيح أنا بحاجة إلى إنسان أبثّه شكواي، وقد كان هذا الإنسان قاسم لو لم يكن قلبه حجراً، قطعة حديد، لا يعرف المشاعر ولا يقدّرها. إنّه يصدر أحكامه ببرود قاتل. أحكامه صدئة كالنحاس. افعل كذا ولا تفعل كذا.. تحرّك تثبّت، عجّل، تريّث، عش بين العمال، كن مثلهم. تكاتفوا اتّحدوا.. ناضلوا ضد أصحاب العمل، ابتعدوا عن الزعماء، قاوموا فرنسا.. هذه هي معزوفته وأنا أعرفها.. لقد أكملها بنصيحة حلوة جداً: أن أشتغل عاملا في الريجي!!

على كتف عزيزتي كان يمكن أن أضع رأسي. مهما يكن موقفها فلن تزجرني كالآخرين. لن تشكّ في موقفي خلال العاصفة، ولا في صدقي عن الكارثة التي وقعت، ولن تبكي

كأمي، أو تصدر أحكاماً كقاسم، ولن تكون مخبلة كتوفيق، ولا متغطرسة مثل كاترين الحلوة. هي وحدها التي أحتاجها في حيرتي. كنت أحكي وهي تسمع.. يستجيب قلبها لخفق قلبي. تفهم مشاعري. تقدّر ظروفي. لكن عزيزة بعيدة. قد تكون قريبة ولا أدري، أطوف حول بيتها منذ عدت، وبيتها صامت كقبر.. هل هو مهجور؟ هجرته عزيزة بسبب حادث وقع في غيابي؟ لسببي؟ عرف زوجها بعلاقتنا؟ صار لديه الوقت للاهتمام بهذه العلاقة؟ سمحت له تجارته بأن يعنى بزوجته؟ تخفّف من زوجته الأخرى وتفرّغ لعزيزة؟ أدرك أن الميناء منطقة موبوءة، فآثر أن يسكن المدينة؟ أسئلتي مطارق في صدغي، ينضاف ثقلها إلى أثقالي.. يزيد همّها من همومي.. من الذي قال إنني رجل؟ أهكذا يكون الرجال؟ تنهار أعصابهم عند أول صدمة؟ والدي كان قوياً، كان جبّاراً، لا يأبه للأحداث العارضة مثلي، لا يغرق في فنجان من الماء، لا تهزّه هبة ريح، يفكّر، يدبّر، يقرّر، ينفّذ قراره، والسلام عليكم.

تريثت مكاني حتى انعقدت حلقة الريّس عبدالحميد. هذا ريّس أكثر أيامه على البر. كلما رأى فرنسياً أصيب بمغص. كره فرنسا يطالعه في الماء والشاى والقهوة، في الصحن والخبز والجبن، يكرهها كرهاً عميقاً. يلتهب إذ يتحدث عن المقاومة ضدّها. يحتمي بالميناء ليرسل صواعق غضبه عليها. يشتم الذين تعاونوا معها. يندِّد بالشيخ تاج

وعبدالرحمن الشهبندر. يفضل القوتلي على كل الزعماء الآخرين. لو كان سعدالله الجابري شامياً لأحبّه. حلب لا تنسجم مع مزاجه. لا يتصور من زعمائها سوى هنانو.. «هذا على الرأس، يقول، حمل السلاح مثل شكري القوتلي تماماً».

كان الريّس عبدالحميد يقدّرني لسببين: سجني من قبل فرنسا، ومقاومتي العاصفة ونجاتي.. فإذا أثير موضوع الريّس عبدوش أمامه قال: «البحر لا يأخذ إلاّ السبّاح الماهر والريّس الماهر.. نصيب».

ندهني منذ رآني:

- سعيد تعال إلينا.. لماذا تتجنبنا؟ أين تقضي أيامك؟

قمت إلى حلقته فحييت وجلست. قلت:

- ليس لي مكان معين.. أدور من الصباح إلى المساء.. لا أعرف ماذا أفعل.

أدرك الريّس عبدالحميد، من اختلاجة الشكوى في صوتي، أنني متضايق، وأن الأيام، معي، ليست على ما يرام. كان يمسك نربيش الناركيلة بكامل قبضته. يسحب انفاساً متلاحقة. ينفث الدخان من فمه وفتحتي أنفه الكبير. قال:

- هناك من يضايقك يا سعيد.. أولاد الكلب كثيرون... حتى في الميناء.

- لا أحد يضايقني.. تمنّيت لو حدث ذلك..

فهم ما أردت بسرعة:

- طبعاً، طبعاً، الاهمال أقسى من التحدّي.. يهملونك.. ينظرون إليك من تحت حواجبهم.

- لا يهمّ يا ريّس.. مشكلتي هي البطالة.. أريد السفر، مع أيّ مركب وبأي شكل..

- مع من تكلمت من الريّاس؟

- لم أتكلم مع أي ريّس..

- تخجل؟ مفهوم.. أنت بحّار طازج.. عودك طريّ.. لم تتعلم الوقاحة بعد..

قال بحّار عجوز:

- الخجل والبحر لا يتفقان.. لا بدّ أن تطلّق أحدهما..

قلت في نفسي: «هذا صحيح.. ينبغي أن أكون وقحاً على نحو ما.. الوقاحة تغدو ضرورية أحياناً.. إذا كنت سأبقى بحّاراً وجب أن أكون وقحاً.. لا أخجل على الأقل».

قال الريّس عبدالحميد:

- سأفاتح الريّاس في موضوعك (وبعد أن ضحك أضاف) سأقول لك بصراحة: في الميناء كما في المدينة، كثير من الخرافات والعادات القديمة.. عدم المؤاخذة. تعرف ماذا يقولون عنك؟ لا تزعل من كلامي.. أنا لا أصدق مثل هذه الخرافات.. لكنهم، في الميناء، يتشاءمون من البحّار الذي تقع للمركب حادثة وهو على ظهره.. أنت، عدم

المؤاخذة، وقعت حادثة الغرق معك من السفرة الاولى.. لذلك.. المهّم.. لا تسأل.. هذا يحدث. يحدث كثيراً..

ارتعدت لهذه الفكرة. تساءلت بمرارة: «هل أنا شؤم؟.. ألهذا لا يطلبني أحد للسفر معه؟ هل نجوت من الغرق في البحر لأغرق في الأقذار.. أعوذ بالله.. هذه أقذار.. أفكار سود، هذه تهمة اخرى.. يا ليتني غرقت في اللجة.. يا ليتني بقيت في الإسكندرية ولم أعد إلى بلدي.

انقضت برهة ولا صوت يعلو، ولا نأمة تسمع. سوى قرقرة الناركيلة. كنت خلالها واجماً. هل وصلت التفاهة إلى هذا الحد؟ كاترين تتهمني، البحارة يشكّون بي، الريّاس يتشاءمون من سفري معهم، فماذا بقي إذن؟ هل كان قاسم على علم بهذه الأراجيف، لذلك نصحني أن أشتغل عاملاً في الريجي؟ تكون نهايتي مع البحر ولـمّا ابدأ بعد؟ في سفرة واحدة يتحطم كل شيء؟ ينتقم الريّس عبدوش مني وهو ميت؟ يكون الانتقام على هذا الشكل الأملس، القذر، دون أن أواجه خصماً؟ يحكمون عليّ قبل أن أدخل المحكمة؟ من الذي اخترع التشاؤم؟ كيف يتشاءمون مني ولم أجرّب حظي في البحر بعد؟ والدي كان يهزأ من هذه الخرافة، لم يكن يحسب حساب الفارغ والملآن، لا يتطيّر من الأيام او الأشخاص. يهزأ بالذين يعتقدون بها، يقول كل الأيام مباركة. كل الناس خير وبركة، وإذا انتوى السفر وقالت أمي إنها رأت مناماً سيئاً، ورجته أن يؤجل سفره، كان

يصر عليه قائلا لها: «لنر ماذا يفعل النحس معي!» أو «أنا مسافر ضدّ منامك، فقولي له أن يلحقني» هل كان يجازف لأنه لا يخسر شيئاً سوى نفسه؟ هل كان يتحدى لأنه لا يملك مركباً؟ وهل يؤدي المركب إلى جبن صاحبه؟ أيكون الملاكون جبناء؟ أيكون البحّارة برغم مظاهر القسوة، خرعين إلى هذا الحد؟ أيتها الميناء، يا ميناء اللاذقية، اللّعنة عليك. وعلى كل موانئ العالم.

بعد أيام حدثت المفاجأة. قال لي أحد البحّارة: «الريّس عبدالحميد يسأل عنك». انشغلت بهذا السؤال الغريب. قلت في نفسي «إنه يفتقدني بعد أن غبت أياماً عن المقهى» قلت أيضاً: «لعلّه يريد أن ينتدبني في مهمّة ما». اتجه فكري وجهة سياسية. كان اهتمام الريّس عبدالحميد بالسياسة كثيراً. فكّرت: «لعله يريد تنظيم إضراب، أو تأديب أحد المتعاونين مع فرنسا». كنت قد يئست من الشغل والبحر وإمكانية العثور على والدي. الدنيا كلّها صارت مهزلة في نظري. كان همّي أن أرتّب أمور عائلتي، حتى إذا غبت كما غاب والدي، أكون مطمئناً عليها. كل هذا دفعني إلى عدم تلبية الطلب. كدت أنسى أنّه سأل عني. صرت أنزل الى الميناء كل يوم، وأرافق البحّار العجوز في عمله بالزورق. كنت بحاجة إلى من أشكو له همي. ضاق صدري «بفكرة النحس» التي أشاعوها عني. رغبت أن أتخفّف مما بي بالحديث إلى العجوز.. ولقد فجعت هنا أيضاً،

فالعجوز رغم استبعاده أن أكون نحساً على أحد، كان يؤمن بالسعد والنحس إيماناً قوياً، وقد روى لي قصصاً كثيرة تؤكّد إيمانه هذا.

في وقت العصر، حيث لا أتوقع وجود الريّس عبدالحميد في المقهى، جلست على الرصيف، أشرب قهوة وأدخّن سيكارة، كنت في أعماقي أنشد شيئاً مبهماً. كان نزوع إلى لقاء قاسم يدبّ في صدري، ومع أنني كنت أكره قاسم، أو هكذا خيّل إليّ بعد لقائي الأخير به، فإنني رغبت في معرفة الأخبار منه، وهل ستنشب الحرب حقاً. هذه المرة كنت أريدها أن تنشب حقيقة. ان يحدث شيء ما يهزّ العالم. أن يغمر البحر اليابسة، أن تقوم الثورة ضد فرنسا في كل البلاد، أن يتقوض شيء ما، كي تتغير الرتابة القاتلة التي تسيطر على الحياة من حولي. حتى لقد تمنيت، في جنون طيشي، أن يعود راغب درويش فأسافر معه. كان هذا أملاً خفياً في النفس كريهاً، قذراً، ولكنّه الأمل الذي داعبني في محنتي. الخروج على القانون بمثابة انتقام. كنت أريد الانتقام من القوانين والناس جميعاً..

وصل الريّس عبدالحميد الى المقهى ومعه البحّارة.. في مثل هذا الوقت يجري الريّاس بعض الحسابات مع بحارتهم. يأتون خصيصاً لذلك. أو يأتون خصيصاً لشرب الناركيلة والتمتّع بالغروب على البحر. لكن الريّس عبدالحميد لم يكن كذلك. يفضّل. في الأمسيات، مقاهي الشيخ ضاهر، حيث

تعجّ الساحة بالناس، وتنتشر الطاولات على الأرصفة المحيطة بالساحة، وتتعالى الأغاني من الراديوات، ويبترد الجوّ وتشيع فيه حركة ذات نكهة خاصة، يعرفها ويشتاقها الذين أدمنوا الجلوس على هذه الأرصفة.

ظنّ الريّس عبدالحميد أنني أنتظره، كان قد تغيّب، هو أيضاً، بعض الصباحات عن المقهى. أراد أن يعتذر عن ذلك. اكتشفت المصادفة وسكتّ. لم أقل إنني تخلّفت عن الحضور أيضاً. تظاهرت أنني استجبت لسؤاله عني وأنني أنتظره. وبعد أن شربنا القهوة، وأشبع صدره من دخّان التنباك التفت إليّ وقال:

- أبشر يا سعيد.. أنت بحّار محظوظ!
- خير إن شاء الله؟
- كل خير.. ألا ترغب في السفر..؟
- وبماذا يرغب البحّار يا ريّس؟
- إذن استعد.. الإقلاع بعد أيام.. المركب جديد، ضخم، والريّس رائع.. أخونا..
- شوّقتني يا ريّس.. لمن المركب؟
- للريّس زيدان!
- الريّس زيدان؟
- هتفت بغير إرادة..
- نعم هو.. بالذات.. هل كنت تتوقع هذا؟
- أبداً..

- لهذا دهشت؟.. لا تقلق.. إنه أخونا كما قلت، وهو الذي سألني عنك..
- لكنني..
- ماذا؟
- لا أدري.. أحتاج بعض الوقت للتفكير.. فاجأتني هذه السفرة وأنا أرتِّب أمور العائلة..
- لا حاجة للتفكير.. تستطيع ترتيب كل شيء خلال أيام.. وبعدئذ تتوكل على الله.. هيّا.. الريّس زيدان ينتظرك في خمارة أبو الوفق.. يأتي إلى هناك متأخراً.. إنه صاحب كيف، وستكون مسروراً معه..

قلت مدارياً اضطرابي:

- شكراً يا ريّس..
- على ماذا يا سعيد؟ نحن اخوة.. لوالدك علينا حق.. وأنت منا وفينا.. هل من خبر عنه؟
- لا خبر يا ريّس، كدت أيأس من العثور عليه..
- لا أريد أن أسمع كلمة اليأس هذه.. ماذا حدث؟ لماذا أنت كئيب.؟
- لا شيء، لا شيء.. الدنيا لا تخلو من الهموم..
- في هذه صدقت.. لكن ما هو همك.. أتكون بحاجة إلى شيء؟
- إلى عمل فقط..
- ها هو العمل يدقّ الباب..

- أنا لن أعمل مع الريّس زيدان..
- لماذا؟
- هكذا..
فتح البحّارة عيونهم جيّداً. كانوا، حتى هذه اللحظة، يصغون. كانوا يعرفون أنني سجنت في قضية من قبل فرنسا، وأنّ لي دالة على الريّس عبدالحميد، وأنه يدخرني ليوم قادم. وقد سمعوا عن والدي، كما سمعوا عن سفري مع الريّس عبدوش، والكارثة التي لحقت بنا.
قال الريّس عبدالحميد:
- أنا لا أفهمك يا سعيد..
- وأنا لا أفهم نفسي يا ريّس..
- كيف..؟ تخفي عني شيئاً؟
- أبداً.. لكنّي لن أسافر مع الريّس زيدان..
- تعرفه؟
- لا.. لم أرهُ بعد..
- إذن..؟ أنت تريد السفر كما تقول.
- أريده.. لكن مع ريّس آخر..
- عجيب.. هل في الريس زيدان عيب؟ أم سمعت عن لسانه كلاماً؟
- لا، أبداً.. الريّس زيدان على الرأس والعين.. لم أسمع عنه إلاّ كلّ خير.. لكنني لن أسافر معه والسلام.. هذا قراري الأخير..

- ألن تراه؟
- لماذا؟
- كي تقول له هذا الكلام بنفسك.. أنت لا تعرف الريّس زيدان.. ظنّي أنك ستغيّر رأيك..

أضاف:

- اذهب إليه الليلة.. كن كيّساً كما كنت دائماً.. (وهمس في أذني) «كلمة الريّس زيدان لا تصير اثنتين في الميناء» قلت لك إنك محظوظ.. لا تشتغل معه، أفهم أن ترفض الشغل. لكن تعرّف عليه. كن صديقاً له. إذهب إليه عند توفيق الليلة.. وغداً أراك، أنا واثق أنك ستغيّر رأيك.. قد لا تسافر، لكن من المستحيل ألاّ تحب الريّس زيدان... اسمع.. تعرف من حدّثه عنك؟ أبو الوفق.. هو لم يقل هذا، لكنّني قدّرت ذلك.. أبو الوفق، في ساعة انبساط قال له عنك كلّ شيء..

لم أقل شيئاً، تقدير الريّس شيء وتقديري شيء آخر، أبو الوفق لا يقدم ولا يؤخر. مجرد خمّار، بائع حشيش، رجل يبحث عن حماية، أمس كان حاميه الريّس عبدوش، واليوم الريّس زيدان، وغداً من يدري.. لو كان والدي هنا لحماه أيضاً.. وربما.. أنا.. في المستقبل.. لا بأس.. لندع هذا. أنا الآن لا شيء.. كل ما في الامر أن الريّس زيدان يسأل عني، يريدني.. يطلبني للعمل معه.. أنا لن أعمل مع الريس زيدان.. محال.. لن أكرّر قصتي مع

الريّس عبدوش.. أعرف لعبة كاترين الحلوة.. هي وراء كل ذلك.. تدبر لعبة جديدة.. لعبة قذرة.. يكفي.. لن ألعب هذه اللعبة.

قال بحّار:

- الإبحار مع الريّس زيدان متعة..

فكّرت: «الكلام نفسه الذي قالوه عن الريّس عبدوش. هذا كان يعرف والدي، وأسمع به على الأقل، ومع ذلك تصرّف معي كصاحب مركب. عاملني كبحار، كأجير، الريّس زيدان لا يعرف والدي. ربما لم يسمع به أيضاً. كل ما في الأمر أن امرأة فاسقة حدثته عني. قالت له: «أعرف عائلته.. كنّا جيراناً في مرسين، إنه بغير عمل منذ شهور، منذ حادثة غرق مركب الريّس عبدوش. كان بحاراً شجاعاً.. شجاعاً ومحظوظاً.. بقي يومين يصارع الموج. حتى انتشله مركب كان في طريقه إلى الإسكندرية.. إنه قوّي، وسيكون من رجالك في البحر وعلى البر.. دعه يعمل معك. اصطحبه.أنا لا أدري كيف قالت كل هذه الأشياء، لكنّها قالتها بطريقة ما، وقد لا يكون الريّس زيدان اقتنع. وربما لم يكن مرتاحاً، غير أنه قبل كرامة لها. كي يحوز رضاها، كي تصبح عشيقته، زوجته، وتستسلم إلى ذراعيه، هذه.. لقد نسيت صالح حزوم، والريّس عبدوش، وسعيد حزوم، وقبلهم الكثيرين، وبعدهم الكثيرين، وستنسى الريّس زيدان أيضاً. ستقتله بدوره. تعلّق رأسه كما يعلّق الصياد رؤوس

فرائسه على الجدار.. ثم تنساه. تتخّذ لها رجلاً آخر، عشيقاً آخر، وتطفئ نارها الملتهبة ثم تكب الماء على كل من عرفته من الرجال.. إنها تحسب حساب أبي، تريد ألاّ تقطع مع عائلتنا. وقد يكون مشروع آخر يدور في رأسها: ربما أرادت ترحيلي من المدينة والميناء.. وقد تلقي بي في البحر كي أهلك. لا تريد أن أعيش في مدينة تعيش فيها. تخاف أن أنغِّص عليها عيشها. تخشى أن أعارك الريّس زيدان لأجلها. ترسلنا كلينا إلى البحر، تماماً كما فعلت مع الريّس عبدوش، والفائز بيننا تفتح له ذراعيها، تفتح له بيتها.. تفتح له فخذيها.. تدع سرّتها ترتوي مثل رحمها.. العاهرة.. كبيرة العاهرات..

كنت أفور من الداخل. كنت كإبريق ماء على نار. أفور وأسيح من على جوانب الإبريق. أتساقط قطرات تنشّ وتنشر بخاراً. كنت أنا الماء المغلي والإبريق والبخار. وكان الريّس عبدالحميد ينظر إليّ، ويقدّر الحالة النفسية التي أنا فيها، ويصرف وجهه وكلامه عني، محاولاً التظاهر بأنّه لا يراني، متفادياً الإحراج الذي لاحظه لمجرد سماعي بالريّس زيدان.

وقال رجل في الحلقة لا أدري إذا كان بحاراً:

- تعرف يا ريّس عبدالحميد.. هناك أنباء عن إقفال البحر عن قريب.. إذا اندلعت الحرب فسيكون الإبحار

صعباً.. ربما كانت رحلات مراكبنا وداعية.. يقولون إن الحرب واقعة لا محالة.

قال الريّس عبدالحميد:

- فأل الله ولا فألك يا بدر(١).. من أين لك هذه الأخبار؟ ثم أين نحن وأين الحرب؟ إنّها بعيدة عنّا.. وإذا كانت المراكب ستتعطل من جرائها فلا بأس.. المهم أن يُقضى على فرنسا.. المهم أن تنهزم هذه الدولة الظالمة..

قال الرجل:

- الذين يفهمون بالسياسة يقولون هذا.. كنت أمس مع.. المهم، كلامي ثقة، سمعته بأذني.. ستُغلق الميناء.. إذا دخلت فرنسا الحرب أُغلقت الميناء.. صار البحر خطراً على الجميع.. الغواصّات الألمانية تسرح وتمرح في المتوسط..

انفرجت أسارير الريّس عبدالحميد.. الأخبار مؤاتية في نظره.. لتقع الحرب ولتُغلق الميناء. ليقترب يوم الخلاص من فرنسا وكل شيء يهون.. إنّه خلاف قاسم، يتمنّى اندلاع الحرب. يقنع بما يسمع في المقهى.. يتسقّط أخباره من إذاعة برلين. يحضر مجالس الزعماء. انتصار هتلر يسرّ أمثاله. أي بأس في ذلك؟ إذلال فرنسا يكفي.. لينتصر الألمان وليذلوا الفرنسيين وهذا يكفي، يشفي الغليل.. يشعل الحماسة ونيران النراكيل..

(١) مثل شعبي والمقصود بكلمة الفأل هنا الشؤم..

قال الريّس عبدالحميد متوجّهاً بالكلام إليّ:

- سمعت يا سعيد؟.. ربما كان الريّس زيدان على وشك السفر.. إنّه آخر من يتوقّف، برغم الحرب نفسها.. أنا أعرفه.. عنيد كصخر، جريء كنمر.. يستهين بالخطر ولو رآه بعينيه..

فكرت: «ما أسمعه عن الحرب ينطبق على ما قاله قاسم. الخلاف أن قاسم يرى الحرب كارثة، يراها سبباً في ضياع لواء اسكندرونة، وفي مماطلة فرنسا بالخروج من سورية، ويرى انتصار هتلر مصيبة.. بينما الآخرون يسرّون.. كل ما أسمع يدعوني الى الشك في عودة والدي، في أن ألقاه قريباً. فرنسا باقية في سورية. اللواء صار للأتراك.. كل شيء يدعو لليأس.. هذا هو السبب في أن قاسم قال لي: «إننّا نضرب على حديد بارد».

فكّرت أيضاً: «إذا كان الريّس زيدان كما يصفه الريّس عبدالحميد، فإنّه لن يتوقّف عن السفر برغم الحرب، يطيب له أن يعمل في الحرب، في الخطر، في جوّ يرضي نزعته إلى العناد والمغامرة.. هذا جيّد جداً. يتفّق مع مزاجي، يخلصني من الميناء ولعنتها. أنا أيضاً أحب الخطر. أحب العيش في المغامرات.. لماذا أرفض التعرف إلى الريّس زيدان؟ ربما كان صنفاً آخر. قد أجد المتعة في صحبته، يكفي أن أعمل، أن أكون بحّاراً، أن تنتهي البطالة، أن

أبتعد عن كاترين الحلوة، ألاّ أقع في حبال راغب درويش، هذا الشبح المخيف الذي أحسّه يطاردني...».

نهضت مودعاً.. سألني الريّس عبدالحميد:

- إلى أين؟
- إلى البيت...
- سترى الريّس زيدان مساء؟

عمدت إلى المناورة:

- لو كان الأمر لي ما أحببت ذلك. لكن أن يطلبه مني الريّس عبدالحميد، فإن طلبه لا يرد.. كلمتك على الرأس والعين يا ريّس..
- عشت يا سعيد.. لولا أني أعرف معدنك، وأعرف رجولتك، ما حببّت الريّس زيدان بك.. سافر يا بني، لا بدّ من السفر، لا بد من الشغل.. هذه مهنتنا.. لو كان والدك هنا لقال لك ما أقوله أنا.. الريّس زيدان أخونا.. سلّم عليه.. قل له عن لساني: «الأيام الحلوة قادمة، وفرنسا ستخرج كالكلبة..».. ولكن انتبه.. خمّارة توفيق «ملغومة»، فهمت؟.

أشرت برأسي أن نعم.. كنت أعرف جو الخمّارة، كنت من زبائنها، وكان جواسيس فرنسا يترددون عليها، ولكن الخمّارة كانت محميّة.. كانت قرب البحر أيضاً.. ثم ماذا يصير إذا كان جواسيس فرنسا في الخمّارة؟ لم أهب فرنسا في

اللواء حتى أهابها في اللاذقية.. لو حدث ذلك لكان من حظي.. «وعسى أن تكرهوا...».

كعادتي كلما عدت إلى البيت، أبطأت الخطو وأنا في الطريق إليه، ما كانت الكهوف، على جانبيه، ولا أسرارها، هي التي تعنيني الآن. خيل إليّ، منذ اجتزت ذلك القبو في الظلام، صاعداً إلى بيت عزيزة، أني فضحت كل تلك الأسرار، وحققت نصراً على كل الأشباح التي تضطرب فيها ليلاً. كانت عزيزتي تمثل ذروة السرّ، لا في الطريقة التي تعرفت بها إليها، ولا في المغامرة التي لجأت إليها، بل في الفوز بها. هي سرّ الأسرار في تلك المنطقة البحرية الزاخرة بكل صنوف الغرائب. ولعلّ اختفاءها المفاجئ مثل لقائها المفاجئ، هو سرّ بذاته، وهو نداء مغرٍ إلى الكشف، لو أن لي النفسية الدافعة إلى ذلك، الشهوة تنهش اللحم والعظم مني، لكنها، في الانكسار الذي أعانيه، لا تبلغ أن تدفعني إلى المغامرة، حسبت، آنذاك، أن المغامرة انتهت بالنسبة إليّ. بلغت ذروتها في حادث الغرق، وانحدرت تدريجياً حتى ما عادت تستهويني، ولا تستثير حماستي. هذا كان ظني. في العقل الواعي، في المظهر الخارجي، في العاطفة الخائبة التي صرت إليها، أصبح انتظار المبادرة من الآخر، منها هي: عزيزة، أملي الوحيد، غير أنّ هذا الأمل اصطدم، طوال شهور، باليأس، غابت عزيزة وانتهى الأمر. تبخّرت. طارت من منطقة المرفأ ولم

تترك أثراً، وليس من أحد أسأله عنها، حتى لو جازفت بسؤال من هذا النوع.

دخلت البيت كما خرجت منه. يدان فارغتان. وجه حزين. عينان غائرتان، تعاسة كالتي تتلبّس صاحب العائلة وهو يعود، كما غادر، خاسراً، بائخاً، ناقماً على كل ما حوله، لا يشتهي إلاّ الانفراد بنفسه، كي يفكّر، ويرتّب، ويرى لنفسه مخرجاً من الوضع الذي هو فيه. كانت أمي هناك. كان أخوتي أيضاً. كان الفقر إياه، والقناعة إياها، وكان الحنان في صدر أمي كبيراً لعهدي به، ولعله ازداد، أو لعلها سكبته عليّ دفعة واحدة. بسبب ما رأته في هيئتي من ذل، فجلست إليّ تحدثني، تروي لي بعض ما وقع معها في الشغل، تخفّف عني، تفتح، هي البائسة أبداً، ثغرات للأمل، قائلة إن هذه البطالة عرفها والدي أيضاً، وأنها قاسمته أيامها المريرة، وأن الفرج جاء بعد ذلك، وتوفّر العمل، وأن ذلك كان يحدث والوالد وحده، لا يد على يده، ولا دخل للأسرة سوى دخله، أما الآن فإنها هي، الأم، تعمل، وإن عملها جيد، وقد ألفته، ولن تتركه أبداً، حتى لو عاد الوالد، فالمرأة العاملة، المثبتة في الريجي، محظوظة، وأجرها جيد، والشغل تسلية بالنسبة إليها.. إلى آخر هذا الكلام الذي لم أعرفه منها، وكدت لا أصدقه، لولا نبرة الصدق فيه، ولولا أنني أرى الأم سعيدة حقاً، وأنها ترغب في نقل سعادتها إليّ، وفي التسرية عني، وفي حملي على الصبر، شأنها مع

والدي.. لقد أدهشني هذا التحوّل في أمي. وجدتها أوثق في نفسها، أقل شكوى من زمانها، ومع كل جزعها السابق، رانت عليها الآن طمأنينة غير خافية، وأصبح غياب الوالد واقعاً مقبولاً. تعايشت معه. ارتضته. لم تعد تصبّ حقدها وشتائمها على البحر الذي أخذه، وعلى حياة البحارة التي تألمت منها طويلاً. الخلاصة، كان العمل منقذاً بالنسبة إليها، وقد تغيّر موقفها منه، فلم تعد تخافه، ولا تستحي منه، وصارت تقول بالفم الملآن: «إنني أعمل في الريجي، وأنا مثبتة.» وتتحدث عن العمل كما تتحدث عن بيتها وأسرتها.

أعطتني بعض النقود، فرفضت. كنت محتاجاً إلى هذه النقود وخجلاً من قبولها. تذكرت أيام السجن، وما تحملته الأم لأجلي. وتساءلت وأنا أدخّن سيكارة: أليس لكاترين الحلوة علاقة بكل هذا؟ ألا تساعد أمي دون أن أدري؟ ألا تزورنا في غيابي أو تزورها أمي خفية عني؟ لقد خرجت من عند كاترين مغاضباً. قلت: «لن أعود، لن أعود، لن أعود» أقسمت. ثلّثت القسم. قرنته بكسر الهاء، لكن كاترين في وقفتها، في نظرتها المتحدية، في عنفوانها المعتاد، وحتى في صمتها المستهين بي وبتهديدي، كانت واثقة أن لعبتها لم تنته، وأنها قادرة، بحركة ما، هي وحدها تعرفها، تتقنها، على استئناف اللعبة معي.. وإذا كانت قد أوعزت الى الريّس زيدان أن يأخذني على مركبه، أن يسعى للتعرّف إليّ، ويتكلم مع الريّس عبدالحميد بشأني، أفلا تسعى،

بطريقتها الخاصة، للاتصال بأمي، وإرغامها على قبول مساعدتها، وهي تعرف أنها بذلك تساعدني، تدفع أجري، تدفع حسابي، تسلفني على المستقبل؟ ماذا تريد هذه المرأة في المستقبل؟

حين خرجت من البيت كنت أقلّ بؤساً. داخلني شعور فيه بعض الراحة. والدتي صارت عاملة. العمل غيّرها، صارت قادرة أن تعتمد على نفسها، حتى لو عاد والدك- قالت- لن أترك الشغل.. هذا جيد، كم أريد لأمي أن تستعيد تلاؤمها مع الحياة، أن تسعد قليلاً وتنسى مصيبتها لغياب والدي، أن تضحك قليلاً، أو ترضى على الأقل، أن تقف مني موقف المشجع، أنا الذي كنت أحاول تشجيعها في الماضي. إن ما تقوله صحيح، والدي أيضاً عرف البطالة. هذه هي حياة البحر. مهما أبحر البحّار، سيجد نفسه يوماً على البر، دون عمل. البحّارة لا يثبتون على مركب واحد. يتنقلون كثيراً، خلال ذلك يعرفون التشرُّد والبطالة. ينفقون ما جمعوه ويستدينون. وقد تتراكم عليهم الديون. عندئذ يلوون أعناقهم وتتقوّس ظهورهم تحت وطأة الحاجة، ويقبلون العمل على أي مركب، أي سفينة. وبشروط مجحفة جداً. عمال الميناء أفضل منهم. هؤلاء يحاولون أن يدافعوا عن حقوقهم. يسعون لأن يشكلوا نقابة لهم. أمثال قاسم يحرضونهم. يوقظونهم إلى الحقيقة. يلفتونهم إلى أوضاعهم السيئة. يحكون لهم عن عمّال العالم، وعن النقابات

والإضرابات. ينشرون الوعي بينهم كما قال قاسم. البحّارة لا شيء عندهم حتى الآن. هؤلاء سيأتي دورهم بعد عمّال الميناء. لا يجتمع منهم عدد كبير على البر في وقت واحد.. يصيرون أزلاماً لأصحاب المراكب والسفن. لا يملكون أي وعي أو فهم لموضوع الحقوق والنقابة. يا الله! كم لأمثال قاسم من فضل على العمّال؟ يدقّون على حديد بارد كما يقول، ومع ذلك يدقّون. لا يعجزون عن الدق، لا يملّون، يقضون النهارات والليالي في طواف على الناس، حاملين إليهم الأفكار التي لم يسمعوا بها قبل الآن.. في اسكندرونة كانوا. هناك، بين عمال الميناء، وعمال سكك الحديد، وفي معمل السوس. كانوا يلقون بذورهم، يقولون إن الحركة العمالية تهمهم أولاً. هذه هي الأرض الطيبة. فيها يزرعون، وفي المظاهرات والإضرابات يسيرون في المقدمة. تنشق عنهم الأرض. يخرجون من حيث لا يدري الناس. لقد رآهم والدي. تحدث معهم. وربما تعاون أيضاً. لو كان هنا لتعاون مع قاسم. كان يتعاون معه من غير شك. النضال ضد فرنسا يجمع، وضد البطالة، والفقر والجوع يجمع، يلتقي جميع الوطنيين والمظلومين والذين يطالبون بحقوقهم. وبينهم نساء أيضاً. هل هناك، في الريجي، نساء يحملن أفكار قاسم؟ هل تحدثت إحداهن مع امي؟ أيكون هذا هو السبب في تغييرها؟ مهما يكن، أنا مرتاح الآن لوضع أمي كعاملة. مرتاح لحديثها الليلة. بل أنا، برغم الرفض، انتعشت

داخلياً بكلام الريّس عبدالحميد. أن يسأل عني الريّس زيدان، ومهما كان الدافع، فهو شيء حسن. شيء ينقذني من حالة الحصار التي كانت حولي. يبدّد أوهامي قليلاً. يعيدني إلى الثقة، إلى الشعور بأنني ما زلت بحّاراً، وما زلت قادراً على الإبحار.

اتجهت إلى خمّارة توفيق. تسكعت قليلاً في الشوارع قبل ذلك. كان في جيبي مبلغ صغير. أصرّت أمي أن آخذ نقوداً منها. أخذت النقود وشكرتها. أنا أعطيتها أيضاً في الماضي. كنت أقدّم لها كل أجري وأنا أعمل على الزورق في الميناء. وكذلك فعلت عندما عملت مع الريّس عبدوش. هذا ما يسمونه تعاوناً. العائلة كلها تتعاون. لو كان والدي بيننا لكان تعاوننا أكبر. كان يكفي العائلة وحده. في غيابه اضطرت أمي إلى العمل، أحسن الذين سعوا بإدخالها الريجي. هذه شركة كبيرة تنتج كل تبغ سورية. تصدر التبغ أيضاً، لها شبكة واسعة في البلاد. فقط لو كانت شركة وطنية كما يقول قاسم، لو تخرج فرنسا وتعود هذه الشركة الى الوطن.. ذلك سيصير.. قاسم يعرف.. لكن الحرب، في رأيه، تعطّل كل شيء: استعادة اللواء، خروج فرنسا، وأشياء أخرى، أفظع ما في الأمر أن هذه الحرب ستعطل السفر أيضاً، الريّس عبدالحميد قالها أيضاً. يعرف ولا شك. أكد أن الريّس زيدان لن يتوقف عن السفر. الريّس زيدان لا يهاب الخطر. يحبّه.. وأنا أحبه. أحب الخطر، وماذا

فيه؟ تتغير الحال على الأقل، أموت أو أصبح في وضع أفضل، عندئذ يعرف البحّارة من أنا. ستعرف الميناء من أنا. الظروف كانت سيئة معي، تجمّعت الظروف السيئة عليّ. كادت تقهرني، لكنني لم أقهر. تجلدت. تماسكت، تحملت عذاب الاتهام، والأقاويل، والافتراءات، وها هو الفرج من جديد. أمي فاتحته. الريّس زيدان بعدها.. وغداً أبحر، أجل سأُبحر! هذه هي المهنة التي اختاروها لي. سمعاً وطاعة، سأكون بحّاراً، سأعمل مع الريّس زيدان وبأية شروط، ؛مهما كانت الدوافع. هل أشكر كاترين الحلوة؟ أغيّر موقفي منها؟ هددتها بعدم العودة، ماذا تقول عني إذا عدت غداً؟ ربما كانت واثقة أنني سأعود. تعرف أنني ثور. أتظنني كذلك، تفعل ما يفعله المصارعون مع الثيران؟ تهيجني وتغرز رماحها في جسمي؟ لا حاجة بها إلى قماشة حمراء، تكفي فخذها، أن تكشف قليلا عن فخذها يكفي. أنا عانقت تلك الفخذ. يداي اللتان ترتجفان كلما ذكرتها داعبت تلك الفخذ، مسدتها، يا ربي ما أنعم ملمسها وأنقى بياضها! قبّلتها، قبّلتها. زرعتها بالقبلات.. ركعت أمامها وحضنت فخذها. قالت «إياك والعض! إياك والقرص! جسمي يزرق بسرعة. لا أريد أن يزرق جسمي. أخاف أن يرى ذلك الريّس عبدوش. زوجي، أنسيت أنّ لي زوجاً؟» لم أجبها بشيء. كنت أعانق وأقبّل. كانت شفتاي تحترقان على نار تلك الفخذ، كنت مشغولا عن الكلام، أعرف أنها

متزوجة، وأن زوجها ريّسي.. وأنني أخون ريّسي، أخون والدي، لكن الذنب بعد كل شيء، على من؟ عليّ أم على فخذها؟

كل شيء يموت، حتى تبكيت الضمير.. أنا لا آبه الآن لصوت ضميري.. ربما كان هذا الصوت قد خفت، قد وهن، انقطع فلم يعد يبلغ أذنيّ. فعلتي مشينة ولا شك، لكن أذنيّ انسدّتا، ما عادتا تسمعان شيئاً. صار الأمر سهلاً. هي امرأة وأنا رجل. شيء طبيعي تماماً. الريّس عبدوش كان مسافراً، والدي كان غائباً. مات الريّس عبدوش الآن. والدي لم يعد. برز الريّس زيدان. ما يعني الريّس زيدان بالنسبة إليّ، بحّار مثلي. زميل لي. غداً يصير ريّسي. لكن السفرة مع عبدوش علمتني، أخوة البحر غير موجودة هناك، على ظهر المركب. بين الريّس والبحارة. الريّس صاحب مركب والبحّار أجير عنده. مثل صاحب الأرض وصاحب المعمل. علاقة خالية من الرحمة، من العطف، من الشراكة.. سيّد وعبد. اختلف الشكل فقط، الاستغلال ذاته. الشقاء ذاته أيضاً. من أجل ذلك لم أعد أكترث للكلمات الكبيرة المزوّقة. قادر الآن أن اضاجع كاترين الحلوة براحة تامة. لم أعد أنظر الى الأمر كخيانة. اين هي الخيانة؟ عبدوش، كريّس، خانني على المركب، زيدان، غداً يخونني في البحر، لماذا يكون لهما حق إذلالي، ولا يكون لي حق الانتقام؟ أعرف ما سوف يقوله قاسم لو حدثته عن ذلك. «أنت يا

سعيد، لا تفهم شيئاً عن النضال. تنتقم من ماذا؟ العملية فشّة خلق لا أكثر. تهرب من النضال إلى ما هو لذّة بهيمية. الطرف الآخر، صاحب الملك، سيكون غانماً في الطرفين، حين تتيح له إمكانية استغلالك، وحين تتيح لزوجته أن تستغلّ شبابك. الانتقام جنسياً لا معنى له. الانتقام الفردي لا معنى له. أفضل من ذلك أن تنشر الوعي بين البحّارة.»
حسناً! أنا أعرف هذه الكلمات. تعلّمتها. سمعتها من قاسم.. مع ذلك لا أستطيع أن أعمل بها. لا دراية لي ولا صبر. قلت ذلك لقاسم. في هذا أختلف عن والدي. أختلف عنه في أشياء كثيرة. والدي حمّلني أمانة فوق طاقتي. كيف أصبح بحّاراً جيداً ومناضلاً جيداً؟ السجن أسهل. الثورة أسهل. تنتصر أو تموت. النصر مفهوم، والموت مفهوم. لكن الدأب اليومي، دون تأفُّف، دون تراجع. بدأب النملة، بصبر الجمل، هذا ما لا أطيقه، لا أقدر عليه: «أعذرني يا والدي، أعذرني يا قاسم، مزاجي لا يقبل، لا يحتمل هذه اللعنة».

بلغت خمّارة توفيق. دخلتها بقدم ثابتة. تحسّنت نفسيتي. استعادت طبيعتها. ماذا يصير، لو أطبقت الدنيا كلها؟ مع ذلك الدنيا بخير. أمي بخير. عائلتي بخير، ولا بدّ أن أجد عملاً، إن لم يكن مع الرّيس زيدان فمع غيره. عليّ أن أسكر اليوم. لديّ نقود تكفي. أجلس على طاولة وحدي. أنا لا أتوقع ظهور ابن العاهرة راغب درويش. لو عاد الليلة

لفرحت به. شربت معه ورافقته إلى المبغى. أتكلم معه بصراحة أكثر. أقصّ عليه ما جرى لي، لكني أحذره، «اسمع يا ابن أمك. رغم كل هذا الوضع السيّئ لن أصبح مهرِّباً. فكرت أن أصير كذلك. أن أعمل معك، تمنيت أن تظهر في الميناء، أن أراك، لكن نوبة اليأس انقضت. الأزمة مرت. استعدت ثقتي بنفسي كبحّار». الريّس زيدان يطلبني، أنا حاضر، لكنني لن أركع أمامه. سآتيه من فوق. ابن صالح حزوم ندّ للبحّارة والريّاس،لجميع البحارة وجميع الريّاس.

صرخ أبو الوفق، ما أن رآني:

- أين أنت يا سعيد.. الريّس زيدان يسأل عنك.

تجاهلت أنني أعرف ذلك:

- وماذا يريد الريّس زيدان مني؟
- وماذا يريد الريّس من البحّارة؟ أن تسافر معه طبعاً!
- هه.. هو قال ذلك؟
- نعم.. المركب جاهز للسفر..
- أنا لست جاهزاً بعد..
- كيف!؟
- هكذا!

كنت قد جلست إلى إحدى الطاولات.. ظلّ أبو الوفق منحنياً قبالتي، مستنداً بيديه الاثنتين إلى الطاولة، بدا أنه لا يفهم كيف يسأل الريّس زيدان عني ولا أكترث، كيف

يعرض عليّ السفر معه وأقول إنني غير جاهز.. استغرب أجوبتي الجافة. ظنّ أن هناك من أساء إلي، أوأن ثمة مشكلة، لذلك قال:

- حين تضع يدك بيد الرّيس زيدان تنتهي مشاكلك..
- لا مشاكل لدي..
- ولماذا أنت نكد اليوم؟
- لست نكداً... أريد أن أشرب..

جاءني ببطحة عرق كما طلبت. أحضر معها حشيشة بحر. أظهر اهتماما ملحوظاً كأنما عدت سعيد الذي كنته أيام تعارفي بالريّس عبدوش. جلس إلى طاولتي دون أن أدعوه، قال لي: «سأشرب معك كأساً فقط».. تحدث بأشياء مختلفة، بعضها عن الخمّارة، أكثرها عن الريّس زيدان وقال همساً:

- سمعت؟ الريّس زيدان تزوج كاترين الحلوة!

لم أفاجأ. كنت أعرف أنه تزوجها، أو هو يوشك أن يفعل ذلك. قلت:

- أكان يحبها؟
- لا أدري.. أنا لم أسمع شيئاً.. من كان يظن أن الريّس عبدوش سيغرق.. هذه حياة البحر..

قلت:
- صحيح..
- والمرأة لا بد لها من زوج..
- ولكن لماذا هي بالذات.. وبهذه السرعة؟

– هذه امرأة يتسابق الرجال إليها.. لو تأخر فاتته.. كان هناك غيره..

– من الريّاس أيضاً؟

– هذا ما يقولونه..

– محظوظة..

– فاتنة.. يقولون إنها ساحرة..

فكرت بوالدي. كم كان رجلاً هذا الوالد العزيز! أحبها دون كلام، دون تبجُّح، دون زواج، لكنّه أحبها بعمق، بهيام، أرادها له خالصة مخلصة. خرج من السجن إلى بيتها رأساً. في اليوم نفسه، الليلة نفسها. لم يغفر لها أنّها أحبّت الأتراك. قال لذلك البحّار: «لو أحبّت كاترين رجلاً من العرب، واحداً من حي الشرادق، لكان الموقف يختلف. امرأة وخانت. الفراق تجربة صعبة للحب.. فارقتها مكرهاً، كنت سجيناً، وهي امرأة، جميلة، ناضجة، ثم هي محطّ الأنظار، ولا حماية لها. انزلقت.. كل هذا كنت أتفهمه، أغفره، أما أن تكون حبيبتي، أن تكون من نساء العرب، وفي حي الشرادق، وتخون الرجال الذين سجنوا، مع اعدائهم الأتراك! جزاء هذا الموت، رحمة بها لم أقتلها، كنت أحبها فلم أقتلها. اكتفيت بترحيلها. قلت لها روحي مع السلامة.. وراحت». تراه حين فعل ذلك، كان يأمل أن يلقاها ثانية؟ كان يضمر، في ذاته الكتوم، أن يلحق بها؟ أن ينهي غربته ويعود إلى اللاذقية فيلتقي بها؟ لم يعد.

البحر قذف به إلى اسكندرونة. هنا أيضاً وجد محتلّين. تغيِّر الإسم فقط. بدل الأتراك حلَّ الفرنسيون.. الأزمة الاقتصاديـة. البطالة. الفقر. الجوع.. ومن جديد ألقى بنفسه في النار. خرج بسلاحه على فرنسا.. وبعد ذلك صار الذي صار. اختفى.. لو ظهر الآن، ماذا يجري؟ الريّس عبدوش سمع به على الأقل. احترمه سماعاً. ربما، في دخيلته، أراد له استمرار الضياع. رغب أن يبقى حيث هو، حياً او ميتاً. لكن الأقدار شاءت ان يموت الريّس عبدوش، وها هو الريّس زيدان يتقدم ليصبح زوجاً،، ووالدي؟ إذا عاد والدي يوماً؟ وأنا. ألست شيئاً أنا؟ أتركها هكذا تدوسني بحذائها، تجعل من رأسي جمجمة محنطة معلقة فوق عتبتها؟ أين رجولتي إذن؟ أين سمعتي؟ أين كرامتي؟.

شربت بجرعات كبيرة، كان داخلي يحترق ظمأً. في جسمي لهفة إلى الشراب. جوفي كان يستقبل الشراب ويمتصه كما الأرض العطشى إلى الماء. كنت واعياً لحالي: اريد أن أسكر.. «وبعد؟ تساءلت بعد السكر؟ تمضي اليها كما مضى يوماً ابوك. تطلب منها أن ترحل؟ تغامر دون سلاح؟ وما هو سلاحك؟ ما تاريخك؟ ما ماضيك؟ أية رجولة كانت لك، وأي حق ترتَّب لك بعنقها؟ نامت معك؟ فعلت ذلك؟ ستفعله مع رجال آخرين.. الشهوة شيء والحب شيء آخر. والـدك كان يحبها وأنت تشتهيها. أنت مولع بجسمها.. بجمالها.. استهوتك فخذها، أسرتك فخذها.. أيها العاهر..

في روحك دعر مخيف. أنت ماخوريّ قذر.. أنت لا تحبها، وهي لا تحبك. قالت لك: لو عاد والدك لعدت إليه. تحبّه.. أحبته وما زالت.. أما أنت فترفضك. أنت تجانبها وترفضك. ولن ينفعك أن تذهب إليها.. انضبط قليلاً، راقب نفسك.. لا تسكر وتجعل من نفسك هزأة لمن في الخمارة. زعمت أنك ستأتي الريّس زيدان كندٍّ. ستقول له بغير كلام: أنا سعيد حزوم! إبن صالح حزوم. هو سينظر إليك. سيروزك. سيرى إلى وجه أبيك في وجهك. كرامة لأبيك إذن لا تسكر. لا تفكر في الذهاب إليها، ولا في ارتكاب أية حماقة معها أو مع سواها.. دع ما في نفسك لنفسك. استوعب ألمك. خبِّئه في القرارة». كأسك يا أبو الوفق.. كأسك يا سعيد..

- متى يأتي الريّس زيدان؟
- ليس قبل العاشرة ليلا..
- لماذا يتأخر!؟
- هكذا عادتهم.. يصفّون السهرة عندي قبل التوجه إلى البيت.. نسيت الريّس عبدوش؟
- لا، لم أنس.. رحمه الله.
- الريّس زيدان من هذا الصنف.. زيادة على أنه يحب المخاطرة.
- لم أفهم..
- لا يسأل عن الموت..

- كيف؟
- ستعرفه.. انتظر..

لم أنتظر، ولم أبارح الخمارة. سيّان جاء ام لا.. أسكر. هذه الليلة للسكر. كل ما في الخمارة يلذّ لي. الخمرة، حشيشة البحر. وجوه السكارى، المنولوجات إياها. الخوف من أبو الوفق او التطاول عليه. ذلك الصياد العجوز الذي يملك لساناً سليطا. الدخان العابق في الجو، رائحة العرق التي تتكثّف في جحر الضبع هذا.

أطلّ، أخيراً، الريّس زيدان. كان يمارس إحساساً بانتصار ما، كأنه يخرج لتوّه من معركة. طربوشه إلى وراء. صدره مندفع إلى امام، في يده خيزرانة، ومن حوله رجال لا أعرفهم. وقف بعض الحاضرين تحية له.. كان كريماً فيما عرفت من توفيق، وذا ميل إلى اظهار الوجاهة. كان ريّساً طالعاً من قلب البحر، وهو فرح الآن لامتلاك عروس هذا البحر، ويتلمس تأثير ذلك فيمن حوله.

لم أحبّه كما أحببت الريّس عبدوش. كان فيه صلف ظاهر. شيء ما ينادي: «أنا رجل، ولديّ مركب، وانا ريّس، وشجاع، وزوج كاترين الحلوة.» كدت أغادر الخمارة حتى لا ألتقيه. قرّرت في نفسي عدم التعاون معه. شجعان البحر لا يكونون هكذا. إنه مدّعٍ. قد يكون مغامراً، جريئاً، يحب المخاطر، يعيش على حافتها، لكنه ليس ذلك

الرجل الذي يعيش في ثيابه. كرهت معاشرته سلفاً، رفض داخلي يزداد للعمل تحت امرته. كنت منتشياً قليلاً، وكان الرفض يتجمّع، وخيل إلي، في فورة حميّة، أنه لا يستحق كاترين الحلوة، وأنني أحق بها منه، لو كنت ريّساً وأملك مركباً.

رأيت توفيق الخمار يهمس في أذنه وهو يشير إلي. لم يظهر عليه أيّ تجاوب. بدا كأنه لم يسمع بآسمي. ازددت نفوراً منه. قرّرت رفض دعوته فيما لو صدرت. ماذا يظنّ في نفسه؟ وما يعني، بالنسبة إلي، أن يكون ريّساً وصاحب مركب؟ أنا بحاجة إلى عمل، لكنني لن أطلبه منه، لن أقبله لو عرضه. سلام للبحر. إذا كان لي أن أخالف وصيّة والدي فهذا وقت خلافها. سأكون بحاراً يوماً. لقد كنت كذلك. كنت بحاراً مع الريّس عبدوش، وأي ابن عاهرة لا يستطيع ان ينكر ذلك. غُبن حقي هذه المرة، لا بأس، قالت والدتي إن حقوق والدك غُبنت بعض الأحيان. هذه طبيعة البحر. طبيعة العيش في الميناء. يأكلونك، تأكلهم، والدنيا تدور، البحّار قرش، لكن دائماً هناك قرش أكبر، دائماً هناك ريّس وصاحب مركب. قاسم يفهم. أي والله يفهم. اللّعبة واضحة بالنسبة إليه. قال لي: «القوة هي الملكية» لم أستوعب كلامه، ثمة من هو اقوى من أبي؟ ثمة من هو قادر على إذلالي؟.. الريّس زيدان، قبله الريّس عبدوش، كل منهما صاحب مركب، وكاترين الحلوة تفضّل اصحاب المراكب،

خاصة إذا كانوا ريّاساً.

قررت أن أنهض. بل هممت بذلك، حين جاء ابو الوفق يسعى إليّ:

- يا سعيد.. الريّس زيدان يريدك..
- أنا لا أُريده..
- عيب يا سعيد.. ترفض دعوة الريّس زيدان؟
- ولماذا أقبلها؟
- لأنه ريّس.. ولأنك ستعمل معه..
- أنا أيضاً ريّس.. أنا ابن صالح حزوم!
- على الرأس.. لم نقل شيئاً.. لو كان والدك هنا لمشى الريّس زيدان إليه.. أما وأنت مثل أولاده، فهذا كثير.. اسمع مني..
- بلغ الريّس زيدان سلامي.. أنا مرتاح في جلستي..
- لكنه سيزعل.. موقفك غير ودّي.. لماذا تريد أن تتحدّاه؟

«أقول له إن بيننا امرأة؟ أفشي سرّ علاقتي بكاترين الحلوة؟ أتحدى الريّس زيدان باسمها وليكن ما يكون؟ تلك الفخذ تستحق التحدِّي. لأجلها أخوض معركة، ولو كانت مع الريّس زيدان.. ذلك البياض، تلك الاستدارة.. العنق المتصل بالجذع، المنحدر إلى مثلث ينفث لهيباً.. كاترين، يا كاترين، يا عاهرة، ماذا ترتِّبين؟ أيّة مكيدة أخرى تحوكين؟ أعددتِ وتداً جديداً لرأس هذا الكبش بقرنين؟»

عاد ابو الوفق يسأل:

- ألن تغير رأيك؟ الريّس زيدان ينتظر جواباً..

قلت بحسم:

- أبلغه أنني لن آتي.. ليتفضَّل هو..

- ولكن الريّس زيدان ليس المستشار الفرنسي.. إنه أخوك..

«هو منافسي.. أخذ كاترين الحلوة، ويريد أن يأخذني، أن يخضعني.. أن يذلني، أن يمنّ عليّ.. هذا ما تريدني القحبة: أجيراً عند زوجها! لا.. سأعمل حيث أشاء، وبأيّ عمل، وسأكون أجيراً عند اللزوم، ولكن ليس عند زوج كاترين الحلوة.. سأبقى عشيقاً، منافساً، نداً له.. الزمن بيننا.. هذه، كاترين، عشيقة والدي، امرأته غير الشرعية، ولن أرضى أن تكون لسواه.. لا لي ولا لغيري.. هذا هو قراري الأخير..»

- اسمع يا أبو الوفق! أنا هنا.. ومن يريدني فليأتِ إليّ..

- كما تريد.. لكنك لن تكون مسروراً.

صحت وراءه:

- ماذا تقول؟

لكن توفيق كان قد مضى. لم يجب، ربما سمع ولم يجب. خبر عنادي.. لكنه لا يعرف لماذا أعاند، ولماذا أنا مستعدّ أن أقاتل.. يظنها سورة غضب. انزعاج من شيء ما. يهددني

ابن الزانية؟ طيِّب يا توفيق، يا ابن أمك، سنرى من الذي يجعل الآخر غير مسرور..

راقبت الموقف بطرف عيني. توفيق يحبّني ولا شك. لم ينقل كلامي كله للريّس زيدان. لطّف من حدّته قليلاً. ربما أخبره أنني مرتاح في موضعي. هذا لا يشكل تحدياً مثل «ليأتِ هو إليّ» التي قلتها.. كانت نشوة الخمر قد أخذت مني. وددت، ساعتها، أن أموت، كما هي عادتي عند التحدِّي، وأمام أيّ خطر. أموت دفعة واحدة وأنتهي. أنا أقبل الموت على هذا النحو. أستسيغه. أما أن يأتي بالتقسيط، ومن خلال عذاب طويل وصبر طويل.. المهم أنّ الريّس زيدان لم يتكشّف عن أيّة ردة فعل، عبس قليلاً، وهذا كل شيء. إذا كانت هي التي أوصته بي، فسيقول لها: «سعيدك هذا عنيد كالتيس.. طلبته، دعوته، فما لبّى طلبي ولا دعوتي، من يظنّ نفسه؟ لولا خاطرك..» وستجيبه: «شكرا يا ريّس.. هذا شاب صغير.. لا يقدّر عقبى تصرفاته.. أمه أوصتني به. قالت لي: أرجوك تدبير عمل لسعيد.. فهو عاطل منذ شهور..» وكرمي لها، جارتنا القديمة هذه، طلبت منك أن تأخذه على مركبك» هكذا تموِّه عليه الحقيقة. تخفيها تحت لسانها. تعرف وتكذب.. تقول له كان عشيقي؟ ومن قبله، كان والده كذلك؟ كاترين لا تقول أشياء تفسد عليها خططها. لا أحد يقول حقيقة كهذه.

لم يعد أبو الوفق إليّ، لم تبدر حركة ولا إشارة عن الريّس زيدان. صرف النظر عن التعرّف بي. أضمر المسألة في نفسه. أعطاها قدراً ضئيلاً من الاهتمام. فعل ذلك كيلا يبدو عليه الانزعاج. مهما يكن فهو ريّس. يداري عواطفه ومقاصده عند اللزوم. هناك احتمالان: إما أنّه استخفّ بي أو أنه، ضبط أعصابه. في كل حال، رسالتي بلغته. ليفعل ما يريد.. ما دمت لن أشتغل عنده فليكن ما يكون.. غداً يعرف الريّس عبد الحميد. ربما بلغه ذلك من الحاضرين. ظني أنّ الريّس زيدان لن يقول شيئاً. الريّاس يتصرفون بعقلية متشابهة. الريّس عبدوش لزم قمرته أثناء السفر. لم يقل لأحد ما به. كتم سره في ذاته. أخفى جرحه بمنديل. كان صارماً، هادئاً، بطّاشاً، وقد قرّر، منذ بدء الرحلة، أن يبطش بي، وهذا يبطل دعوى كاترين بأنني السبب في موته. مات لأجلها. انتحر بسببها. هي التي أودت به لا أنا، ومع ذلك، العاهرة تلقي المسؤولية عليّ.

عجيب كيف تتغيّر الأمور. تدور مثل الرياح. تكون الريح شرقية فتصبح غربية. يكون الطقس صحواً ويهبّ الاعصار فجأة. أحياناً تدور بك الرياح. تختلط مصادرها. يضطر المركب إلى تغيير اتجاهه وأشرعته أكثر من مرة. هذا ما يحدث مع الانسان أيضاً. تتغيّر آراؤه. أقواله، أفكاره، في جلسة واحدة.. جئت الخمّارة وفي ظني أنني سألتقي الريّس زيدان وأتعرف به. وعدت الريّس عبد الحميد بذلك،

أزمعته في نفسي، لم يكن ثمة كدر عند دخولي. الخمرة لعبت بي. أثارت حميتي، الشهوة ضربت على عيني. فخذ كاترين تراءت لي. لم أستطع مقاومة إغرائها. لم أقو على دفع الكراهية التي ولّدها في نفسي ضد كل من يحرمني منها. أنا لا ثأر لي مع الريّس زيدان. تزوج كاترين الحلوة على سنة الله ورسوله. من هذه الجهة لا لوم ولا شائبة. فعلته خلقية ومنطقية. كاترين عنده بالحلال، وهذا فضل منه. فلو أرادها بالحرام لكانت، أو لأرغمها أن تكون.. من يقف في وجهه؟ من يحمي كاترين من سطوته؟ مع ذلك تجنّب النذالة. سلك الطريق السوي، جاءها من الباب.. خطبها من نفسها سماحة.. تزوّجته بالرضى.. فما دخلي أنا؟ ولماذا نقمت عليه؟ هل لأنه استخلص تلك الفخذ مني.. آه.. إلى الجحيم بكل النساء».

خرجت من الخمّارة على قدر كبير من الانزعاج. في أعماقي شيء خبيث. رفضي دعوة الريّس زيدان أبهجني. التحدِّي يبهجني دائماً. طبع فيّ. منذ عرفت الحياة والتحدي ضارب في رأسي. فعلتها اليوم وتحديت الريّس زيدان. لكن الريّس زيدان لم يكترث. هذا ما قلب سروري إلى نكد. كان على الريّس زيدان أن يكترث كيلا ينكّد عليّ. لو أرسل توفيق إليّ ثانية كنت انتشيت. بذلك يتيح الفرصة لزيادة التحدي. كنت أنتقم لأيام النحس التي مرّت معي في الميناء بعد حادث الغرق. لكنّه لم يكترث. ريّس في عمره

ومقامه، يكترث لشاب مثلي؟ ألست مغروراً قليلاً؟ بلى! لو كان والدي لأسف أنه أنجبني. ما أظن والدي يقع في ورطة كهذه. رجل يعرف ما يريد. مثل الطفل يعرف ما يريد. أنا معقّد. حادث الغرق عقّدني. اتهموني ظلماً. اعتدوا علي. أردت الانتقام. التحدي الذي أريده يخفي سعيي لإعادة اعتباري. الريّس زيدان، بطلب من كاترين الحلوة، تقدّم لردّ اعتباري، لكنني، في اللحظة الموعودة تيّست. شمخت بأنفي. هذه نتيجة من يشمخ بأنفه. لا بأس، ما جرى قد جرى. خرجت الآن من الخمارة وانتهى الأمر. عليّ أن أعود إلى البيت. أكره العودة إلى البيت مع ذلك. أفهم ما بي. أريد أن أفرّغ توتّري، هناك وسيلة واحدة لتفريغ توتري: أن أذهب إلى المبغى. أحصيت ما تبقّى معي من نقود فلم أجدها كافية. رغبت عن الذل الذي ينتظرني فيما لو ذهبت إلى هناك بقروشي الباقية. لا أريد المتعة على هذا النحو. الأفضل أن يكون للرجل امرأة. أن تكون له زوجة أو عشيقة. ليس لي زوجة ولا عشيقة. هناك عزيزة، لكن أين عزيزة؟ هل ابتلعها البحر؟ غطست ورائي وما زالت هناك؟ غرقت؟ أغرقت نفسها؟ انتحرت؟ لا.. ليس هذا زمان انتحار النساء. لا امرأة تنتحر لأجل رجل. الرجال ينتحرون لأجل النساء. هذه كاترين الحلوة وهذا الريّس عبدوش. مات لأجلها. أراد أن يميتني أيضاً. قطع الحبل بي ورماني في أشداق الموج. آه! الرجل مغفّل دائماً. كاترين

الحلوة تقتل الريّس عبدوش، فيتقدم الريّس زيدان ليقوم مقامه. ألم يتّعظ؟ تستحق كاترين أن يموت الرجال لأجلها؟ والدي كان كبير الرجولة. كانت تحت فخذه فطردها. قال لها اذهبي بعيداً. ارحلي من مرسين. لكن والدي رحل في أثرها. هل كان مجنوناً بها أيضاً؟ كان يرغب بالانتحار على يديها؟ وأنا؟ الا أتعظ من الجميع؟ أرى النار وأريد إلقاء نفسي فيها؟ تحدّيت الريّس زيدان وأنا لا أعرفه. لماذا تحديته؟ لأجلها؟ ولماذا رفضت السفر معه؟ لأجلها، ولماذا أكذب على نفسي إلى هذا الحد؟ إنني أريدها، أريدها، أريدها.. كاترين! يا كاترين! ضعي رأسي على فخذك وأعملي السكين في رقبتي. هناك، عليها، على تلك المستديرة، البيضاء، الوردية، أموت مستريحاً. اللعنة على العرق. اللعنة على توفيق وخمّارته. أريد امرأة. أيّة امرأة. ثقب فقط. أداة تفريغ.. لن أستريح الليلة قبل أن أفرّغ من الشهوة التي تكوي جسدي.. لن أنام قبل أن أفعل شيئاً. لا بد أن أفعل شيئاً.. لا بد أن أفعل شيئاً..

وقفت على شاطيء البحر. هناك صخرة عند ميناء الزجاج. فكرت أن أخلع ثيابي عليها وألقي بنفسي في البحر. الدجاجة، حين تقرق، كانت أمي تغطسها بالماء. سألتها: «لماذا تفعلين ذلك يا أمي؟» قالت: «حتى تغادر الدجاجة بيضها» «وماذا يفعل معها الماء؟» اجابت «يبردها» ثم ندمت فقالت: «اف.. ما اكثر أسئلتك!». أنا

أيضاً اقرق مثل دجاجتي. حرارتي مثل حرارتها. في جسدي لهيب.. الماء يطفئني.. الماء يبردني.. مع ذلك لم أنفّذ الفكرة. لم أسبح.. كنت أريد شيئاً آخر، فكرت فيه وخجلت منه.. ضحكت.. فكرت.. خجلت.. انحدرت بين الصخور.. تلفّتّ.. لا أحد.. وبيدي ضاجعت نفسي.. استرحت.. لكنني قرفت، قرفت، قرفت..

بعد أيام زارتنا كاترين الحلوة. لم أكن في البيت. أمي قالت لي إنها جاءت. قالت لي: «إن كاترين في غاية السعادة، كأنها لم تفقد زوجها ولا وقع لها شيء. جميلة كاترين تظل جميلة يا سعيد. لم تذكر الريّس عبدوش بكلمة. سألت عنك. قالت إنها لم ترك منذ شهور.. لا تدري ما السبب، مع أنها تريد خيرك. قلت لها: «خيرك سابق يا كاترين.. ولكن لا أريد أن يعود سعيد إلى البحر.. ساعديني كي يشتغل في الميناء.. من الأفضل، بعد الذي جرى، أن يشتغل في الميناء، ما كل مرة تسلم الجرة. يكفي، جرّب حظه في البحر. أنا غير مرتاحة لسفره.. ساعديني أنت، أرجوك» قالت كاترين: «ابعثي به إليّ: سأدبّر له عملاً في الميناء، الريّس زيدان قادر.. رجل مسموع الكلمة.. اتكلي عليّ»

قلت لأمي:

- لن أذهب إليها..
- ولماذا يا ولدي؟
- هكذا.. لا أريد..

- كاترين صديقتنا.. جارتنا من مرسين..
- ولهذا لا أريد الذهاب إليها..
- أنت تكره هذه المرأة..
- نعم.. أكرهها..
- لماذا؟
«كيف أقول لأمي؟»
- أكرهها والسلام..
- أنا لا اقول لك أَحِبَّها.. اذهب إليها فقط.. ستساعدك في تدبير عمل.. الريّس زيدان..
صحت:
- لا تذكري هذا الاسم أمامي..
- تعرفه..؟
- لا..
- لماذا تكرهه أيضاً؟
«أقول لأنه أخذ كاترين الحلوة مني؟»
- لا أكرهه ولا أحبه.. لا أريده أن يتوسَّط لي في عمل.. دعيني من كاترين وسيرتها..
- لن أحدثك عنها بعد الآن.. المرأة صديقة.. تزورني من حين لحين.. تدعوني لزيارتها. تعرض عليّ مساعدتها.. وأنت تترفز إذا سمعت باسمها.. بماذا أساءت إليك؟

لم أجب.. كاترين ما أساءت إليّ.. كاترين امرأة طيبة.. كانت لطيفة معي. كانت صديقة والدي. ثم صارت

صديقتي. في اسكندرونة ساعدت العائلة. في اللاذقية لم تقصر.. هي التي دفعت الريّس عبدوش لتشغيلي على مركبه، وهي التي تدفع الريّس زيدان لأخذي بحّاراً معه.. أعترف بكل هذا.. جمايلها كثيرة.. لا أنكر ذلك.. لكنني لن أذهب إليها.. قلت لها وأنا أغادرها «لن أعود» أنا متمسك بكلامي، لن أعود إليها.. وماذا تريد مني؟ رفضت العمل مع زوجها وانتهى الأمر.. لن أكون أجيراً عنده، ولا أجيراً عندها.. أريدها هي.. لا أريد العمل بل المرأة، لا أريد الريّس زيدان بل كاترين الحلوة.

أخرج من البيت كي أبدّد غضبي. أتنفس قليلا. أهدأ. حالتي النفسية تسوء أكثر فأكثر. كاترين الحلوة صارت عدوّتي. كانت صديقتي، عشيقتي، صارت عدوّتي.. أريدها! لا استطيع العيش بدونها. كل نساء المدينة، كل الأجساد التي أراها، أحلم بها، أستعرضها في يقظتي، كفّت عن استثارتي. لم يبق إلاّ جسم واحد في هذا الكون. لم يبق إلاّ فخذ واحدة، هي فخذ كاترين الحلوة، فإما الحصول عليها أو الموت.. أنا مفتون بها. مجنون.. أشتهيها. أعبدها، أعانقها في صحوي ومنامي، أتخيّل شفتي عليها. أتصور يدي فوقها، يتهيأ لي أنني احتضنها، أعانقها، أضع رأسي عليها وأتخلى عن بقية عمري.

ايه يا والدي! أيها الغائب البعيد، ابنك ضاع، سعيد ضاع. كان يبحث عنك، وصار بحاجة إلى من يبحث عنه.

تعقّدت حياتي. بتّ أكره حياتي. أفضل منها حياة السجن. هناك كنت شخصاً آخر، كان البحر والنضال، والبحث عن والدي، أشياء تفتنني وتلهب حماستي. كنت أعتزم أن أكون بحّاراً.كنت مولعاً بسيرة الرجال الذين يقاومون فرنسا. كانت لديّ قضية. الآن لا شيء. حتى البحث عن والدي كدت أنساه. أتذكره على فترات. تومض الفكرة في رأسي بشكل متقطع. لا أجد الهمة ولا الحماسة. مشغول! مشغول دائماً. عاطل عن العمل وغير قادر على العمل. في رأسي دوار. دخت. دوّخني كل ما مر معي في الأشهر الأخيرة. لن يشفيني سوى السفر. عليّ أن أسافر مهما حدث. أسافر في البحر أو في البر. عليّ أن أخرج من بلادتي وكسلي. في الغربة أنسى. أجدّد نفسي. أتابع البحث عن والدي. أشتغل عاملاً. أشتغل بحاراً. المهم أن أعيش بين الناس. أن أمارس العمل. أواجه الخطر. ليس كمثل مواجهة الخطر من منشط. لا فائدة من بقائي هنا، أغرق في الوحل أكثر فأكثر. أدع نفسي لكاترين الحلوة تتلاعب بي كما تشاء. أحرق أعصابي في تصورات داعرة عنها. هي لا تريدني. قالت لي ذلك صراحة. اتهمتني بقتل زوجها.. خرجت من بيتها مغضباً، مطروداً. قلت لها لن أعود.. ولماذا أعود؟ ما نفع أن تراني ثانية؟ أن أركع أمامها وأستجدي عطفها؟ أفرض أنها رضيت عني واستسلمت لي، فما نهاية الأمر؟ أنا لا أستطيع الزواج بها، ولا الإنفاق عليها، لست ريّساً بعد كل شيء، هي لا تقبل إلا

بريّس. هي زوجة ريّس الآن.. وهذا الريّس يسعى لتشغيلي عنده، وأنا أهرب منه، خائفاً من مواجهته، خائفاً من صحبته.. بينما تسعى كاترين لربطي به، فما هي غايتها؟ إذلالي؟

تعبت من السير والتفكير، قطعت مسافات وأنا أتسكع، تاركاً لقدميّ أن تقوداني. كنت حائراً. أنا بحاجة إلى عمل، وها هو العمل يناديني، البحر يناديني. لكن المرأة أفسدت عليّ كل شيء، لعبت بي لعبة قذرة، أذاقتني حلاوتها وحرمتني. صارت لغيري. زوجة شرعية. زوجة رجل معروف ومرهوب. كنت أظن أن كل شيء انتهى، وها هي ترسل في طلبي.

قررّت ألاّ أذهب. استنجدت بكل كرهي وقهري. استعرضت ما صنعت بي بعد غرق زوجها. غذيت في نفسي كرهي لها. قلت في نفسي: «عذاب يوم ولا كل يوم.. ما دامت صلتي بها مقطوعة فلتبق كذلك. العذاب الذي أعانيه اليوم سأعانيه غداً. مهما بذلت فلن تكون لي إلى النهاية. كاترين الحلوة لا تكون لرجل واحد إلى النهاية. تبدّل الرجال كما تبدّل الفساتين. وربما كان سوء حظها هو الذي فرق بينها وبين أزواجها. ربما سوء حظهم أيضاً. ملول؟ هذه هي. تملّ الرجل بسرعة، وبسرعة تستبدله. بعد والدي لم تثبت على رجل. الريّس زيدان هو الزوج الرابع في الحلال، أما في الحرام فلا أحد يدري.. أنا دخلت في هذا الرقم.

كنت من بين عشاقها، لكنها سرعان ما تناستني. انقلبت علي. اتهمتني. اخترعت التهمة لكي تتركني. طيّب يا كاترين.. سنرى من يترك الآخر! أرسلت في طلبي ولن ألبّي دعوتك. قلت مرة «لن أعود» وهذا يعني أنني لن أعود..»

العودة، العودة، العودة. صرت خائفاً من العودة. فقدت ثقتي بنفسي، وبارادتي. أصبحت العودة عدوتي. وجدتها مخيفة أكثر من الموج والعاصفة. مرعبة أكثر من قرش البحر. شيء ما في داخلي بدأ يضعف. صارعت ضد هذا الضعف. قلت بصوت غير مسموع: «محال! محال! محال! لن أعود: «خيّل إليّ أن صوتاً في داخلي يرد ساخراً: «ستعود!» ذات مرة، في طفولتي، صادفت دوامة في البحر. لم تكن الدوامة على عمق كبير، لكنها جذبتني كما يجذب المغناطيس الحديد. كنت قد سمعت عن الدوامات وخطرها. كانت هذه أخطر ما في البحر على السبّاحين. استفسرت من والدي عنها. وتحدثت بذلك مع أولاد الحي. قضينا أياماً ونحن في سيرتها. كان الأولاد يخترعون حكايات عنها. كل منهم زعم أنه صادف دوامة. والدي قال إن الدوامات في الأنهار أكثر. هناك خطرها الحقيقي، لسبب بسيط هو أن قاعات الأنهار غير كتيمة، وبها بالوعات مائية. تفور الأرض، يفيض الماء، وتبدو على السطح فقاقيع.. تدور المياه بحركة لولبية، ساحبة معها إلى الأعماق كل ما تصادفه عائماً. إذا حدث ذلك للإنسان، مهما كان

ماهراً في السباحة تغرقه الدوامة.. وحين وقعت فيها ذلك اليوم، وقبل أن تستولي عليّ وتسحبني إلى القاع، صارعت بكل قوتي، كنت أندفع إلى أمام وهي تشدّ بي إلى الوراء. أضرب ساعدي في الماء، وأشد بجسمي، لكنها، كما لو كنت في شباك مائية، كانت تشل قدرتي على الاندفاع، فأتخبط، وأرتد، وأتقدم، وأتراجع، فاقداً على هذا النحو قواي بفعل التعب والخوف، اكثر مما تفعل قوة التيار في الدوامة.. أخيراً هرع إليّ أحد أصدقائي وأمسك بي وساعدني، فاستطعت النجاة.

أنا الآن في دوامة. المياه تدور حولي وتشدّني إلى القاع. أنا معرّض للغرق.. عليّ أن أصارع، أكافح، أصعد إلى فوق، أندفع إلى أمام، خارج دائرة الخطر، لكن كيف؟ كيف؟ في البحر كنت أنا والماء. كان الماء من حولي. كنت أراه. ألمسه، أعرف مكانه، أرى الدوامة بعيني، لكنني الآن أصارع ضد مجهول.. أنا في دوامة ولا أرى دوامة. أصارع ضدها دون أن أعرفها. لا أقوى على تحديد مكانها، هي موجودة في رأسي، قلبي، بطني، أحس بها ولا أستطيع ملامستها. زنبقية، تمكر بي. تقهرني. تهينني. تخيفني. أنا خائف، مستثار، كالمدمن وقد جاء وقت الشراب، كالمقامر حين يرى الورق على الطاولة، كالجائع حين يرى الأكل. كان أحد عمّال الميناء يهوى الصيد، حدثني مرة عن العصفور وكيف يتجمد رعباً إذا رأى الأفعى. كاترين الحلوة أفعى

وأنا عصفور. لا كاترين نفسها، طيفها، خيالها، مجرد التفكير فيها يصيبني برعشة.

دخلت إحدى الخمّارات وشربت. زاد المشروب في إهاجتي. ومض شيء أمام عيني. تضاعف شوقي إلى كاترين. بدأ عقلي يمدّني بالمبررات: ما الخسارة إذا ذهبت إليها يا سعيد؟ أنت مطلوب لا طالب. هي التي سعت إليك ورغبت أن تراك. زيارتها للبيت كانت لأجلك. قدرت أن تراني هناك. قالت لأمي أرسليه إليّ. ماذا لديها من جديد؟ هل حدثها الريّس زيدان بما جرى بيننا في خمّارة توفيق؟ ربما فعل. بذلك يغسل وجدانه. يستريح أمامها. يكون قد حقق رغبتها وألقى المسؤولية عليّ. يقول لها «سعيدك هذا تيس. صادفته في المقهى- يقول مقهى لا خمّارة- دعوته إلى حلقتي فرفض، سعيدك تصرّف بعداء، ظلّ جالساً دون أن يأبه لوجودي. بعد قليل خرج. كان متجهماً. لا أدري ما به.. هل كان ينتظر أن أمشي إليه؟ سامحته كرامة لوالده. كرامة لزمالة البحر. لو كان غيره لأدّبته.. قليل أدب حقاً!» الريّس زيدان لا يعرف شيئاً. لا يشك بشيء. يحسبني طائشاً، أو يابس الرأس، أما كاترين فتعرف. تفهم تصرّفي. تقدر سلوكي. تدرك أن ما بيننا صراع على امرأة، ويسرّها أن تكون هي هذه المرأة.. أن تكون الغانية التي يقتتل عليها الرجال، فهذا يؤكد لها أنها ما تزال قادرة على إغواء الرجال.

خرجت من الخمّارة مدفوعاً برغبة داخلية لا تقاوم في أن أمتلك امرأة، عزيزة اختفت تماماً. لو كنت على يقين أنها ما تزال في البيت نفسه لاقتحمته عليها. أنا مجنون وقادر على ذلك. عزيزة كانت حبيبتي. قتلوها لأنها كذلك. وقد تكون مبعدة، مطلّقة، حبيسة. حادث ما وقع لها. البحث عنها ضروري. لماذا لم أفعل ذلك منذ عودتي؟ الظروف هي التي حالت دون ذلك. وضعوني في ظروف قاسية. تآمروا علي جميعاً، شاركتهم كاترين الحلوة، لا بد أنّ عزيزة سمعت بها. عرفت قصتي معها، وعلمت بغرق زوجها. هذا هو السبب في هجراني. لو كانت عزيزة تحبني لاتصلت بي بأي شكل. لم تعد تحبني، عزيزة هجرتني. كاترين قاطعتني. شكّك فيّ البحّارة والريّاس.. الوحيد الذي تقدّم لانتشالي هو الريّس زيدان، ومع ذلك تبغددت عليه.. رفضت دعوته. تجاهلته. خرجت من الخمّارة مشاكساً.. هو لم يعاود الكرة. ترك الأمر لكاترين، هذه تستطيع إصلاح ما بيني وبينه. عليّ أن أفكر: لا ضرر في زيارتها! أزورها وأعرف ماذا تريد. أقول لها: «إنني أرغب في السفر.» وهذا أفضل شيء كيلا أبقى معها في مدينة واحدة بعد سفر زوجها. أنا لا أستطيع مقاومة رغبتي فيها.. ربما، ذات ليلة مجنونة، هاجمتها في بيتها واغتصبتها عنوة. هذا يحدث، إذا بقينا في مدينة واحدة سيحدث. الأفضل أن أسافر.. لا معنى لبقائي. الوحيد الذي يسافر في الخطر

هو الريّس زيدان. الحرب على الأبواب. قد تتوقّف المراكب عن السفر.. عندئذ تغلق الميناء. يستحيل الحصول على عمل.. الريّس زيدان وحده يستمر. هذا ما قيل عنه. أحب هذه الشجاعة فيه، هذا التحدي للخطر.. يجب أن أقابله، أكلمه على الأقل. أرى أي نوع من الريّاس هو. أي صنف من الرجال. كاترين تستطيع أن توصيه بي. أن تجمعني به. لا معنى لرفض دعوتها.. أزورها. يجب أن أزورها.. الآن أزورها. بغير تردُّد. خير البرّ عاجله.. إذا كان الريّس هناك تكون زيارتي مناسبة. أسأل عنه في البدء. أتظاهر أنني جئت لأجله.. أقول ذلك لكاترين الحلوة. ستبتسم ولو في داخلها. لعبة كهذه لا تجوز عليها. تدرك فوراً لماذا جئت وماذا أريد. فلتدرك.. هذا افضل. يختصر الكلام. يطرح الموضوع رأساً. إذا لم يكن زوجها في البيت كان ذلك أفضل. يكون في وسعي أن أتكلم معها بصراحة.

التبرير صار جاهزاً. عقلي من المرونة بحيث يهرع لنجدتي دائماً. يقولون العقل ولا شيء سواه. يحسبون العقل لا يخطئ هل صحيح هذا؟ عقلي الذي برّر لي عودتي على صواب إذن؟ الرجوع عن قراري بالمقاطعة صحيح؟ ألا يغشّني عقلي؟ محال! العقل لا يغش.. والذي كان يقول لي: « حكّم عقلك يا سعيد » ها هو سعيد يحكّم عقله. ماذا ترى يا عقلي؟ العودة.. ماذا؟ العودة..

انتهت الحيرة.. أعود إذن..

عدت..

بيت كاترين الحلوة نفسه. هذا بيتها. أعرف شبّاكها المطل على الشارع، الذين يتزوجونها يأتون إليها. تبقى هي في منزلها، هذا منزل الزوجية. إنه بيت الطاعة. من أعجبه يبقى ومن لا يعجبه يذهب. هذا أصول الشغل يا كاترين.. الحجر في مكانه قنطار. تبقين مكانك فلا تضطرين إلى مغادرته.. الذي يأتي «أجله» يرحل، سبحان الدائم.. هنا لا أحد يدوم.. في فراشك لا أحد يؤبّد.. أنت لا تقطّعين الرؤوس. لكن بعض الرؤوس تبقى. تترك أثراً.. أنت صيادة ماهرة يا عزيزتي.. على قدميك ترتمي الطرائد.. أنا طريدة.. أنا عصفور وأنت أفعى.. من شهرين، ثلاثة، أنت أفعى وأنا عصفور.. تنظرين في عيني ولو عن بعد. تجتذبينني كمغناطيس.. البحّارة، في القديم، تحدثوا عن جبال المغناطيس التي كانت تجتذب مراكبهم.. هناك كتلة مغناطيسية في جسدك يا عاهرة، أين هي كتلتك المغناطيسية يا حلوتي؟

الباب يقرع..

- من؟
- أنا.. سعيد.
- أهلاً وسهلاً..

- هل الريّس زيدان في البيت..؟
- الريّس زيدان لا يستقبل أحداً في البيت..
- عفواً ما كنت أعرف.
- لا بأس.. ها أنا أخبرك.
- غير موجود إذن؟
- وماذا تريد؟
- أنت طلبتني..
- ولماذا تسأل عن الريّس إذن؟

تلعثمت في الجواب. كنت غبياً حقاً. اكتشفت غبائي بسرعة. آتي اليها لا إلى زوجها. مع ذلك أسأل عنه.. حقاً ماذا أريد منه؟ أنت تعرفين يا كاترين.. أنا لا أريد منه شيئاً. ما جئت إليه أصلاً.. أسأل كي أطمئن. إذا كان في البيت أتدبَّر حجة للسؤال عنه. إذا لم يكن استرحت. أقصدك أنت لكن لا أدري، هل يحق لغريب مثلي أن يأتي إليك أنت؟

قالت كاترين وهي تنتشلني من حيرتي:

- تفضّل!

دخلت.. كنت على العتبة فاجتزتها. صرت في صحن الدار. لم أسمع صوتاً في الداخل. لا حركة في البيت. أعاود السؤال؟ أفضح نفسي؟ أظهر خوفي من زوجها إلى هذا الحد؟ هي التي طلبتني. هي التي فتحت الباب وأدخلتني..

لتحمل إذن مسؤولية ما يقع.. إذا كان الريّس موجوداً أقول له جئت لأراك.. أرجو ألاّ يكون موجوداً. أريد أن أكلّم كاترين على انفراد وأحدِّد موقفي من كل شيء.

جلست في الصالون.. عادت كاترين إليّ ومعها علبة التبغ. لم تبتسم ولم تعبس. اصطنعت لامبالاة قاتلة. قلت في نفسي: «انتهى كل شيء.. هذه ليست كاترين التي عرفتها. تجعل مسافة ما بيني وبينها. تشعرني أنها متزوجة، وأنني في بيتها الزوجي، وأن ما كان بيننا مضى.. علي أن ألتزم الأدب والجدّية الكاملة.»

سألتني في شيء من هزء:

- كيف صار وعدت إلينا؟
- أبلغتني أمي أنك تطلبينني..

قاطعتني:

- أمك مخطئة.. لم أطلبك أبداً..
- سألت عني..
- وهذا لم يحدث..
- هل كذبت علي امي؟
- أمك لا تكذب.. رجتني أن أدبّر لك عملاً.. وقلت لها: «إذا كان يريد مساعدتي فليأتِ إليّ..»
- ها قد جئت..
- أما أقسمت أنك لن تعود؟
- لم أستطع المقاومة..

اعتراف كامل. استدرجتني كي أعترف فاعترفت. لم أستطع المقاومة فعلاً. الكذب لا ينفع مع هذه المرأة المجرّبة. كانت على ثقة أنني سأعود.. مدّت لي الجسر بزيارتها لأمي.. تزعم أنها لم تطلبني. تركت لي الخيار في طلب مساعدتها. ألقت المسؤولية عليّ. حسناً. لقد جئت. أتيت أطلب رضاها لا مساعدتها. أنا مستعد أن أعمل مع زوجها. أريد السفر فوراً. يكفي ما تردّدت. لا بد من الحسم أخيراً. لا بد منه يا كاترين.

قالت كاترين في شماتة:

- لو كان والدك في موقفك ما عاد أبداً..
- لم آتِ لأتلقّى إهاناتك..
- هل أصبح ذكر والدك إهانة لك؟
- أنت تريدين ذلك..
- لا أريد شيئاً.. حسبتك مثله..

قلت في عناد ومكابرة:

- أنا مثله تماماً.. وعند اللزوم أعطيك البرهان..
- ماذا تصنع؟ ترحّلني من اللاذقية؟
- أرحل أنا..

أضفت بسرعة:

- ولكن احذري حين أعود..
- أتنوي إغراق الريّس الذي تعمل معه أيضاً..؟

زورتها. حدّقت فيها بحقد، بكراهية، برغبة في أن أنتقم منها.

- عدنا إلى الاتهام السخيف؟
- لماذا تخاف من السفر مع الريّس زيدان اذن؟
- هكذا..
- أنت تغار منه..
- ربما..
- وتخاف أن تواجهه؟..
- أنا لا أخاف أحداً..
- من يدري.. الخوف أنواع.. الغيرة نفسها نوع من الخوف..
- أنا لا أريد أن أكون أجيراً عند زوجك..
- لن تكون أجيراً بل ستكون بحّاراً.. نسيت أنك بحّار..
- مهما يكن.. لا أريد والسلام..
- ألا تثق بنفسك؟

ضقت ذرعاً بأسئلتها. أشعلت سيكارة. ملت إلى السفاهة. أشتمها وأشتم زوجها وأخرج. إذا خرجت هذه المرة فلن أعود حقاً. سأتعلم أن أكون مثل أبي. هي تذكرني به.. لا حاجة لذلك.. أعرف أني لست كأبي.. أنا لا أقوى على ترحيلك كما فعل هو.. أنا لا أملك رجولته ولا خبرته. أتمرّن بعد.. أتعلّم أن أحب وأكره.. حذار من كرهي يا قحبة.. قد أهدم هذا البيت على رأسك ورأسي. أنا لا

أخافك ولا أخاف زوجك.. لا تدفعيني لقتلك وقتله.

سألتها:

- وماذا تريدين مني؟

- أنت ماذا تريد مني؟

- لا شيء..

ضحكت ساخرة:

- لماذا جئت إذن؟

أحسست بشعور العداء يملأني، يخرج من فمي وأنفي وعينيّ. ضحكتها الساخرة آلمتني. إهانة بالغة، كاترين طلبتني لتهينني. لتردّني إلى حجمي. لتقول لي إنك لست إلاّ بحّاراً مبتدئاً، مفلساً، طائشاً، وإنك تصلح للتسلية، للاستخدام، للعمل عند الزوج في المرفأ، أو البحر، لكن لا تصلح زوجاً أو عشيقاً لامرأة خبرت الرجال، وعرفت أقدارهم.. ما جرى بيني وبينك كان نزوة، نزوة عابرة. كل إنسان يقع في مثلها، ويمارسها من حين لحين.

المرأة تكون قاتلة في جحودها، كاترين كانت جاحدة. نظراتها أنكرتني. لم تعد تتعرَّف عليّ. ما حدث بيننا نسي. ربما لم يقع أصلا. كاترين لا تتذكره. أو هي تتذكره ولا تأبه به. تعتبره حادثاً عارضاً كما في المنام. وحتى لو تم في اليقظة فماذا يعني؟ أي حق يترتب لك على امرأة أحبتك في يوم وأبغضتك في آخر؟ اشتهتك وانقطعت شهوتها؟ ممارسة الحق

عليها باطلة. استشعار السيادة عليها سخف. هي التي اعطت وهي التي تمنع. لا شيء بيننا. لا أريدك. كل شيء يتوقف على إرادتي. ندهتك فجئت، واطردك فتخرج. لست إلاّ كلباً في نظرها، وربما، حين ندهتك، كانت تنده كلباً، ألا تقول أمي: «الرجل كالكلب، تناديه المرأة فيقبل، وتطرده فيدبر»؟ أنت، يا سعيد، لست إلاّ ذكراً يتبع الأنثى في نظرها. الأنثى كفّت الآن، عليك أن تكف أنت أيضاً. لا فائدة من النظرات، لا فائدة من التلميحات، ولا فائدة، أيضاً، من التهديد والوعيد. حين لا تريد المرأة فليس من قوة ترغمها. يمكن أن تغتصبها، أن تفترسها، لكنك لا تقوى على إجبارها. إذا كفّت عن حبك، فلن يكون في وسعك أن تزرع الحب في صدرها من جديد بأيّ شكل.

استاذنت لطهو فنجان من القهوة. تركتني وحيداً وذهبت لاعداد القهوة. أعطتني فرصة للتفكير. «لماذا جئت إذن؟» سألتني. أقول لها جئت لأرى الريّس؟ ستضحك لبلاهتي. هذه كذبة مكشوفة. تعرف أنني جئت لأراها، وأن مجيئي بالنسبة إليها، معروف ومرصود، وكانت تنتظره، دون أن يخامرها شك.. منذ ذهبت تعرف أنني سأعود وأقف على بابها مستسلماً. حسناً! لماذا لا أقول الحقيقة إذن؟ في هذه الحال لا أقول شيئاً لا تعرفه. هذا أفضل من قضاء الوقت في التمويه..

عادت ومعها القهوة. قدّمتها لي وعادت إلى مجلسها.

تركتني أترشف قهوتي. جعلت تراقبني.. ترى إلى الكلام على شفتي، من المؤكد أنها رأت الكلام على شفتي!

أخيراً سألتني:

- هه.. لماذا جئت اذن؟ قل بصراحة..
- كي أراك.. هذه هي الحقيقة..
- تراني أنا؟
- نعم..
- ولماذا؟ ألم تقسم إنك لا تريد رؤيتي؟

فكرّت لحظة. رف ضوء خفيف على وجهها. الوجه غادرته الصرامة، ازدهت لاستسلامي. هذه امرأة تنشد استسلام الرجال. مقاتلة هي على جبهة الحب والجنس. مجبولة على السيطرة. حين تسيطر تحقّق ذاتها، الآن حقّقت ذاتها. انتشت. في عينيها يومض فرح الانتصار. يبدو أنها لا تصارعني. تصارع والدي في شخصي. لقد هزمها مرة. جعلها ترحل من مرسين. هو غائب الآن. من يدري متى يعود.. بانتظار عودة الأب تنتقم من الابن. تهزمه وتذله!

فجأة سألتني:

- تريد عملاً؟
- أريد السفر..
- في البحر أم في البر؟
- في أيها يتيسّر.. وبسرعة.

- لماذا؟

- هكذا.. لم أعد اطيق البقاء هنا.

- هل يضايقك أحد؟

- من يجرؤ؟

- إذن.. ما الداعي إلى السفر بهذه السرعة؟

- أنت!

- أنا؟

- أتتجاهلين؟

- أنا تزوجت..

- مبروك..!

أشعلت سيكارة. وضعت رجلاً على رجل. الحركة القديمة نفسها.. انكشفت فخذها قليلاً.. ومضت كالبرق. في البرق يرى البحّار الأفق. تنفرج الدنيا من حواليه. تتكشف الامداء.. أنا رأيت ما فوق الركبة فقط. جسم الفخذ ظل مستوراً. المدى المستدير. المتصاعد، المتّصل بالجذع، حجبته الثياب.

قالت كاترين بجدّية وحسم:

- سافر مع الريّس..

- كي أكون أجيراً عنده.!؟

- هذا ما أريده بالضبط.. يجب أن تكون معه..

- وما الفائدة.؟

- في المستقبل تعرف..

- تريدينني أن أبتعد؟

- وأن تعود..

- أعود من الخطر..

- إلى خطر أكبر..

- ما هو؟

- عشقي..

- لكنك متزوّجة

نظرت في عيني. نظرتها كانت مشتعلة، مفترسة، وبجملة واحدة أنهت الحديث: «العشيق لا يحلو إلا مع الزوج!»

* * *

- ٢ -

في ذلك الوقت، لم اكن أعرف أن كاترين الحلوة ستضيع كما ضاع والدي، وأنه سيكون عليّ أن أبحث عنها كما أبحث عنه..

خيّل إليّ، لعدة سنوات، أنهما التقيا، في مكان ما من الغربة، وأنهما يعيشان معاً، أو أنهما، على الأقل، يتزاوران، ويعرف أحدهما محل إقامة الآخر.

كان هذا استنتاجاً لا أكثر. كان تصوراً لا يستند إلى واقع، مبعثه أن والدي وكاترين ظلاّ، طوال فترة إبحاري في المحيطات، يرافقانني خطوة فخطوة، وعقدة فعقدة.

كان هو أنا. كان في ذاتي.. كان عائلتي، كان معلّمي ومثلي الأعلى. وكانت هي تملك عليّ نفسي، وتستثير ذكرياتي، وتربطني إليها بحبلين من فولاذ، كما تربط السفينة إلى رصيف الميناء، وتشدّني برغبتين جامحتين: الهوى والشهوة. وإذا كان الفراق بين الرجل والمرأة يوهن أسبابهما ويطامن من لهفتهما، ويصرف كلاً منهما إلى شأنه، فتخبو

النار، وتتبرّد العاطفة، ويتحوّل الحب إلى حنين، ثم ذكرى، ثم نسيان، وتفعل الأعوام فعلها، تغييراً في الشعر والوجه والقلب، فإنّ هذا الفراق، وقد دام طويلاً، لم يبلغ، في كل ما يحمله من خطر على المشاعر، أن يبدّل مشاعري، فقد كنت مولعاً بها، وكان ولعي شهوانياً، عنيفاً، مجنوناً، أحسّه ظمأً شديداً لا يرتوي إلا بها، ولا ينتسى إلا فيها، كأن لعنة ذلك الجسد الملتهب، التي لحقت برجال البحر، قد لحقت بي على نحو أكثر نفاذاً، فما استطعت، برغم كل الرذائل التي ارتكبتها، أن أنسى طعم الرذيلة معها، ولم أقوَ، رغم ما عرفت من جسوم، أن أدفع عني طيف جسمها، وأن أتخلص من نار عشقي له، ولهفتي إليه.

إنني في استواء الرجولة الآن، أبحر على متن سفينة شحن عابرة للقارّات، قاطعاً المحيطات، متجوّلاً في المدن، مكتشفاً المجاهل، متعرفاً إلى الناس، مصغياً إلى الحكايات، مبذّراً دخلي، متلفاً أعصابي، مخرّباً كل ما كان صحيحاً في جسدي، كأنني أنتحر ببطء، متعمّداً أن أهلك وأدفن في أعماق البحر، كي أسلو، وترتاح روحي بعودتها إلى بارئها.

لقد افترقنا ذات يوم، دون قبلات ولا دموع ولا تحية وداع. رحلت كاترين في طريق، ورحلت في طريق أخرى، وكل ما قالته لي، في آخر لقاء بيننا: «سأبحث عنه يا سعيد.. وقد نعود معاً إلى الوطن».

تراها وفت بوعدها؟ بحثت عنه؟ عثرت عليه؟ أم أن صالح حزوم كان في حياتنا أسطورة من أساطير البحر، انبثقت من أعماقه، وإليها عادت، دون أثر ولا خبر ولا رجعة؟.

لست أدري..

إنني على ظهر السفينة، والسفينة تمخر عباب المحيط، وضوء القمر غامر، والريح غريبة، والقلب يتلفّت، والنفس تحنّ، والمسافات بعيدة، والقادم يشقّ الماء الرصاصي، يفتح فيه ما يشبه الوادي، وعلى الضفّتين رغاء وزبد، وفي الأذن هدير المحركات، وخرير الأمواج، وبوح يسمع ولا يسمع، بيني وبين القمر الذي وحده يتقبّل صلاتي ونجواي.

★ ★ ★

يوم نزولي البحر، في هذه «التغريبة» الطويلة، كانت عشرة أعوام أخرى قد مضت ولم يعد والدي. انتهت الحرب العالمية الثانية ولم يعد والدي، جلت فرنسا عن سورية. قام الحكم الوطني، عاد المنفيّون جميعاً وهو لم يعد، صار في بيتنا شبه يأس من عودته. تزوجت أختي، كبر أخوتي، شاخت أمي، تراكم غبار الزمن على الذاكرة، قلّ الحديث عنه، تباعد، دخل في الذكريات، صرنا على يقين أنه غرق، مات في الغربة، ضاع، ومن العبث أن نسأل عنه، أو نتوقع دخوله علينا، فجأة، ذات يوم..

انتقل بيتنا من كهوف الميناء، قرب معصرة بيت نصري، إلى منطقة مجاورة تطلّ على المرفأ، وعلى بعض عنابره الحجرية، من الجهة الجنوبية، وتتصاعد مع الطريق الذاهبة إلى الكاملية، حيث السراي القديمة، وساعتها التي نعرف الوقت من دقاتها التعبة الرتيبة. بيتنا أفضل الآن، مؤلف من ثلاث غرف، ومجاز خشبي ذى واجهة زجاجية، تليه فسحة سماوية، مبلّطة، فيها دالية، ودراقة، وبعض الزهور، ودرج حجري يؤدي إلى السطح، حيث ينكشف المرفأ تماماً، بمراكبه وزوارقه ومواعينه وفلائكه وأنواره، وتأتي ضجته، وتبلغنا صافرات السفن، وأصوات الناس، وحيث، في الليالي المقمرة، تنسكب الأشعة الفضية فتغمر الدنيا بنور بهيّ، ويتراءى البحر رصاصياً، واسعاً إلى ما لا نهاية.

هذا السطح، المطلّ على الجهات الأربع، ومن حوله فضاء، وأبنية الميناء المنخفضة، وقربه شجرة ضخمة، تأوي اليها العصافير في الأمسيات، وهي تزقزق جماعة، وإلى شماله مدرسة الراهبات، بحديقتها الكبيرة- هذا السطح، كان ملاذى في ساعات الليل الاولى، وخاصة في الصيف، أصعد

إليه وحيداً، أجلس على حافته، مسائلاً البحر عن ذاك الذي غاب، عن والدي الذي اختفى في ظروف غريبة إلى أقصى حدود الغرابة.

كنت أتمنى، ما أن أصعد السطح، في الأصباح والأماسي، أن أكون رساماً. كان البحر يناديني بصوت مؤثر، غامض، أسمعه واضحاً، متناغماً، مموسقاً، يندرج في هدير الموج، يتناثر كالنغم في الفضاء، ينفذ إلى الأعماق، مستثيراً عواطفي القديمة، يوم كنت في الميناء، والسجن، وعلى المراكب، وفي اللّجج القصية، في مناطق عجيبة من البحر، تهب عليها الرياح الساخنة، ويتغير اتجاه الضوء. فيخيّل إليّ أنني أرى عرائس البحر، وأن بوسعي أن أتّصل بهنّ، وأقيم علاقة مع هذه المخلوقات الجميلة، التي يعقب ظهورها تغيّر المناخ وهبوب العواصف الجوية.

وحين كانت جلساتي تطول على السطح، تحت سماء واسعة، مضاءة، مكوّرة، كان تحوّل ما يطرأ على ذاتي، تحول فيه ندم على تلك السنوات التي انقضت عليّ في هذه الميناء، وعلى تلك الحماقات التي ارتكبتها فيها، وعلى إسرافي في الشرب والجنس ومعاشرة الأوغاد، وعلى نسياني ما كنت أزمع أن أكونه: بحّاراً ومناضلاً.

كان طيف والدي يعتادني، في عينيه نظرات زاجرة، وفي وجهه تعبير أسيف على ما صرت إليه، أنا ابنه الذي كان يقدّر أنه سيتابع طريقه، وكان يعدّه لمتابعة هذا الطريق، في كفاح مع الموج، وصراع مع أعداء الوطن، ومع أعداء البحّارة وعمّال الميناء الذين ضحى بحياته لأجلهم.

لقد أغوتني فخذ كاترين. هذا اعتراف لعين، كأنك تقول أغوتني سرّة. لا بأس. هكذا كانت الأشياء، وفي طيش الشباب، وسحر كاترين الحلوة، ونداء الجنس الذي يحرق دمي في كل ساعة، كانت فخذها هي العضو الذي فتنني فيها، ولربما، لو ينكشف لي، في ذلك اليوم، خلال اللقاء الاول، ما صار الذي صار.

أنا نادم الآن، الندم مدية تفري قلبي. الدم حكّة في جسدي، أكرهها وأستطيبها، فلولاه ما استعدت، على نحو مثير، كيف وكيف وكيف.. عشرات التفاصيل الصغيرة، من اللمسة إلى الصرخة، من الآهة الى أنّة اللذة والألم، ولولاه ما رأيتها، في خيالي المحموم، وهي عارية، والنهدان كوزان من بلور، والعنق أبيض، مرمر، والكتفان رمانتان من فضة، والفم فاغر.. وقلت لها: «يا كاترين! تخيفينني، أطبقي هذا الفم.. تريدين أن تأكليني؟» وأجابت: «يا ليت.. كنت أستريح. أنا امرأة شقية، أدمنت الجنس إدماناً، ولأجله تعاطيت قتل الرجال وقتل نفسي..

إنني حزين. الحزن حالة من الهمود. كالقهوة التي تفور وتفور، ثم تتراجع وتستقر في قاع الركوة. أنا قهوة فارت وهمدت. جسد داعر تلوى في أحضان امرأة داعرة. شلو رخو المفاصل، لشدة ما أعطى الليالي الحمر من جسده

ونفسه. أنا كتلة من تجربة خائبة، تحاول أن تعود إلى شكلها الآدمي، لا في البراءة التي لن تعود، لكن في محاولة للتخفّف من الإثم، ورمي الشيطان بالحجر واللعنة.

ومن عجب أنّ الشدائد لم تقتلني، الخطر لم يطو جناحيه الاسودين عليّ، الاعماق السحيقة، التي فتحها البحر تحتي لتردمني، إرتفعت عليها ونجوت، حتى كاد الريّس زيدان، ينادي بي ريّساً بغير رياسة، هو البحّار المجرب الذي لا يخشى الخطر والموت، ذو العينين المفترستين، والكف التي تقبض على الريح حين تقبض على الدفّة.

كان صقراً كاملاً. كان صقراً على متن صقر، هو مركبه «الأدهم» الذي سماه على اسم ابنه البكر. كان جديراً أن يكون قرصاناً أو يمثّل دور القرصان. ولكم وجدته ملائماً، في رجولته، في أريحيته، في شجاعته، لتلك المرأة الخارقة التي اسمها كاترين الحلوة. وحين كان تأنيب الضمير يشتد عليّ، كنت أسرّي عن نفسي بالقول: «هذه هي حياة البحر، وهذه هي حياة البحّار» وعندما كنت أحدثه عن الخطر، في سنوات الحرب، كان يضحك قائلاً: «الخطر، بالنسبة إلي، أنثى، وأنا لا أستطيع أن أرفض طلب أنثى» وقلت له: «يا ريّس! نحن في ظروف غير عادية» فأجابني: «البحّار لا شيء في الظروف العادية، مجرد رجل على ظهر مركب.. أما في الشدائد، والمخاطر، فإن البحّار يصبح أكثر من رجل..

قل يصبح مخلوقاً لا أعرف اسمه إذا شئت». وقلت في نفسي: «حرام أن تخون مثل هذا الرجل امرأة..» لكن كاترين الحلوة لم تكن امرأة، كانت أنثى صقر بدورها، كانت شيئاً لم يعرف اسمه بعد، وفي فعلها معي كانت تقنعني أكثر فأكثر أن ليس من امرأة، وليس من زوجة لأيّ بحار، لم تعرف رجلاً آخر، بالفعل أو التمني.

سألت كاترين يوماً: «إذا طلقك الريّس زيدان، تتزوجينني» ردّت بنبرة لا أثر للمراوغة فيها: «ومن اتخذ عشيقاً عندئذ؟» قلت: «ألا بدّ، مع الزوج، من عشيق؟» نبرت: «اسكت، أنت لا تعرف شيئاً.» خيّل إليّ، عندئذ، أن كاترين لا تحب الريّس زيدان، لكنها خانت الريّس عبدوش أيضاً، ومن قبل، يوم كان «الحبّابا» زوجها، خانته مع والدي، ثم خانت والدي مع الأتراك. هذه المرأة عجيبة، كأنها خلقت من صلب البحر، لتكون زوجة لرجاله، ولتخون رجاله مع رجاله أيضاً. إنها امرأة بحر، من مائه تكوّنت، وفيها ولدت، وعلى شواطئها عاشت، وربما، ذات يوم، تبعث الدهشة الكبيرة فينا جميعاً.

لماذا أسترسل في الكلام عليها؟ اي شوق إليها ما زال يعيش في صدري؟ لقد أحببتها، وكرهتها، لكنني كنت أسيرها. كانت جزءاً من حياتي البحرية في تلك السنوات الرهيبة، سنوات الخطر والموت والحرب العالمية.

أعترف. قاسم كان على حق. اندلعت الحرب كما توقّع تماماً. أنا فرحت بها. كنت قد بدأت العمل مع الريّس زيدان. كاترين أوصته بي. قالت لي: «كن قريباً من الريّس، لتكون قريباً مني». ونظر إليّ الريّس، عندما تعارفنا في مقهى الميناء، نظرة سابرة. قال للريّس عبد الحميد، وهو يشير إليّ: «سعيد رفض دعوتي في خمّارة توفيق.. تشوّف علي.. تأمل!» وأجاب الريّس عبد الحميد، الميّال دائماً للدفاع عني «العين لا تعلو على الحاجب يا ريّس.. سعيد لم يكن يقصد». قاطعه الريّس زيدان: «بلى، كان يقصد.. يريد إفهامي أنه ابن صالح حزوم» أضاف وهو يصافحني: «أحب الاعتداد لا البغددة.. والدك ما كان يفعل ما فعلت.. يتصرّف بشكل آخر.. أنا لا أعرفه، لكن البحّار الحقيقي يتصرّف بشكل آخر.. الرجل لا يرفض دعوة رجل».

لم أجب على هذا الكلام. لم أعتذر. جلسنا في حلقة الريّس عبد الحميد، وطلب مني أن أقصّ عليه كيف وقع الحادث الذي غرق فيه مركب الريّس عبدوش. كان ينصت باهتمام. يسأل عن هذه النقطة أو تلك. يريد تفاصيل دقيقة. كأنه يستجوبني ليعرف أنني لم أفرّ من المركب قبل الغرق، ولم أغدر بالريّس عبدوش. وقلت له، بعد أن رويت الحادث كما وقع، مغفلاً ما كان بيني وبين الريّس عبدوش من صراع وكراهية وتحدٍّ: «إنني أقول ما جرى، دون أن آبه لما قيل

أو يقال حول هذا الحادث.. أنا أرفض استدراجي للدفاع عن نفسي، لأنني أرفض الاتهام أصلاً. أنا بحّار ابن بحّار، وقد فعلت، خلال العاصفة، ما هو فوق طاقتي لانقاذ المركب وللبقاء مع الريّس حتى اللحظة الأخيرة، واقترحت عليه أن يغادر هو وأبقى أنا، لكن الريّس عبدوش رفض.. وهكذا كتب علي أن أصارع الأمواج وأنجو، وكتب عليه أن يغرق مع المركب».

تكلمت بهدوء، بحسم، دون مبالاة بكل من حولي. كأنني كنت أنتظر لحظة كهذه لأقول ما في قلبي. ابتسم الريّس زيدان وقال: «لا تزعل يا سعيد. أنا لا أمتحنك. ولا أتهمك، بل أحببت أن أسمع القصة من فمك، وقد سمعتها، وأحييك، وأعتبرك، منذ الآن، من بحارتي.. وسنلتقي غداً في الميناء (وضرب لي موعداً) كي نتفق على كل شيء، هل أنت موافق؟»

أجبت:

- موافق..

نهض الريّس زيدان وقال:

- على خيرة الله إذن..

في الغداة التقينا. اصطحبني إلى المركب. عرّفني على نائبه والبحّارة. قال لي كلاماً طيباً، لا تودّد فيه، ولا تعاليَ أيضاً. كان ريّساً ملء ثيابه. طلب مني أن أبقى في المركب

منذ اليوم، أو أنزل إليه في اليوم التالي، وأوكل نائبه بي، وقال له مداعباً: «هذا المهر البحري يحتاج إلى تضمير، لكن البحر كفيل بكل شيء.. عرّفه على المركب جزءاً جزءاً.. دعه يصير منّا حقاً».

سافرت، بعد ذلك، على مركب الريّس زيدان بغير مشاكل، ودون صعوبات. كنا نعمل على خط اللاذقية بيروت حيفا. ننقل القمح والبرتقال والاسمنت ومواد أخرى. وكان المركب، كعادة المراكب تلك الأيام، يصطحب ركاباً معه، فالسفر في البحر إحدى وسائل النقل، برغم ما فيها من مشقّة وخطر. وكنت، بحكم الخبرة البحرية التي اكتسبتها من الإبحار مع الريّس عبدوش، أعرف تماماً ما عليّ أن أعمل، وأقوم به بلذّة وحماسة. لقد بدّل البحر من حالتي النفسية. استعدت لياقتي، اندمجت بما حولي. انتفى قلقي. بكلمة: وجدت نفسي حيث يجب أن أكون. غير أن الريّس زيدان، كالريّس عبدوش، كالريّاس الآخرين، كان في المركب غيره على البرّ. هنا هو الربّان. فوق ذلك هو صاحب المركب. قوّته التي يعتّد بها، مستمدة من شعوره بأنه السيد، وكلنا من حوله أجراء. لكنه كان يدعوني إلى قمرته، ويسألني عن حالي وعملي وعما إذا كنت بحاجة إلى شيء. وواضح أنه كان يريد اصطناعي، وكانت فتوّتي، واندفاعي باتجاه المغامرة، يرضيانه، إضافة إلى أنه آمنٌ من جهتي، ناعم البال، لأن سلطته وفحولته كانتا تضعانه فوق الشك بأن ثمة امرأة يمكن

أن تخونه في هذا الوجود، خاصة إذا كانت زوجته، وفي بيته.

وكنت أجتهد في العمل. أبذل أكثر مما هو مطلوب مني. أعوّض عن أيام العطالة والكسل، ورغبة داخلية تحضّني على الإقدام، إرضاء للريّس زيدان، الذي أنزل عني متاعي ببساطة، وضمّني إلى بحارته غير آبه لحادث الغرق الذي كاد أن يشوّه سمعتي. ومع أن عملي على المركب كان فترة اختبار، وعليّ أن أصبر، وأقدّم البرهان على جدارتي، قبل أن أنتزع الاعتراف بي من زملائي، والثقة من ريّسي، فإن مجرّد كون صالح حزوم والدي، كان يحرّرني من كل عقدة نقص أو دونية أمام أيّما إنسان، حتى ولو كان الريّس زيدان نفسه. لم أفقد أبداً عنجهيتي. وإذا كنت، بطبعي، لا أميل إلى التشوّف، فإن إحساساً ما بالتفوّق يتبدّى في نظرتي تجاه زملائي الذين تخلّوا عن كثير من عناصر الاستقلال في شخصياتهم، تزلّفاً للرجل الذي يعملون معه. شعور واحد كان يعذبني، أو أنه عذبني في البدء، ثم أصبح عادة، وأصبحت خيانة الريّس زيدان مع كاترين الحلوة لا تثير تبكيتاً في ضميري، ما دامت كاترين هي التي تريد ذلك، وتصرّ عليه، وتحتال له بأساليب شيطانية ما أن نعود من رحلة ونرسو في اللاذقية. كانت الأشياء، بالنسبة إليها، مألوفة جداً، طبيعية جداً، تختلف نظرتها إلى الأمانة الزوجية عن نظرة الكثيرين، وترى أن من حقها أن تعيش

الحياة، بعد أن عذبتّها هذه الحياة طويلاً، وتسخر في أقوالها وحركاتها من مواضعات المجتمع، وتبدو وكأنها تريد أن تنتقم منه.

بقينا كذلك حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية. كان إعلانها، بالنسبة لمن في الميناء، يقابل بغير اكتراث أولاً. يريدون، نكاية بفرنسا، أن تشتعل الدنيا، كي تحترق بها عدوّتهم. لكنهم، بعد شهور، ذُعروا لإقفال البحر، وتوقّف الحركة في الميناء توقفاً كاملاً. لا سفن تأتي، ولا سفن تروح، لا صادرات ولا واردات، والبطالة تتّسع والتذمُّر يعلو ويزداد. انحصر النقل بالمراكب. هذه كانت تنتقل بين الموانئ القريبة، سالكة خطاً بحرياً قريباً من الشواطئ، حاسبة أنها بمنجاة من الخطر، ما دامت غير تابعة لأيّما دولة من الدول المتحاربة. لكن سلطات الميناء، وقد صارت عسكرية فرنسية منذ قيام الحرب، حذّرت المراكب من الإبحار، ثم ضيّقت الخناق عليها، تشدّدت بالتعليمات، والتحريات عن البضائع، واستجواب الريّاس عن رحلاتهم وصلاتهم في البلدان الأخرى، وانتهت إلى منع المراكب، لأسباب أمنية، من الإبحار، إلاّ ما كان بين الموانئ السورية اللبنانية، ولفرض نقل الحبوب والمواد الغذائية، وما يحتاجه جيش الشرق الذي كان جيشاً فرنسياً، متخلِّفاً جداً، أنشيء في الأصل لخدمة الاحتلال، ومقاومة كل تمرد في البلاد.

بعد ذلك تسارعت الأحداث، تداخلت. قامت قيامة العالم. ألمانيا تزحف على فرنسا. سقطت باريس. شماتة!. قال الريّس عبد الحميد في مقهى الميناء: «وما من ظالم إلاّ سيبلى بأظلم» هذا الكلام لم يعجب قاسم. قلت له مستغرباً: «ولكنّها فرنسا.. عدوتنا» أجاب: «ألمانيا عدوّ أفظع.. النازية» الكلمة الاخيرة لم أفهمها. ما معنى النازية؟ لم يكن لقاسم من الوقت ما يسمح له أن يشرح.. قابلني في الطريق.. لم يتوقف إلاّ قليلاً.. كان مشغولاً، قلقاً، بخلاف ما عرفته من هدوئه.. ماذا هناك يا قاسم؟ تساءلت.. وجاءني الجواب بعد أيام: اعتُقل قاسم.. الفرنسيون في سورية ولبنان انحازوا إلى جانب حكومة فيشي. صار الجنرال دانتز قائداً لقوات الاحتلال. هواه مع هتلر. برلين وفيشي. ألمانيا تحقّق الانتصارات في أوربا. الريّس عبد الحميد يوزّع القهوة فرحاً.. جماعة من رجال الكتلة الوطنية أظهروا تعاطفاً صريحاً مع ألمانيا. انقسمت الكتلة. سمعت لأول مرة بمعتقل «الميه وميه» بعض الزعماء سجنوا هناك. صرنا نصبح على نبأ ونمسي على آخر. الميناء تقفر أكثر فأكثر.. السلطة تطارد اليساريين وتقمع النشاط بين العمّال. ظلام. المدينة غرقت في ظلام. كل النوافذ والمصابيح طُليت بالأزرق. لم تسلم حتى مصابيح السيارات.. اختفت المواد الغذائية. خاف الناس المجاعة. تذكروا الحرب العالمية الأولى وأيام السفربرلك. ومع هذه المصاعب، جاءت ضربة غير متوقعة: منع سفر

المراكب إلى شواطئ فلسطين ومصر، وكل ميناء تقع تحت سلطة الانكليز.

اختلطت عليّ الأمور. لو كان والدي موجوداً لفهمت ما يجري. لو لم يعتقل قاسم لفسَّر لي هذه الحزّورة. كانا، كلاهما، ضد فرنسا.. الآن اختلف الأمر. قاسم لم يفرح بسقوط باريس.. لماذا يا قاسم؟ ماذا تريد؟ مع من أنت؟ قيل لي إنه مع «المسكوب» قيل لي إنه مع الحلفاء.. من هم الحلفاء؟ فرنسا صارت اثنتين.. سمعت باسم ديغول لأول مرة.. فرنسا الحرة.. اللاذقية ضدها. ضد الانكليز، مع هتلر.. لا.. ليس تماماً، في المدينة صراع، في البر صراع، في البحر صراع.. الشواطئ غدت غير آمنة.. ظهرت الغواصات الألمانية. غرقت سفينة يونانية. غرق مركب. طائرة ألقت قصاصات ورقية على المدينة: «لا تصدّقوا ما يقوله الحلفاء. هتلر يحرّر أوربا» البحر أقفل تماماً. غواصات انكليزية شوهدت على الشاطئ، الناس يسمعون، في بعض البيوت، بعض المقاهي، في أماكن سرية، «إذاعة برلين» وفي اليوم التالي تنتشر الإشاعات.. كل شيء يدلّ على انتصار هتلر.. إذا انتصر هتلر انتصرنا.. هذا غير صحيح.. صحيح.. غير صحيح.. قريباً تفرج.. الحرب تنتهي قريباً.. مخطئون.. الحرب طويلة.. المثل يقول: «الانكليز إذن بحر». هؤلاء أسياد البحر، فشروا.. لا أسياد ولا من يحزنون.. سافروا إذن.. لماذا لا؟ بعض المراكب تسافر..

صار الريّس زيدان مندفعاً الآن، يتكلم عن ميوله السياسية دون خوف.. يناصر ألمانيا علناً، ينفق الأموال الطائلة، يساعد البحّارة العاطلين عن العمل، يقوم بأعمال لا يخبرني عنها. وحتى البضائع التي يشحنها على مركبه لا أعرف إلاّ أنها صناديق، لا أدري ما بداخلها. وقد أصبح يسافر كثيراً، إلى الداخل هذه المرة، دمشق، بيروت، حلب، ولا أعرف من يقابل، وبمن يتصّل، ولا ماذا يفعل، أو بأي شيء يتاجر.

كنت حيادياً تجاه نشاطه كله. كان والدي ضد فرنسا، وأنا كذلك.. كان والدي بحّاراً، وها أنا أعمل في البحر.. ما عدا ذلك، فقد كان لقاسم تأثير عليّ لم أفطن له في وقته.. كانت حالة العمال بائسة، وقد ازدادت زمن الحرب بؤساً. عمّت البطالة، وبدأت أزمة الكاز والسكر والأرز، وباختصار، بتنا نعيش ظروف الحرب دون أن نراها.

وكان الجوّ، في الميناء. قد تبدّل تماماً. الشكوك القديمة انتفت نهائياً. أخطأت حين فكرت بعدم السفر. الخطأ وقع في السفر، والصواب يأتي من السفر. الكلام لا يفيد. لو قلت للبحّارة ولكل من في الميناء إنني أنا، ابن صالح حزوم، لا يمكن أن أغدر بالريّس الذي أعمل معه، ولا أن أفرّ من مركب أنا بحّاره، ما صدّقني واحد منهم. الصمت، في هذه الحال أجدى. صمتّ.. لم أفعل ذلك عن حكمة بل عن حيونة. ما عرفت كيف أقول. إتهام كاترين الحلوة صعقني.

شكّكني بنفسي. لعبت بي لعبة ذكية. هي وحدها تجيد مثل هـذه الألعاب الذكيّة. كانت تعرف السرّ. انطلاقاً منه اتهمتني. فتحت دوامة تحت قدمي. كنت أغرق وكانت تبتسم. كانت تنتقم. تروّضني على مهل. تنزع مني كل أسلحة المقاومة. وعند اللزوم، بعد ذلك، انتشلتني من الغرق. مدّت يدها وسحبتني من تيار الدوامة. أرسلتني مع الريّس زيدان. أعادت اعتباري في الميناء والبحر. سفرة، سفرتان، ثلاث، وتأكد الناس أنني لست شؤماً على أحد، ولا أجلب متاعب البحر لأحد، وأستطيع، في الوقت المناسب، أن أواجه الخطر بجلد تمساح.. الأحداث أثبتت كل هذا. أقوال الريّس زيدان عني حملت للأحداث توكيداً قاطعاً. من جديد ظهرت بثياب أبي، ثياب البحر، راسخ القدم في الميناء.. شاله الرصاصي صار عصبة لرأسي. خمّارة توفيق صارت مكاناً لسهري. أصبحت أقف في الميناء متحدياً، وأصبح الآخرون يهابونني. وأفاد الريّس زيدان من فتوتي هذه. جعلها قوة إلى جانب قوته. عمّدني بحاراً كاملاً. بتّ أستطيع، لو أردت، أن أستثمر كل هذا لحسابي في الميناء، لكن ذكرى والدي كانت تحميني من الرذيلة، تردّني إلى سواء السبيل كلما حدت عنه.

الخلاف الوحيد الذي وقع، دون أن يتطور، كان موقفي من السلطات الفرنسية؛ الريّس عبد الحميد، المحبّ لهتلر، صار مهووساً «بفيشي». كان الانحياز إلى ألمانيا يلقى صدى

طيّباً عند الناس، يعد وطنية، يباهي به صاحبه، كانوا يشتمون الحلفاء، وقلت رأيي صراحة: «أنا ضد فرنسا، ولا أحب ألمانيا». قاسم، قبل أن يعتقل، قال لي كلاماً حول هذا الموضوع، لم يبق منه في رأسي إلا التالي: «لو كان والدك هنا لوقف ضد ألمانيا وفرنسا حتى النهاية» وكيلا أخون والدي وقفت ضد فرنسا وألمانيا، وكدت أضرب، لولا أنهم كانوا يعرفون قوتي، ويعرفون أن الريّس زيدان، مهما كان الأمر، يسند ظهري.

لكن أحداثاً غريبة لم تلبث أن وقعت. دخلت قوات فرنسا الحرة سورية ولبنان. خرجت منها فرنسا الأخرى، اختلطت الأوراق من جديد. أعتقل بعض الزعماء، قبض على الريّس عبد الحميد، جاء حساب الريّس زيدان ومركبه.. ففي إحدى سفراتنا على طول الشواطئ باتجاه مصر، نَسفت غواصة مجهولة (وقيل إنها انكليزية) المركب، قُتل الريّس زيدان وبعض بحارته، نجوت مع الناجين. عاقبوا الريّس زيدان لا أدري على ماذا.. لم أكتشف سره حتى الآن. لكن الحزن عليه في الميناء كان كبيراً، اعتبر واحداً من الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل الوطن، ووزّع أنصار ألمانيا منشوراً بهذا المعنى في أسواق وأحياء المدينة كلها.

لم تستطع كاترين الحلوة، هذه المرة، أن تتهمني بقتل زوجها. الذين نجوا كانوا شهوداً.. وخبر غرق المركب،

منسوفاً من قبل غواصة مجهولة، نشرته الصحف، والسفينة الصغيرة التي التقطت الناجين وحملتهم إلى اللاذقية قدّمت تقريراً أوضحت فيه كل شيء، والبحارة قالوا ذلك في إفاداتهم.

كان من الطبيعي أن تتزوجني كاترين الحلوة بعد الريّس زيدان. أنا رجلها الوحيد الآن. لن تستطيع أن تتذرع بأيّة ذريعة تبرّر رفضها. إنني أريدها وأخافها. فوق عتبتها علّقت رأساً جديداً من رؤوس أزواجها. وإذا تزوجتني فستعلّق رأسي قريباً إلى جانب تلك الرؤوس. فكّرت بوالدي: «ماذا يقول إذا عاد ووجدني قد تزوجت كاترين الحلوة؟ كيف تتعاطى هي مع الأب العشيق والابن الزوج؟ أيّة مشكلة تخلق للعائلة؟ ماذا يقال بهذا الزواج بين امرأة في الأربعين وفتى في حوالي الثلاثين؟ أيّة قرون سأحمل في المستقبل؟».

كاترين حسمت الموقف. أفهمتني منذ أول لقاء بها، أن زواجي بها مرفوض. قالت إنها استبعدته من أول لحظة «أنت صغير بالنسبة إليّ».. أخفت السبب الحقيقي، وهو أنها لن تتزوج بحّاراً فقيراً مثلي، لا مركب ولا ثروة أو مكانة له. حتى كوني عشيقاً بات مشكوكاً فيه. في الفترة الممتدة بين زوجين، تريد أن تكون غير مقيّدة بالتزام تجاه أحد. تعرف، في هذه الفترة، أن تتظاهر بالحزن. أن تحافظ على استقلاليتها ومكانتها. تلجم، من أجل ذلك، رغبتها

الجنسية نفسها. ترفض أن تخضع لأيّما شيء خارج حساباتها. ليست مغرمة بأيّما رجل، إلى درجة المجازفة لأجله. تضبط أعصابها. تتصرّف كما ينبغي.. تضم ما ترك لها الزوج الأخير إلى ما تركه الأزواج الذين سبقوه. لا تتحدث عن ثروتها ولا عن أشيائها الخاصة. الناس قدّروا أنها أصبحت غنية، لا أحد يعرف الحقيقة. سلوكها الحياتي لا يتبدل، لا تنفق على عشيق، لا تطلب شيئاً من عشيق. لا تتاجر بجسدها بالمعنى المتداول لبيع الجسد. ارتفعت عن هذا المستوى، زمن «حبّابا» مضى. تختار من تريد، بكل حريتها. هذا هو السبب في أنها تصرّ على أن تبقى طليقة اليدين.

لم أعاند، من جهتي، ولم أصرّ على الزواج. لا مصلحة فيه للطرفين، أنا لن أحمل قروناً في أول زواج، أفضل أن أبقى عشيقاً، الهجران أفضل من القرون، عزيزة أفضل من كاترين. كانت تحبني حقاً. لن أنساها أبداً. قد ألقاها ثانية. إذا كانت حيّة سألقاها، إذا كانت في اللاذقية سألقاها. كانت لذيذة، دافئة، غير خبيثة، لم تكن لها علاقاتها، ولا حساباتها، كنت الوحيد في حياتها. هي لا تفعل مثل كاترين، لا تعلق رؤوس الرجال على عتبة بابها. لا تقترف القتل دون إراقة دماء. تعرف أن تحب وأن تكون محبوبة.

★ ★ ★

وهكذا مضت الأيام.. مضت سريعة، لم أشعر بها.

أطلق سراح قاسم بعد أن بقي في السجن سنتين، قضاهما في معتقل «المية ومية». أصبح حراً تماماً الآن، يذهب ويجيء ويسافر. الجنرال كاترو، منذ دخول قوات ديغول إلى سورية، أعلن أن فرنسا التي يمثلها تمنح الاستقلال لسورية في نهاية الحرب. قرن أعلانه بإعادة مجلس النواب، بتشكيل حكومة وطنية، بإيقاف العمل بقانون الدويلات الادارية، تغيّرت السياسة. كانت فرنسا ديغول تريد استرضاء الشعب السوري، وبريطانيا تعمل لزحزحة فرنسا والحلول محلها في سورية ولبنان، وقد شرح لي قاسم كل هذا، وقال إنه في وسع والدي أن يعود الآن.

كنا قد التقينا في مقهى الميناء. عاد قاسم يحوم حول العمّال والبحّارة. وجدت الرقاقة اللحمية بين إصبعيه كما كانت. حسبت أنهم قطعوها في السجن. كنت قد سمعت أن الفرنسيين يشوِّهون السجناء. نفى قاسم ذلك، قال: «السجين القوي يظلّ قوياً. لا يتغيّر ولا يتشوّه. وماذا إذا شوّهوه؟ كل تشويه، في سبيل الوطن شرف. الأشياء الصغيرة تصنع الأشياء الكبيرة. ما فعلته أنت، ما فعله والدك قبلك، ما فعله الآخرون، كل هذا جيد. مبيت ليلة واحدة في مخفر، الخروج في مظاهرة واحدة، توزيع منشور واحد، كله مفيد. كل صوت احتجاج، كل كلمة مقاومة، كل فعل ضد المحتل، يؤدّي، مستقبلاً، إلى نتيجة.. أنظر، فرنسا ستجلو عن بلادنا.. هي أعلنت ذلك بنفسها.»

- ومن يضمن جلاءها؟
- نضالنا..
- ألم نناضل في الماضي..؟
- أحسب أن الجو سيتغير الآن..
- كيف؟
- سيكون للوضع الدولي الجديد تأثيره..
- لكن ألمانيا ما زالت تحتل أوربا.. روسيا نفسها..
- ألمانيا تتراجع.. الوضع تغيّر.. انتقل الاتحاد السوفياتي إلى الهجوم.

تحدثنا، بعد ذلك، في الوضع الداخلي، هو الذي جرّني إلى هذا الحديث.. لم أكن أفهم كل ما يقوله، خيّل إليّ أنه يعرف كل صغيرة وكبيرة مما يجري في سورية والعالم. أين يقرأ ذلك كله؟ قال إن الكتلة الوطنية هي التي ستفوز في الانتخابات. لا قوة منافسة لها الآن.. والفرنسيون يريدون ذلك.. سيلعب جميل مردم دوراً ما لحسابهم. باختصار، نحن أيضاً، في سورية ولبنان، سنخوض الانتخابات..

سألته مندهشاً:
- من أنتم.؟
- حزب العمال والفلاحين..
- اليساريون؟
- نعم..
- وتنجحون؟

- ما أظن.. يكفي أن نعلن رأينا.. أن نقدّم برنامجنا للناخبين..

سرّني أن يكون قاسم فرحاً هذه الأيام. تفاؤله بخروج فرنسا، عند انتهاء الحرب العالميّة كان واضحاً. كان كثير النشاط، كثير التردد على المقهى، يناقش، يجادل، يوزّع صحيفة الحزب، يتحدث عن المعارك الحربية، يقول إن ألمانيا في طريقها إلى الهزيمة. ومرة شبّهها بالوحش الجريح الذي ينسحب إلى وكره، وقد أعجبت بتشبيهه هذا، لكنني في اليوم التالي، قرأته في إحدى الصحف فبدا لي أنني اكتشفت سر قاسم: يقرأ ما يقول، وليس الكلام كله من قينه كما ظننت.

بعد شهور، ذاع في مقهى الميناء خبر غريب: كاترين الحلوة راحلة. تزوجت ريّساً يونانياً، وستسافر معه إلى بلاده. كان الخبر صدمة لي. أحسست أن شيئاً من ماضي يغور في الأرض. كنت في ذاتي، لا أدري لماذا، أربط بين رجوع والدي وبين وجود كاترين في المدينة. كانت مبعثاً لأمل خفي، يعيش بين ضلوعي، مؤداه أن هذا الوالد سيعود يوماً، إن لم يكن من أجلنا، أو من أجل ذلك النضال الذي تسبّب في رحيله، فلأجل كاترين الحلوة التي أحبها وما يزال. كان هو والدي، وكنت أفهمه. ذلك البحّار نقل حديثه إليّ كاملاً، أكدّ أنّه أحب كاترين. وأنه عاد إلى البحر، في مرسين، كي يلتقيها ثانية في مكان آخر. ربما

كانت تفعل مثله. في انتقالها من رجل إلى رجل، تحاول خداع نفسها، مشاغلتها عن ذلك الغائب الذي تنتظر. قالت لي: «لو عاد لكنت له حتماً» تراها، وهي تعتزم الرحيل، قد يئست من عودة صالح حزوم؟ تذهب هي نفسها للبحث عنه؟ وأنا، بعد كل شيء، أحبها. خنت والدي لأجلها. خنت زمالة البحر، ورّطت نفسي إلى حد الجنون. هجرت عزيزة. صارعت الموج. كنت مستعداً لدخول أيّة معركة كي أبقى عشيقها، كي أكون قريباً منها. والعائلة، أيام السجن، وعند انتقالنا إلى اللاذقية، وفي كل الظروف الصعبة، كانت تعرف أن كاترين إلى جانبها، وأن لها، في هذه المدينة، من تلجأ إليه.. الآن سينتهي كل شيء، إذا رحلت كاترين فسيحدث فراغ رهيب. قنوط من عودة الوالد، فقدان المرأة الحبيبة، انعدام سند العائلة في وقت الشدة.. وكان ذلك كله مؤلماً، مؤلماً لنفسي بشكل غريب.

ذهبت إلى توفيق الخمّار. كان هذا أيضاً، بعد موت الريّس زيدان، قد فقد الحماية. صار رجال الأمن يكبسون خمّارته يومياً. شكّوا في أن أنصار ألمانيا يأتون إليها. داهموا المحششة. أوقف توفيق، لأيام قليلة، عدة مرات. مع ذلك بقي هواه مع ألمانيا. إنه لا يعرف لماذا هو كذلك، لكن الرجال الذين يبغضون فرنسا وبريطانيا يحبون ألمانيا، وهو يفعل مثلهم. يستمع هؤلاء إلى الراديو عنده سرّاً، يتحدثون بغير تحفظ. كانت الخمّارة منيعة يوم كان الريّس زيدان

- ماذا؟

أخذ جرعة كبيرة. مسح فمه وشاربيه بقفا يده. ومضت عيناه ببصيص واهٍ من عزم.. من بقايا عزم غارب، وتدلّى رأسه قليلاً إلى امام. وشيء ما في جسده المعروق ارتجف.. قال:

- أفكر أحياناً بارتكاب جريمة ودخول السجن.. هناك، في شيخوختي، أجد ناساً حولي، وعندما أموت لا بد أن يشفق عليّ بعضهم، أن يمسك يدي، يسقيني بلعة ماء، يشعل فانوساً أو شمعة كيلا أموت في الظلام، يخبر عني كي يأتوا ويدفنوا جثتي. هذا أفضل من البقاء وحيداً في القبو، والموت فيه، ككلب متشرّد، وترك جثتي، عندما ألفظ الروح للقطط.. أنا أخاف القطط، أخاف هذه النهاية يا سعيد.
- لكنك ما تزال بعافية.. لم تصبح عاجزاً.. أطرد هذه الأفكار السوداء..
- لا أستطيع.. تهاجمني الأفكار ما أن أعود إلى قبوي فاستلقي في فراشي وسط الظلمة.. بتّ أخاف الظلمة.. لذلك أترك الفانوس مشتعلاً..

تفرّست فيه من طرف خفي، كان يعاني ألماً داخلياً. كان تحت وطأة أزمة نفسية، يخاف النهاية.. يشعر أنه وحيد، منبوذ، مسافر في درب وعر، ورفيقاه المطر والليل، ووحوش لا يدري متى تنقضّ عليه. رثيت لحاله، سمعت

سقوط شحاطتـه من قدمه. تراخت قدمه.. يوشك أن يسكر، بل هو سكران منذ الآن. بدأ الشرب قبل أن آتي، لا أدري متى.. معروف أن توفيق بالوعة خمر.. كي يسكر يحتاج إلى زجاجة كاملة وحده، من يدري كم شرب حتى الآن.. بأيّة كلمات أعزّيه؟.

- كلنا حولك يا توفيق.. لك أصدقاء كثيرون بين البحّارة الزبائن وأولاد البلد.. هيا.. لنتحدث في شيء سارّ..

قاطعني..

- ليس قبل أن تجيبني.. أسألك: هل ما زلت حاقداً علي بسبب تلك المعركة؟

- ولو يا توفيق.. نحن أخوان..

قلتها ونهضت فقبلّت رأسه..

- نحن لسنا أخواناً... لا أريد ذلك.. أنا من صنف راغب درويش.. أما أنت فمن المجاهدين.. ألم تقل إنك سجنت من قبل فرنسا بسبب تلك الجثة اللعينة؟ أم تراك كنت تكذب علي؟

- بلى، سُجنت..

- إذن أنت أفضل مني.. عملت شيئاً على الأقل.. وغداً تتزوج، وتنجب.. ويصير لك بيت وحيط.. أنت شاب.. المستقبل أمامك. أما أنا.. (وارتجفت شفته) فقد انتهيت.. أنتـ... هـ... يـ.. ت..

الآن لا شيء، هو أيضاً يفكر في اغلاق الخمارة والرحيل، يقول إن له طريقين: احدهما قصير، يفضي إلى السجن، والآخر طويل لا يدري أين ينتهي به. كان الآن خائب الأمل، مثل جماعة المانيا، وكان يسمع منهم عن انكسارات هتلر ويغتمّ.

قلت لتوفيق:

- أعطني شيئاً من الخمر.. أريد أن أشرب حتى أنسى.

- ما بك؟

- لا أدري..

- كذبت.

تفرّس في وجهي وسأل:

-هل حننت إلى السفر؟

- الآن لا سفر..

- الآن الحرب..

وقذف شتيمة، رهيبة. أضاف:

- هل تلتقي راغب درويش؟

هذا المهرّب العالمي؟

- إياه. لو رأيته سأعرض عليه أن أشتغل معه. أنا بحّار ومهرّب وخرّيج سجون.. ملائم من كل النواحي.. أغوص على الإبرة في قاع البحر وأستخرجها.. سأكون مفيداً جداً له.

فكرت: «خيبة توفيق كبيرة. وحده لا يستطيع الوقوف

ولا الصمود. يريد من يحميه، من يكون ريّسه أو معلمه.. إنه ضائع.. في السجن ضائع، وخارج السجن ضائع.. ما هدف توفيق من الحياة؟ »

سألته:

- إذا انتهت الحرب وعاد السفر.. تعود إلى البحر؟

كان يجلس الآن قبالتي. كان جليسي وأنيسي، كان يشرب بجرعات كبيرة. خمّارته شبه مقفرة. حتى الصيادون شمّوا رائحة الخطر وابتعدوا. قبل أن يجلس إليّ قام إلى الباب وأغلقه. «لا أريد أحداً، قال، أنا وأنت يكفي.. أريد أن أتكلم معك من القلب.. هل كان الريّس زيدان رجلاً أم لا؟ »

- كان..

- وهل كان الريّس عبدوش رجلاً أيضاً؟

- نعم، كان..

- من سويّة والدك.؟

- تماماً..

- أنظر.. أفضل بحارتنا يموتون أو يغيبون، كيف تريدني أن أعود إلى البحر؟ مع من أعود؟ ألا تراني شخت؟ آخرة البحار الفقير، المقطوع مثلي، كآخرة بنت الماخور.. هذه لا تجد من يقبلها حتى في المبغى.. تكون قد انتهت، لا شيء يغري فيها، ولا شيء يطلع بيدها.. لم يبق أمامها سوى الموت.. والموت لا يأتي.. أتعرف؟

ارتجف كله، تساقطت الدموع على ذلك الوجه الضامر، المتهدّل الشاربين.

تركته يبكي، كان البكاء مفيداً له. هذه الدموع كانت مخزونة في صدره منذ زمن بعيد.. كان هناك، بين جنبيه، كيس من الدموع، انفجر الآن.. إنه يبكي ماضيه.. ينبش حياته ويستعرضها.. ماذا في هذه الحياة مما يعزي؟ أي فعل؟ أي موقف؟ أيّة مأثرة؟ حياة كلبية تماماً.. إنّه يبكي على نفسه، لماذا، يا ربي، يبكي الإنسان على نفسه في آخرته؟

- ما رأيك في أن تنام قليلاً يا توفيق.؟

- لا أريد النوم.. تعرف أن تصنع لي فنجاناً من القهوة؟ (قلت: نعم) قهوة سادة.. هذا كل شيء، بعد ذلك أغلق الباب وآمضِ.. دعني وحيداً.

طبخت له القهوة. كان قد نام. وضع رأسه فوق زنديه على الطاولة ونام، شعره القليل، الأبيض، الرمادي، يتشعث. قدماه عاريتان. قطه الأليف تحت الكرسي. جذعه متقوّس، كأنه ما انتصب يوماً. ما كان أبا الوفق الذي أعرفه. كان يرزح تحت شيء ثقيل، مبهظ، غير منظور، انطباع بالالتواء يتولّد عن النظر إليه، كأن جثته هي المتراخية في وضعها ذاك، وكأن لا أحد يحتاج هذه الجثة بعد، وأن هذا الجسم قد فارقته الروح، ولم يبق إلا أن يوارى في حفرة، دون شاهدة ولا غرسة، كمن لم يأت إلى هذه الدنيا ولم يغادرها.

تركته وحيداً كما طلب ومضيت. الليل يتقدم، البحر مظلم، أين أضواء البحر؟ أين أيام السلم؟ ثمة، في الأبعاد، فانوس وحيد.. أيها الصيّاد البعيد، يا زميل الماء والشقاء، حاذر أن تبقى وحيداً، غريباً، دون بيت، دون أهل، دون جماعة. حزنت لصورة الغريب، التي نبتت في غبش الليل أمامي، كما تنبت بلاّنة في أرض مهجورة. تذكرت والدي وحزنت. هو أيضاً غريب، وهو أيضاً وحيد، ومخلوع.. وربما. في هذه الأيام، والدنيا ظلام، الدنيا حرب، قد تضاعف ألمه... لكن والدي لن يكون مثل توفيق. حين تعيد ذاكرته بناء ماضيه سيكون لديه ما يعزّيه. إنه، حتى على البعد، منتمٍ إلى الوطن، إلى البحر، إلى الميناء. لديه ما يقوله لنفسه. عمره لم يذهب سدى. تزوج، أنجب، ربّى أولاده. أنشأ بيته، أسرته. يعرف ما يريد، لديه هدف. له جماعة.. حياته أعطت ثمرها، أينعت، أزهرت، وحين تنغلق الدائرة، في مواجهة شتاء العمر، لن يكون جزعاً مثل توفيق. ما دام حيّ سيموت فإنه هو أيضاً سيموت. الموت حق. الحياة حق. المهم، كان والدي يقول: «ماذا صنعنا في هذه الحياة»

كنت أحفر بأصابع ذات أظفار، عن نقطة ماء في الصخر. أوجعتني حال توفيق. عليه هو الآخر، أن يفجر ماء في صخرته.. أن يجد عزاء في شيء ما. ألا يموت قبل الموت، أن يقاوم بشكل ما. لكنه، بدل المقاومة يستسلم. قال

إنه سيرتكب جريمة لدخول السجن.. أيّ تفكير أخرق هذا؟ لماذا لا يعود إلى الميناء؟ وماذا يفعل في الميناء؟ قال إنّ البحّار يصل إلى نهاية سيئة. والدي لن يواجه هذه النهاية السيئة، ربما واجهتها كاترين نفسها. هذه مومس كما قال توفيق. المومس والبحّار، والنهاية المتشابهة. لا.. كاترين ترفض هذه النهاية. تبحث عن زوج، لقد فاتها الولد.. لماذا لا تربي ولداً؟ من يضمن أن يبقى الريّس اليوناني معها؟.. هي أيضاً ستشيخ. تأخرت شيخوختها. بعض الناس تتأخر شيخوختهم، يحافظون على صلابة أجسامهم. لم يبدأ الترهل بعد. لكن ذلك سيصير. كاترين سترهل. عندئذ ماذا تفعل؟ أي رجل جديد يكون لها؟ هذا اليوناني سيكون الأخير في حياتها. ربما كان وحيداً مثلها.. بعض الريّاس لا يتزوجون إلاّ على كبر. يخلدون إلى الهدوء بعد ذلك الضجيج. يستسلمون للواقع: لا بدّ من بيت، لقد فضلته كاترين عليّ. إنها، بعد كل شيء، عاقلة، تبحث عن ضمان لمستقبلها. في اليونان ستهدأ، تستقر، تدرأ عنها سوء النهاية. تقطع علاقاتها بالوطن ومن فيه. تغيب كما غاب والدي، تراها تسأل عنه كما قالت؟ تترك اليوناني وتتبعه؟ ربما تفعل.. بل أنا واثق أنها تفعل. نقطة ضعفها والدي، ونقطة ثأرها والدي. تبحث عنه لتنتقم منه؟ تحمل كيدها مثل جليلة. في مجراوية الزير دفعت الجليلة زوجها كليب لقتل أخيه الزير وحرضتّه عليه. حاربته حتى النهاية، حتى الشيخوخة، إلى

أن ماتت.. كاترين تحارب والدي إلى أن تموت؟ وماذا فعل لها؟ لوخانته مع العرب لهجرها وكفى.. أما مع الأتراك.. كيف تحتمل أعصابه هذه الخيانة.. كاترين خانت قومها.. والدي لم يكن يتسامح مع من يخون قومه.. كان عربياً من رأسه إلى أخمص قدميه. كان قلبه من حوران.

رحت أتردد على مقهى الميناء كي أرى قاسم. هو وحده قادر على انتشالي من حيرتي.. يقول كلمات حلوة. يتحدث عن مستقبل سعيد كأنه يراه. أعطاني، في آخر لقاء بيننا، منشوراً قال إنه الميثاق الوطني لحزبه. كان عنوان الميثاق «وطن حر وشعب سعيد» قلت له: «متى يتحقق هذا»؟ ضحك.. «لماذا أنت مستعجل دائماً؟» أجبته: «أنا أسأل فقط.. هل السؤال حرام»؟ عاد إلى الجد: «شكل سؤالك لم يعجبني». «يا ابن العفاريت، قلت في داخلي، لماذا تريد إثارتي؟ أنا أسأل فقط.. أريد أن أعرف متى يصير هذا؟ متى يتحرّر الوطن ويسعد الشعب، ماذا في هذا السؤال؟ لماذا لم يرضه؟»

- اسمع يا قاسم.. أنا لا أهزل.. أسألك جاداً.. لماذا تريد نرفزتي..؟
- أعرف أنك لا تهزل.. أنت جاد تماماً.. لكن سؤالك..

قاطعته بنبرة استياء:

- سخيف.. أليس كذلك؟

- أنا لم أقل هذا.. ليس سخيفاً تماماً.. لكنك لا تتغير.. ألم يعلمك البحر شيئاً من الصبر؟

خيّل إليّ أنني، في هذه اللحظة، أكره قاسم هذا.. يعاملني كغبي.. كإنسان «بصلته محروقة» أنا قادر أن أصبر. أنا أعرف الصبر، وأجيده.. تعلمت ذلك من البحر.. تغيرت.. صرت أفضل.. لكن قاسم لا يثق بي.. لا يوليني أي قدر من الاعتبار.. أنا أحبه.. نعم أحبه.. لكنني أكرهه أيضاً.. إنني، في هذه اللحظة، أكرهه..

أضربت عن الكلام. شعرت، فجأة، أن مزاجي اعتكر. صرت نزقاً إلى درجة لعينة.. آه يا قاسم.. يا قطعة من حديد بارد.. يا من تضرب على حديد بارد.. كن لطيفاً قليلاً معي.. أجبني على سؤالي.. لا تستخفّ بي.. إنني بحاجة إليك.. أنا ضائع وسط هذه الضجة السياسية التي لا أعرف منها سوى أنني، مثل والدي، ضد الذين هو ضدهم.

قال قاسم وهو يربت علي يدي الموضوعة فوق الطاولة:

- لا تزعل يا سعيد.. لا تكن عصبياً إلى هذا الحد.. سؤالك يدل على جزعك..

كنت أسمع بكلمة «جزع» للمرة الأولى.. ازداد ضيقي. لماذا يكلمني بلغة السياسة هذه؟ يريد أن يظهر شطارته عليّ؟ اللعنة.. ظني أنه يتهمني بالجبن.. أليس هذا معنى الجزع؟ قال:

- الجزع يعني شيئاً آخر.. لنقل مثلاً اليأس بسرعة. خيبة الأمل بسرعة.. استعجال الأمور، فإذا لم تتحقق في الوقت الذي حددناه، نقنط.. هل فهمت؟
- لم أفهم.
- بل فهمت لكنك عصبي.
- أنت تصيّرني عصبياً.. تستعمل «البروبوغندا» معي..
- اهدأ إذن وسأقول لك كل شيء بهدوء.. لكي يكون الشعب سعيداً يجب أن يكون الوطن متحرراً، المعركة الأساسية ما زالت مع فرنسا.. بعد إخراجها تتحسن الأمور..
- تظل الأمور سيئة حتى تخرج؟
- ماذا نفعل؟ سوء الأمور منها.. بعد إخراجها تتحسن الأمور..
- هذا فهمته.. قلته لي مئة مرة.. أريد أن أعرف متى تخرج فرنسا؟
- هذا متوقف على نهاية الحرب..
- وأين وصلت هذه الحرب؟
- ألمانيا تتراجع... ألا تقرأ الصحف..؟
- لا.. لا أستطيع إكمال جريدة..
- والراديو؟
- ليس لدينا راديو..
- اسمعها في المقهى..

- انا آخذ الأخبار منك وهذا يكفي.. أفضل من انتظار نشرة الأخبار.. أنا مشغول.. أبحث عن عمل..

- في البحر؟

- أين البحر؟ لا بحر بعد الرّيس زيدان.. من يجرؤ على السفر..؟

- بعض المراكب يقوم برحلات قصيرة.. اعمل عليها..

- لم أجد عملاً فيها.. والمرفأ جامد.. الحركة ميتة هذه الأيام.. اللعنة على هذه الحرب.. ماذا تعمل أنت؟

- لا اعمل شيئاً.. أسعى لتأليف نقابة في الميناء، وكذلك في الريجي.. أعيش كيفما اتفق.. أنا اعتدت على هذه الحياة.. لا أسرة لي ولا مسؤولية.. رغيف في اليوم يكفيني..

قلت مازحاً..

- انت تأكل سياسة وهذه لا تشبع خبزاً..

- تأليف نقابة يساوي أكل الخبز.. لا بد من التضحية يا سعيد.. أشتغل أحياناً.. أتعطل أحياناً.. كل شيء على ما يرام.. ليسَ لديّ قلق من ناحية اللقمة..

- والزوجة؟ والبيت؟ ألا تريد أولاداً..؟

فكرت قليلاً كمن أدرك الضرورة لشيء نسيه... قال:

- فكرت في الزواج يوماً.. كان ذلك في الماضي.. من ترضى بي زوجاً وأنا مجهول المقر، مجهول المصير، معرّض للسجن كل يوم؟

كان يتكلم الآن بنبرة أسيفة؟. ربما ذكرته بما يرغب ألا يتحدّث عنه.. جررته الى الكلام على حياته الخاصة، وقد بدا رقيقاً، حساساً، صاحب هموم هو أيضاً، غير أنه قال:

- لا بأس! لا بأس! المهم أن ننجح.. (وكرّر) المهم أن ننجح..

لم أفهم من يقصد بكلامه على النجاح...

افترقنا. كل ما بقي من حديثه أن فرنسا لن تخرج الآن. الحرب طويلة، الله أعلم متى تنتهي.. نصحني أن أعمل في البحر. نصيحته لا تقدم ولا تؤخر. لو كان هناك بحر وسفر لاشتغلت قبل أن ينصحني. كان على الرّيس زيدان ألاّ يموت. لماذا كتب عليّ أن أكون شؤماً على الذين أعمل معهم؟ عندما قالوها في الميناء، بعد غرق الرّيس عبدوش، غضبت جداً. قلت ذلك للرّيس زيدان ونحن نبحر ذات يوم. ضحك. قال لي: «هذه خرافة. الفأل والشؤم خرافة. أنا لا أصدق أمثال هذه الخرافات. لا أكترث لها. البحر لا يحتاج الى حجاب ولا خرزة زرقاء. لا يحتاج أيضاً إلى رجال عمالقة من الخارج، فارغين من الداخل. إذا لم يكن للبحّار قلب شجاع لا خير فيه. الأفضل له أن يترك البحر، وحين يكون له مثل هذا القلب لا يؤمن بالتعاويذ. لو قلت لي إن هناك حظاً، أجبتك: نعم يوجد حظ، لكن الحظ، مهما كان كبيراً، يبقى نصف الموفّقية، نصفها الآخر إرادتنا،

مهارتنا، قدرتنا على فهم البحر، ومعرفة أسراره.. حين تواجهك العاصفة لا بأس أن تبسمل، أن تبتهل، أن تصلي، لكن هذا وحده لا يكفي. ينبغي أن يكون في صدرك قلب، وفي رأسك عقل، وأن تحتفظ برباطة جأشك، وتثبت في المعركة، تصارع حتى النفَس الاخير. تذكرت والدي. هو أيضاً كان على مثل هذا الرأي. لكنني، بعد مقتل الرّيس زيدان صرت أتساءل ما اذا كنت شؤماً حقاً. من الغريب أن أحداً لم يقل ذلك في الميناء. اعتبروا موت الريّس زيدان أمراً لا بدّ منه، بسبب ما كان يقوم به من أعمال خطيرة. أنا لم أعرف ماذا كان يعمل، وإن كنت، في ذاتي، قد شككت بأنه يهرّب سلاحاً الى فلسطين.. كان يعمل ضد الانكليز.. وما أدري الدخل الذي كان يحصل عليه، برغم أنهم في الميناء سألوني اكثر من مرة: «كم جمعت من سفرك مع الرّيس زيدان؟ الريح مؤاتية، المغامرة حلوة حين تكون منها فائدة» وقلت لهم إنني لم أربح شيئاً، وأن الريّس زيدان كان سياسياً أكثر منه تاجراً أو قرصاناً.. لكنهم رفضوا تصديقي. أفهم الآن لماذا اعتبروه شهيداً. عندما نسف المركب لم يمت رأساً. كنا على مقربة من الشاطىء. قوارب الصيد التي هرعت إلى مكان الحادث انتشلته مع بعض البحّارة. خرجنا إلى فلسطين. هناك توفي. ومن هناك عدنا بجثته الى اللاذقية، جرى له موكب تشييع لائق في المدينة، مشى فيه الوجهاء والريّاس وبحّارة الميناء.. ومشى قاسم

أيضاً.. عجيب. من المرجّح أن يكون لهذا الرجل تاريخ لا أعرفه. تاريخ في الجهاد ضد فرنسا.. هذا هو السبب في هذا الأسى الذي أظهره الناس على فقده. كان على كاترين الحلوة أن تقدّر ذلك، كان عليها، بعده، ألاّ تتزوج. لكن التي خانته وهو حي، ما كانت لتظل وفية لذكراه بعد الموت.. لقد تزوجت بعد شهور. أسلمت جسدها لرجل جديد. يوناني هذه المرة.. أحسب أنها عرفت رجالاً من جميع الأجناس. كانت شبقة إلى درجة مخيفة، قاتلة الرجال هذه، تذوقت كل الأصناف. أي صنف كان الأفضل بالنسبة اليك يا كاترين؟ وهل ابتردت بعد طول التهاب؟ هل تتزوجين هذه المرة للسترة، أم ما تزال في جسدك حرارة تتطلّب الاطفاء؟ اذهبي. اذهبي ملعونة.. سافري.. خذي فجورك معك. غوري في البحر الذي طلعت منه.. ربما كان ذلك لصالحي. وعسى أن تكرهوا شيئاً.. منيتي لم تحن. لا يشاء القدر أن يعلق رأسي فوق عتبتك. إنني ألعنك إلى آخر العمر، وأشتهيك إلى آخر العمر أيضاً.. حرريني من أسرك، من قيودك، محال أن يتم ذلك ونحن في مدينة واحدة، لا بد من سفر واحدٍ منا، وها أنت تسافرين.. انتهت محنتي.

لا.. لم تَنْتَهِ محنتي، كنت كاذباً. التفكير شيء والعمل شيء آخر، والدي يقرن التفكير بالعمل. أنا أيضاً نويت أن أفعل هذا. بعض الأحيان، خاصة فيما يتعلق بالبحر، كنت

صادقاً. لم أكذب إلا فيما يتعلق بكاترين الحلوة. هذه جعلتني أكذب. جعلت نفسي تخدعني. تلعب عليّ. أقرّر شيئاً وأنفذ شيئاً. أعتزم الخلاص، القطيعة، البُعد الى آخر العمر، وفجأة أجد نفسي كاذباً. لا أدري من الذي كان يحتال على الآخر، عقلي أم قلبي، في الصحو، حين أفكر بالحياة، بالعمل، بالمستقبل، بالعائلة، بالوالد، يسيطر العقل.. أقول سأفعل كذا وكذا، ولكنني، حين أفكر بكاترين الحلوة، يسيطر القلب، ليس القلب تماماً، ما كنت عاشقاً. كنت شهوانياً ملعوناً، كانت شهوتي تغلبني، ومن جديد، كلّ مرة، كنت أبلغ ما قرّرته قبلها. كان التفكير فيها هوساً. كنت مهووساً. أقول: «مرة فقط!» أن التقي بها مرة. أن أضاجعها. أن أرى جسمها، أن أسمع تأوهاتها. أن أغيب معها في تلك السكرة العجيبة التي بعدها النهاية.. وعندما أدركها أقول: «انتهى كل شيء» وبعد يومين يعاودني الشوق، تعتادني الشهوة وتقودني من أنفي.. تجرّني إليها مستسلماً، لا قدرة لي على المقاومة.

الطريف أن نفسي كانت تخدعني على نحو جميل. أنا لا أعود إلى كاترين كي أنام معها. نفسي تتخذ هيئة شيطان ماكر. أهذا هو الوسواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس؟ ربما.. لست قادراً على تحليل ذلك.. أعتزم البعد، القطيعة، وإذا بعقلي يعرض عليّ أمراً مغرياً يدعوني إلى الاتصال بها من جديد. يجعلني أذهب لغاية، يجنّبني الحرج،

يعطيني حجّة لا أخجل بها من رضوخي لشهوتي. يخدعني بسهولة. أكون في حالة استعداد للانخداع. ربما كنت أريد أن أخدع دون أن أدري. المهم أنني أتحجج للذهاب، عقلي معمل حجج دائم الإنتاج، أول حجة تعرض لي تقنعني بوجاهتها. تصير موزة انزلق عليها. ازحط كما على بلاط مبتل، لا أفيق إلاّ وأنا أتلقّى الصدمة ورأسي يرتطم بالأرض.

هذه المرة نبقت في رأسي فكرة. كنت أشرب كأساً من العرق، قلت في نفسي: «كاترين تتزوج لتعشق، ليس المهم من هو الزوج. أي فحولة يملك، أي قوة أو مكانة أو جاه. لو انحلّت أوصالها مع زوجها، لسعت إلى عشيق يزيد هذه الأوصال انحلالا. تتزوج لتعشق وليس العكس. اذا لم يكن لديها زوج فلا حاجة للعشيق. الخيانة الزوجية دمٌ في دمها. ولأنها كذلك، وقد تزوجت الرّيس اليوناني، فإنها تريدني.. كرّة أخرى تحتاجني. وشيء ما، لعله الخوف، هو الذي يقعد بها عن المجيء إلى بيتنا، أو يمنعها من استدعائي إليها. إذن لماذا لا أذهب إليها؟ لماذا لا أعرض عليها أن أسافر معها إلى اليونان؟ هناك أعمل.. السفن كثيرة في اليونان، وهذه الحرب توشك أن تنتهي كما يقول قاسم، وسأفوز مرتين: بالعمل وبكاترين.. إنها عملية جيّدة!

هكذا، ذات أصيل، كنت أقرع على كاترين الباب، فتحت لي دون أن تفاجأ.. ابتسمت فقط، ظلّت هادئة،

وابتسمت. كانت تنتظرني؟ من المؤكد أن ذلك كذلك، كانت تراهن على واحد مقابل مئة انني سآتي، وحين فعلت وجدت الأمر طبيعياً جداً، قالت: «تفضل» وأفسحت لي الطريق للدخول.. قادتني إلى الصالون وهناك جلست قبالتي. سألتني عن الوالدة، عن العائلة، عن الصحة والشغل. لم تذكر والدي، ولا الريّس زيدان. قطعت صلتها بالماضي. لعلها تتظاهر. إنها قريرة العين كما يبدو. في غاية النشاط والتألق، تفيق لتوها من نوم هنيء.. تصورتها تنام مع اليوناني فانزعجت. تملكتني غيرة شبقة. لا أتصور امرأة تنام وتفعل ذلك الشيء بعد الظهر إلاّ وتتولاني غيرة قذرة. يرتعش جسمي، يسيل لعابي شبقاً. كاترين الحلوة قالت لي: «حين أشرب يندفع الكحول إلى القسم الادنى من جسدي. أحس أن ذلك الجزء يتململ، ينتشي، يتشهّى.. عندئذ يستطيع أي امرئ أن يقتادني إلى السرير، شهوتي تغلبني في هذه الحال.. ذلك الجزء يسكر مباشرة. تأثير الكحول، في العادة يصعد إلى فوق، وعندي ينزل إلى تحت..» أنا أيضاً يصيبني ما يصيب كاترين عندما أسمع، أو أتصور، أنها نامت، ومارست ذلك الشيء بعد الظهر. لذلك عزوت تفتُّحها إلى ارتوائها. إنها ترتوي مع أي رجل.. أيّة قابلية ماخورية عند هذه المرأة؟

سألتني:

- ألا تسافر؟

- إلى أين؟ ومع من؟ البحر مغلق..

ران عليها نوع من تفكير قلق. ربما تذكرت الريّس زيدان. هو وحده كان يسافر والبحر مغلق. كان يسافر إلى الخطر. يلاحقه، يطارده.. كان رجلاً فذاً، لكنّها، مع ذلك سلته. إنها تنام مع اليوناني بمثل ما كانت تنام معه. وكما كانت تنام مع الريّس عبدوش، وقبله مع والدي، وقبل والدي وبعده، مع الرجال الآخرين. إنها بغيٌّ بالدم. لا ماضي ولا مستقبل. تفكيرها محصور بالحاضر فقط، الرجل الذي في سريرها رجلها. الذي على صدرها فحلها. مشاعرها كلها تتجمع في نقطة من جسدها. النقطة نفسها التي تنتشي إذا شربت. تتآلف بسرعة. الحاضر يسد مسد الغائب. تأكل، تشرب، تضحك، تعيش بغير قلق، بغير عاطفة، بغير أسى، دون حزن على أحد. «عجيبة أنت يا عاهرة!» قلت في سري. رحت أراقبها بنظرات خفية، كي أسبر غورها، أعرف ماذا تنوي وماذا تريد، وهل ما زلت صاحب حظوة لديها أم أصبحت منسيّاً كغيري.

- الافضل - قالت - أن تبحث عن شغل في غير البحر.. في الميناء أو الريجي، مثلاً..

- في الميناء لا يوجد عمل.. وفي الريجي صعب.. أنا لن أحمل على ظهري.. لن أصير حمالاً..

- للضرورة أحكام.. هذا عمل مؤقت لو صار.. لماذا لا تسعى؟

- أفكّر بالسفر..
- إلى أين؟
- احزري..
- دعني من هذه السماجة.. لا أحب الحزازير.. قل وأرحني..
- إلى اليونان!

اطلقت ضحكة غير متوقّعة، ضحكة مقهقهة، ساخرة، شامتة، عابثة، كأنها تسمع شيئاً غريباً، إلى درجة الإضحاك.

- إلى اليونان؟ ومع من ما شاء الله؟
- معك!
- بأية صفة..؟
- ألم تعد لي صفة لديك؟
- نعم.. عشيق سابق..
- هكذا؟
- أنت تريد أن تذكرني بذلك.. تظن أن لك حقاً عليّ لمجرد أنك نمت معي..

قلت مغتاظاً:

- نمت معك فقط؟
- وماذا أكثر؟ وماذا يعني هذا؟ لن أحمرّ خجلاً.. ليس لدي شعور بالخجل من هذا.. أنا التي نامت معك..

قالتها بجفاء وقد اربدّ وجهها حنقاً. أضافت:

- لماذا أنت سيّئ دائماً؟ والدك لم يكن على هذه الشاكلة.. لم يكن يفرض نفسه، ولا يذكّرني بنومه معي.. لا يتظاهر بأنه صاحب حق.. وبأنه يأتي إليّ باسم هذا الحق.. كان كريماً..

« اللعنة! » ذكرى والدي تلاحقني.. في البحر يذكرونه. في البر يذكرونه، قاسم يقول كان والدك. أمي تقول: كان والدك.. وها هي كاترين الحلوة، هذه القحبة.. تمسك عصا والدي وتضربني بها.

- والدي لا ينتظر شهادة تقدير منك.

- وأنا لا أوزّع شهادات تقدير على الناس.

ساد الصمت بيننا لحظات. لكم تستثار هذه المرأة بسرعة! أنا لم أشأ إغضابها. جئتها مسالماً. جئت أطلب مساعدتها. لم آت لأذكرها بشيء.. إلى الجحيم بكل العلاقة السابقة. غلطتي أنني حسبت نفسي عشيقاً. هي لا تعترف بهذه الصفة، لا تعترف بي حبيباً ولا عشيقاً. مجرد رجل نام مع امرأة، كاترين قالت: « أنا التي نمت معك » شكراً يا كاترين على هذا المعروف. اتخذي صورة الرجل، دوره، فعله. ارفعي لي أجرتي إذن. لقد أجّرتك نفسي دون دراية. مجرد عابر في حياتك عليّ أن أؤدبك كي أكون رجلاً باقياً لديك، والدي عرف كيف يؤدبك. كان ينبغي أن أضربك. هل تحبين الضرب يا ابنة أمك؟ أي سلوك تطلبين؟ كل فتوّتي لم

ترضك؟ كل فحولتي كانت هباء؟ أنت شاذة ولا شك، شاذة أيتها العجوز. يا عجوزاً متصابية. تريدين أن ألوّث يدي بدمك؟ أن أضربك حتى الموت؟ أن أبصق في وجهك.. وماذا يعني هذا؟ ماذا يفيد مع هذه المرأة التي بصورة آدمية وسلوك شيطان؟ يقيناً أنها من نسل جنية، ليست أنسية أبداً.. مستحيل! هذه العنجهية، هذا الإدلال، هذه الوقاحة، هذه الغلمة، هذه القدرة على قنص الرجال وقتلهم، كل هذا يجعلها من نسل شيطان، من نسل قرش. هذا اليوناني المسكين سيتلف معها. سيموت كغيره. أو تهجره كغيره. إنها لا تريد عشيقاً من هذا البلد. تريده يونانياً من جنسية الزوج، تذهب طليقة اليدين، وهناك، في اليونان، تخطّط على مهل.. دون عائق من رجل مثلي، يذكّرها بوالده، ونفسه، والريّاس الذين تزوجتهم، والذين قتلتهم، أو قُتلوا بسحر منها.

مع هذا كله ملت إلى المصالحة. كنت خسيساً فملت إلى المصالحة. شهوتي أذلّتني. قلت في نفسي: «الآن.. لا يوجد أحد في البيت.. عليّ أن ألاطفها.. إذا رضيت ملكتها. قطعت رحمها، جعلت جسدها أزرق، عضضت شفتيها حتى الإدماء.. وإذا ظلّت مغاضبة استفززتها وضربتها. سأضرب اليوناني إذا جاء أيضاً. سأنتقم للريّس زيدان. أنتقم للجميع. أجعلها قصة في الميناء. أدخل السجن كي أؤدب هذه القحبة التي لم تستطع اللاذقية أن تؤدبها.»

- اسمعي يا كاترين.. البحر مغلق والبطالة لا تحتمل.. لم أفكر بالذهاب معك رأساً. قلت في نفسي ألحق بك.. هناك قد أجد عملاً بمساعدتك.. تكلمي مع زوجك في هذا.. ربما كان له رأي.. ماذا تقولين؟
- زوجي بطّال مثلك.. نحن نعود إلى اليونان براً.. البحر مغلق هناك أيضاً.. وعندما تنتهي الحرب يكون لكل حادث حديث.. هل تشرب قهوة أم شيئاً بارداً؟

شربنا القهوة. لم ترفع رجلها كما اعتادت. إشارة الاستثارة لم تأت. معنى هذا أنها لا تريد. بقي أن استفزها وأضربها. إذا كانت تحب ضرب الرجل فستتشهى بعده، عندئذ تسلس قيادها.. أجرّب. إذا كان ما أفكر به صحيحاً اكتشف نقطة الضعف فيها.. أستغل هذه النقطة وأنتقم بطريقتي الخاصة.

قلت وأنا أضع الفنجان على الطرابيزة:
- إذن لم يعد لي مقام عندك؟
ابتسمت ببرود واستخفاف:
- عدت الى نغمك؟ أي مقام تريد؟ أنت ابن صالح حزوم، هذه أطيب صفة وأكرمها. أنا لم أسئ إلى والدك أو إليك، أو إلى عائلتك.. فلماذا تصطنع مشكلة وأنا راحلة؟
- أنت ضحكت عليّ؟

- تعني اغتصبتك؟ أقم دعوى عليّ، دعني أسجن أو أدفع لك تعويضاً..
- لماذا تسخرين؟
- لأنّ كلامك يدعو إلى السخرية..
- لماذا قبلت بي، وأغريتني، ثم تركتني..؟
- كانت نزوة مني.. اشتهيتك.. حرام أن تشتهي المرأة كما يشتهي الرجل؟
- والآن؟
- لم أعد أشتهيك.. انتهت الحفلة..
- قضيت شهوتك وانتهى الأمر..؟
- هذا هو.. أنا امرأة مزاجية..
- وأنا؟
- أنت؟.. تريد رأيي حقاً.. أنت ولد طيب.. ابن صالح حزوم.. لذلك استقبلتك في بيتي.. كن لطيفاً.. حدّثني عن العائلة..
- أريد أن أحدثك عن نفسي، لا عن العائلة..
- ماذا لديك أيضاً؟ مشروع بحري نتشارك فيه؟.. أنا طلّقت البحر.. سأسافر براً كما قلت لك.
- سافري كيف تشائين.. هذا لا يهمني.. فقط لا تستهيني بي..
- معاذ الله!
- أنت تهزئين بي.. أليس كذلك؟

- كيف ترى؟ هل في كلامك ما يدعو إلى الهزء؟

كنت أعرف أنها تهزأ. كلامها مبطّن بالهزء، لكنها لا ترغب في الاصطدام. تقرأ في عيني ما أريد... تتجنب أسئلتي الاستفزازية. تسد السبل على محاولاتي. بارعة. تفهم من الإشارة. تدرك ما تنطوي عليه الكلمة، النظرة، اللفتة، نبرة الصوت، حسناً! ما بقي أن أصارحها برأيي.. أقول لها أريدك والسلام.. أريدك الآن لا غداً ولا بعده. أعرف أن لديك زوجاً، وأن هذا الزوج قد يأتي، وقد تثار فضيحة، لكن هذا كله لا يهمني.. أنا اشتهيتك، وسأنالك بالرضى أو بالغصب.. أنت تحزرين ماذا أقصد بكلامي. لا تحاولي اللعب بي.. أنا لست ولداً طيباً.. لست لطيفاً، برغم أني ابن صالح حزوم، وأنك استقبلتني على هذا الأساس.

أشعلت سيكارة. كنت أرتجف من استثارة داخلية تهز كياني كله، خشيت أن يرتج عليّ، أن أتلجلج، ألاّ أقوى على الكلام، أو يخرج الصوت عواء، لا لفظاً. انقلبت الى ذئب جائع. ذئب على الثلج، والدنيا شتاء، والأحشاء تتضوّر، وفجأة تلوح فخذ حمراء، بيضاء، مشحّمة، تقطر دماً مهيجاً، دماً يبعث على الجنون أو الموت. أنا الآن ذئب بشري. ذئب جائع، يعرف أن هناك، فوق الركبة، تحت الثوب فخذاً تقطر شهوة، وهي رائعة، جميلة، مستديرة، ترتفع باستدارتها إلى فوق، إلى أعلى، إلى ذلك المثلث المعشوشب، إلى تلك المنطقة التي تنطوي على كنز من لهب..

- اسمعي يا كاترين!

- قل سيدة كاترين.. تأدّب.. أنت في بيتي..

- لا يهم.. اسمعي يا سيدة كاترين..

- ماذا تريد؟

- أريدك..

- أعرف هذا.. أراه في عينيك، في يديك المرتجفتين، في شفتك السفلى المتدلية من فرط شهوتك.. لكنني أنا، لا أريد.. هل تعرف ماذا يعني هذا؟ المرأة حين لا تريد فليس من شيء يرغمها على ذلك.. أنت تفكر بقوتك كرجل.. تقول في نفسك: أغتصبها، أضربها، أنت الآن مجنون، الشهوة أفقدتك صوابك. لكنّك لن تنالني.. كذبت حين قلت أنت تأتي لأجل السفر.. كي تذهب معي إلى اليونان.. هذه حجة.. جئت لأنك تشتهيني. جئت مدفوعاً بشهوتك. رأيت ذلك في وجهك وأنت على الباب.. أدخلتك وأنا أعرف نواياك.. كاترين ليست غبية. تعرف الرجل ونذالته.. تعرف كم من نذالة سببها الشهوة.. جرّبت الحياة كثيراً.. جرّبت الرجال أكثر.. أحببت الرجولة لا الشهوة.. الشهامة لا التفاهة.. أنا ما زلت أذكر والدك، وأحبه، ومستعدة، الآن، لو عاد، لترك زوجي والذهاب معه حيث يريد.. أما أنت فلا.. لا تحاول.. كن عاقلاً.. اذهب الى أيّة امرأة أخرى.. في المبغى كثير من النساء..

- خذ..!

قالتها وفتحت درجاً قريباً منها.. خيّل اليّ، للوهلة الأولى، أنها تسحب مسدساً. كنت أتمنى ذلك. أن تطلق عليّ. فهذا دليل على ضعفها أمامي. على خوفها مني. لو شعرت أنها خائفة مني لتركتها.. عفوت عنها.. كنت أنال بذلك تعويضاً جيداً. أنصرف ومعي كرامتي، لكن كاترين تسخر، لا تخاف، لا تريد.. وها هي تسحب المسدس.. حسناً أطلقي يا كاترين! أفضل ما تفعلينه هو الإطلاق. الموت. حلو من يديك.

كاترين لم تطلق. لم تخرج مسدساً. تناولت رزمة من الليرات وقذفتها في وجهي. «خذ، قالت، اذهب إلى المبغى، إلى أيّة امرأة. اسكر، افعل ما شئت. وعندما تهدأ تعود إلى رشدك، تعال إليّ، وسنتكلم كأصدقاء..»

تناثرت الليرات فوقي ومن حولي. احسست بثقل الاوراق المتساقطة عليّ. كانت قطعاً من حديد، من رصاص. لقد وقعت في الفخ. هي التي تستفزني هذه المرة. «انهض يا سعيد وارجع الليرات اليها، بدل كل ليرة صفعة. أنت لا تأمل شيئاً بعد. غاضت الشهوة في الداخل. تحوّل كل شيء إلى نقيضه. ليس الجنس بل الشرف الآن، شرفك المهان على هذا النحو المروّع. ألقت فلوسها في وجهك.. لو طردتك كان أفضل. كنت تستشعر عزاء. تقول في نفسك إنها لا تريدني

والسلام.. أما إلقاء النقود في وجهك فإنها إهانة.. إهانة لا يمكن احتمالها. »

نهضت اليها وصفعتها. مرة ومرة ومرة. احمرّ وجهها. انتفش شعرها. امتقع لونها حتى قلت إنها ستهاجمني وتمزقني بأسنانها. لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك. زوت عينيها، وجمعت في صوتها كل ما في طاقتها من ازدراء وقالت:

- نذل!

ولم تزد.. لم تطردني حتى. دخلت غرفتها وأغلقت الباب، بقيت وحيداً، مذلاً، مهاناً، محكوماً، بالنذالة، مرتكباً تلك التفاهة التي نهاني عنها والدي.. خجلت من نفسي، صحوت من حلمي الكابوسي. انطفأتُ كما اشتعلت.. تسمّرت واقفاً في مكاني. فكرت أن أطرق عليها الباب، أن أواصل ضربها.. لكن الندم سيطر عليّ. ظلّت كلمة « نذل » في أذني كجرس، احتقرت نفسي. رغبت أن تعود إليّ لأستغفرها، لأقول لها: « سامحيني.. » لكنها لم تعد.. وبعد قليل وجدت نفسي أتجه نحو باب الدار، وأغلقه بهدوء ورائي، وأمضي مقهوراً، مغلوباً على أمري.

لم أر كاترين قبل سفرها إلى اليونان إلا مرة واحدة. صادفتها في الطريق، حييتها خجلا. لم تعاتبني في شيء.. قالت كلاماً لطيفاً ذكرت فيه والدي. وقد توقعت بعد ذلك، أن تزورنا، أن تسأل عنّا. أن تبدو منها إشارة وداع، لكن

عبثاً توقعت.. أمّا تلك الحادثة فلم تذكرها لأحد، حتى زوجها لم يعرف بالأمر. التقيته في الميناء، في حلقة الريّس عبد الحميد، الذي قام بتعريف أحدنا على الآخر. نظر اليّ نظرة عادية. كان قد سمع بالريّس زيدان، ومغامراته، وميتته، لا باعتباره ريّساً مغامراً، ولا لأن الانكليز نسفوا مركبه، وأن المدينة كلها خرجت في موكب تشييعه، بل لسبب آخر، أهم، أقوى، أنه كان زوج كاترين الحلوة. لا أعلم إذا كان قد سمع بي أيضاً، ما دامت اللاذقية قد روت الكثير عن علاقتي به وعملي معه. كل ما قاله الريّس اليوناني هو أنه سيعود إلى اللاذقية يوماً، ويعمل فيها مرشداً للسفن، لكونه متخرجاً من مدرسة بحرية عالية في اليونان.

سافرت كاترين وأقفرت المدينة. كنت في وداعها برغمي. نظرت اليّ بحب. قالت لي: «سأبحث عنه».. أما توفيق فلم يغلق خمّارته ولم يهجر اللاذقية. ظل يتخبط في حياته الشقية دون طائل، فقدت خمّارته الحماية. ضبطت المحششة أكثر من مرة. سُجن. خرج من السجن، رأيته في الميناء. كان بائساً جداً. دعاني إلى خمّارته. قال لي: «هل أتاك نبأ ما عن والدك»؟ ولما أخبرته ألاّ نبأ قال: «مؤسف.. بودي لو عاد.. كنت أحتمي به، هو آخر الريّاس الشجعان في هذا البلد!»

قلت:-

- لكن والدي لم يكن ريّساً يوماً..

- وماذا كان إذن؟
- بحّاراً.. مجرّد بحّار..
- قاوم فرنسا وهو بحّار فقط؟
- هذا ما جرى.. فعل ذلك دون حماية أو سند..
- والباخرة الغارقة؟
- نزل اليها لأجل البحّارة.. كان يعرف واجبه ومسؤوليته.. لو تعلم أي رجل كان..
- أعلم.. كان ريّساً دون رياسة.. يكفي أنه كان عشيق كاترين الحلوة..
- من أخبرك بهذا أيضاً؟
- لا شيء يبقى سراً في حياة البحر.. بودّي لو عاد والدك.. أما زلت تنتظر عودته؟
- بكل تأكيد..
- أتمنى لو أراه يوماً.. ترى، لو عاد، يبسط حمايته على الخمّارة كما كان يفعل الريّس زيدان؟
- والدي لا يتعاطى الحشيش ولا يتردد على الخمارات.. لكنه لو عاد وعرف ما يفعله كلاب فرنسا معك لوقف إلى جانبك.
- لا تقل فرنسا.. قل (...) وأنا أفهم.. لقد أذلّتنا.. أفضل رجالنا في السجون والمعتقلات..
- أنت غاضب لأنهم يستبيحون خمّارتك..
- وأنت!. لماذا دخلت السجن؟. ووالدك لماذا حمل السلاح؟

- كيف أقول يا توفيق؟.. هناك فرق.. والدي قاوم فرنسا لأنها كانت تستبيح الوطن..

- كلُّه واحد.. الوطن والأرض والبيت والخمّارة.. المهم.. لماذا لا تأتي إليّ؟

- وماذا أفعل لأجلك لو أتيت؟

- نشرب.. نتكلم على البحر، والريّاس.. أستأنس بك على الأقل..

فكرت: تراه يريد ان يتقوّى بي؟ ضعف أبو الوفق الى درجة لا يستطيع معها ردّ الأذى عن نفسه؟ وماذا بوسعي أنا؟ هل يفرض وجودي هيبة معينة؟ أين السمعة التي تفرض هذه الهيبة؟ سنوات مضت ولم أخض معركة.. لا شيء باستثناء مغامراتي مع الريّس زيدان. واهِمٌ ابو الوفق هذا.. أنا لا شيء.. كاترين الحلوة قالت ذلك.. تصرُّفها معي قال ذلك، لو كنت شيئاً ما رفضتني.. من لا يكون شيئاً لا يهتم به أحد.. عَرْضُ توفيق مغرٍ رغم بشاعته.. أذهب اليه وأفرض نفسي على الجميع؟.. أدخل معركة، معركتين، ثلاثاً، ثم يتثبّت حضوري؟ يصير لي وجود.؟ كلاب فرنسا هؤلاء.. هل ضعفت، كما ضعف أبو الوفق؟.. صرت على ظهر الحياة قبل أن أدخل باطنها؟..

وعدته بالمجيء إلى الخمّارة ولم أفِ بالوعد.. الريّس عبد الحميد دبّر لي عملاً في الميناء. سعى عند معارفه، وعند رئيس الميناء، فعيّنوني حارساً للمنارة. خلفت حارسها

العجوز الذي مات. تدرّبت على العمل بسرعة، تعلمت كيف أسهر على الفنار، كيف أحرس المنارة. وماذا يجب عليّ إذا رأيت إشارة من بعيد، أو إذا اشتبهت بشيء.. التعليمات كانت قليلة،واضحة،حفظتها من الاسبوع الاول، وفي شهور كنت موضع ثقة، وأعطوني مسدساً، وصرت أنام نهاراً وأسهر ليلا..

هكذا وجدت نفسي مع البحر من جديد، حارساً لا بحّاراً تقاعد في سن الشباب. كانت حياة المنارات وحرّاسها موضع تساؤلي دائماً. بماذا يفكر حارس المنارة؟ ماذا يفعل طول الليل؟ أيّة خواطر وأيّة هواجس تلمّ به؟ يقرأ؟ يعمل؟ يلعب الورق؟ يضاجع زوجته؟ يتسلى بأولاده؟ لا زوجة ولا أولاد لي. حارس حرب أنا. حين يشيخ عجوز التركمان يرسلونه لرعي الماعز. والدي كان يقول هذا ضاحكاً. عجوز التركمان هو أنا الآن. الحرب فرضت عليّ أن أقوم بمهمة العجائز. الحمد لله أنهم لم يرسلوني لرعي الماعز أو الحمير. هنا، على الأقل، أظلّ في الميناء، بجوار البحر، أسمع هديره، اصطفاق موجه على الصخور، أراه في هدوئه وجنونه، في ثورته ووداعته، أعيشه على نحو غريب، لم يكن يخطر لي على بال.

في الليلة الاولى كدت أجن. استشعرت المنارة سجناً حقيقياً. الأبشع أنه كان سجناً انفرادياً، منفصلاً عن المدينة، كأنه قلعة على صخر، يذكر بالقلاع التي كان ينفى

اليها المغضوب عليهم. غرفة وحيدة، ذات منافع، وعلى جدارها الخلفي تنتصب المنارة، تعطي ضوءاً متقطعاً، رتيباً، يهدي السفن، يبعث الرجاء في التائهين، لكنه، بالنسبة اليّ، كان غولاً بعين واحدة، يلفّه الظلام، تضيء عينه العوراء وتخبو، تصفر الريح من خلال صومعته، ويتعالى، نوع من نواح أصم، نوع من عزيف يبعث على الرهبة، وتترجع في منطقته كل أصداء البحر الصاخب الحامل إلى الشاطئ حمحمة غيلان أسطورية مخيفة.

تلك الليلة قضيتها في استعادة قصة حياتي. لأول مرة يتاح لي الوقت الكافي لأستعرض كل شيء، كأنما في داخلي فانوس سحري، والوقائع صور، وأنا الممثل والمشاهد. ولقد أطل عليّ والدي من قاع الذكريات. تقدم، تقدم. ملأت صورّته الشاشة. خيّل إليّ أنه يتفرس في وجهي، يغرز بصره في بصري، يرى المسام التي على جلدي، وأنه في غربته البعيدة، كان مطلعاً على كل شيء وخجل من كل شيء، وأن في نظرته خيبة أمل كبيرة.

كان ذلك في أواخر الخريف. البحر، كعادته في مثل هذا الوقت، مهجور تماماً. الريح حزينة، نائحة، تحز حزاً كئيباً ينخر في العظام. دار في رأسي أن أترك المنارة وأذهب فأشتري عرقاً. كان الشراب وحده يطفئ ذلك الظمأ القرميدي في داخلي. كنت قادراً أن أشرب زجاجة كاملة. كانت بي حاجة إلى تصديع القشرة الدماغية. إلى إخراج

شيطان الكآبة الذي انتشر كدخان فملأ داخلي كله. لكنهم، في التعليمات، نهوني عن الشرب. قالوا إن هناك رقابة من الميناء. لم يكن الشغل ميسوراً، وشهادة الريّس عبد الحميد بي، ردعتني عن الرعونة. كان قد عاد لتوّه من «المية ومية» (۱۰) له مع الكتلة الوطنية كلمة مسموعة. مهما يكن فقد أقلعت عن فكرة الشرب هذه الليلة، لكنني أجزت لنفسي أن أغادر المنارة وأتجول في منطقة المرفأ، تلك التي تبعتُ الصبي الاسود فيها سابقاً، والتي كانت منطقة الأشباح في ذهني، لم أتردد في تنفيذ الفكرة، فالحراسة التي أنا موكّل بها تشمل هذه المنطقة كلها، ولديّ سلاحي على كل حال.

تفقدت المنارة. تلفعت بكوفية اتقاء للريح الخريفية الباردة. خرطشت مسدسي. أسلمت نفسي للظلمة. كان، الآن، شعور مغاير يتملكني، كنت طالباً لا مطلوباً. الإحساس بأنني ابن حكومة بدّل من حالي. استشعرت أن من حقي أن أفعل ما كان يفعله رجال الحكومة، حين كنت أتوارى بين الصخور خوفاً منهم. لم أكن واعياً ما أعمل، لا غاية، لا هدف.. نوع من الاندفاع لاكتشاف المجهول. تلبية لنداء المغامرة التي تعيش تحت جلدي. وفي ذاتي، دون أن أنتبه، كنت أرجو أن أجد صيداً مغرياً. المرأة، كيفما كانت، هي ذلك الصيد المأمول. ولقد تهيأ لي أن في كهوف الميناء، وبين الصخور، لعبة ما قذرة تجري، لعبة جنسية مع امرأة، وأنني سأنقذها، وبقوتي أحميها، ثم أعود بها إلى

المنارة، وهناك أسمع قصتها، وربما، إذا أرادت.. فقط إذا أرادت.. ثم قلت: لا، المنقذ لا يكون مغتصباً. تقمّصت روح فارس من الزمن القديم، ولم أستطع، منذ أن لبست البدلة وتقلدت المسدس، أن أنسى أنني صرت جزءاً من السلطة.

لم أعثر على أيّما امرأة. لم أعثر على أيّما مهرب.. النور في بيت عزيزة كان مطفأ. عزيزة هجرت الميناء. الكهوف خالية. أخَفْتُ القطط، أثرت الكلاب، تعثرت بالصخور.. كدت أسقط.. رجعت من جولتي مجهداً. لا صيد! أنا والظلمة والريح. المنارة تشع ضوءها المعتاد. الضوء المتقطع. الرتيب، والبحر مدى أسود لاحد لكثافته.. الموج يغني، بصوت أجش، أغنية، تترّية، على طريقته الفظّة، المرعبة.

نمت في النهار. لم يكن نومي عميقاً. تجدّد نشاطي بطلوع الضوء والشمس. فهمت لماذا يعمل حرّاس المدينة عملاً آخر، غير الحراسة، في النهار. الانسان يستطيع أن ينام ليلة كاملة، لكنه لا يستطيع، إلا في حالات نادرة، أن ينام نهاراً كاملاً. تقلبت قبل أن أغفو. استيقظت بعد قليل. حاولت النوم مجدداً فاستعصى عليّ. مجرد شعوري أن النهار أصبح للنوم والليل للسهر أخلّ بتوازني. كنت في حالة فراغ، عطالة، تبلّد. ومن جديد صار لدي وقت للتفكير، والتجوال للجلوس في المقهى، وصرت مداوماً على حلقة

رئيس الميناء، وحين أضجر، كنت أذهب إلى البحّار العجوز، في حي «العوينة»، نتحدث مثل أيام زمان، يوم كنّا نعمل معاً على الزورق.

كان عاطلاً عن العمل، وبحاجة الى القرش، وهو أحقّ بحراسة المنارة مني، وربما أقدر على ذلك، لكن حظي كان أطيب، وهكذا، في النهار، كنت أحدثه عما يقع لي في الليل، عما أشاهده، أحسّه، أفكر فيه، وأغريته، يوماً بعد يوم، أن يزورني مساء في المنارة، بدل أن يمكث في البيت، أو يذهب الى المقهى. كذلك اجتمعت بقاسم، فأخبرته بعملي الجديد. وراح، هو الآخر، يتردّد عليّ، وأحياناً ينام عندي، فنتحدث ونقرأ، ويشرح لي بعض الأشياء، ونشرب كثيراً من الشاي والقهوة. كان قاسم هذه الأيام، فرحاً، نشطاً، متحمساً، وكان يؤكد أن الحرب أصبحت وشيكة الانتهاء، وأن أشياء كثيرة ستتغير بانتهائها، وأننا، في سورية، سنحقق الاستقلال، وستخرج فرنسا ومعها بريطانيا. كان الآن صبوراً عليّ، أقلع عن استهزائه بأسئلتي. راح يعاملني بطيبة ولطف، وكنت أتحدث وهو يصغي. فإذا تدخّل وقاطعني، كان يكتفي بملاحظة عابرة، كأنما هو أب، أو مربٍّ، أخذ على عاتقه فتح عيني على الحياة.

سألته مرة، بقصد سماع تأكيده ليس إلاّ:

- كيف تجزم أن فرنسا ستخرج من سورية؟

- لأنها وعدت بذلك على لسان كاترو، تعهدّت أن تسلم باستقلال سورية عند انتهاء الحرب.

- وإذا لحست وعدها؟

- لا تستطيع..

- من يمنعها؟

- نحن..

- نثور من جديد؟

- بغير شك..

- وماذا أفدنا من الثورات السابقة؟

- المناخ الدولي تغيّر الآن.. ألمانيا في طريق الانكسار، والاتحاد السوفياتي..

- يحارب فرنسا لأجلنا؟..

- وما الحاجة إلى ذلك؟.. نحن لا نحتاج لمن يحارب بدلاً عنا.. كل ما نحتاجه الدعم، السلاح، الموقف الدولي، الدفاع عن قضيتنا عالمياً.. الآن كل هذا ممكن.. صدّقني كل هذا صار ممكناً..

لم أصدقه! أنا لا أفهم ما دخل المسكوب فيما نحن فيه، لا أريد أن يزعل قاسم، لكنه، في كل شيء يعلّق أمله على «المسكوب» مبالغة ! لماذا لا نعلق أملنا على غيره أيضاً؟

قال قاسم:

- هل تعرف عمر الدنيا؟

- وأنت؟

- لا أحد يعرف على الضبط. تاريخنا المكتوب قريب العهد.. لم يكمل الألفين بعد.. وتاريخ الدنيا طويل.. لا أحد يستطيع أن يعطي رقماً صحيحاً له.

أضاف:

- في البدء كان الانسان يعيش على الثمار البرّية..

كنا نجلس على طراريح في أرض المنارة. وكنت أعد الشاي على بابور الكاز وأصغي اليه، وهو يتكلم عن التاريخ والقبائل، والشعوب حتى نفد صبري فسألته:

- إلى أين تريد أن تصل؟
- ألا تحب التاريخ؟
- أحبه.. حديثك لذيذ.. لكنني أريد أن أفهم بكلمتين.. أنت تعرف ألاّ صبر لي..

أشعل سيكارة وتناول جرعة من الشاي. كان يفكر كيف يوضح لي الامور بكلمتين.. أخيراً قال:

- منذ التاريخ القديم، ومنذ أن اكتشفوا الزراعة والنار..
- حدثني.. إذن، كيف اكتشفوا النار؟
- لا تقاطعني.. اكتشفوها مصادفة..
- وما علاقتها بالسياسة؟
- ستعرف في المستقبل.. هذا حديث طويل.. ما أريد أن أقوله اليوم إنه منذ أصبح في الحياة سيد وعبد، صاحب عمل وأجير، بدأ الاستغلال والظلم والعدوان.. ولأول مرة، بعد ملايين السنين تقوم دولة تقضي على الاستغلال

والظلم والعدوان، وستمنع الحروب في المستقبل.

- ومن هي هذه الدولة؟ أنت لن تقول إنها المسكوب!...
- هي بعينها...
- وماذا يفيدنا ذلك؟
- يفيدنا أنه صار لنا دولة صديقة.. صار للمستغلين والمظلومين والمعتدى عليهم دولة صديقة.. هذا هو الجديد في الدنيا..
- أنت قلت إنها لن تأتي لتحارب فرنسا معنا..
- أنا قلت إننا نستطيع ذلك وحدنا.. إذا وقفت إلى جانبنا وساعدتنا.. لو كان هناك دولة قوية إلى جانب الثورة السورية ما فشلت.. ثم هناك العمّال، عمال العالم، وهناك الشعوب.. أليس مهماً كل هذا؟
- لا أدري.. يعجبني ألاّ يبقى استغلال ولا فقر ولا ظلم، وأنا مستعد لحمل السلاح، مثل والدي، ضد فرنسا.. هذا كل ما أفهمه من ديباجتك الطويلة.. فهل أنا على حق؟ وهل كان والدي على حق أيضاً؟
- والدك كان على حق..
- لكنه لم يكن يناضل لأجل العمّال أمثالك..
- كلّه واحد.. خروج فرنسا هو الأساس.. قبل أن تخرج فرنسا لا يتحقق للعمال ولا للبحارة شيء.. فهمت؟ نحن نعلّم العمال أن يناضلوا ضدّ فرنسا أولاً.. قبل التحرر لا نستطيع أن نتقدم اجتماعياً..

- إذن أنت الذي علّم والدي أن يفعل ما فعل..؟

- والدك وطني.. الوطنية لا تحتاج إلى علم.. هذا يأتي.. النضال يعلّم كل شيء..
- لكنني، أنا، لا أتعلم..
- لأنك لا تناضل..

قلت مازحاً:

- إسمع.. أنا لن أصير من جماعتكم.. قلت لك: لا صبر لي.. أنا حديد بارد.. سنوات وأنت تضرب، والنتيجة فالصو.. ألم تيأس..؟
- يئست.. لذلك دعني اقرأ.. لا تقل لأحد إنني أنام عندك.. هذا من باب الاحتياط.

تركته وخرجت في جولة. أمل خفي يداعب نفسي برؤية عزيزة، أو ذلك الصبي الأسود. اشتهي أن يقع حادث ما يغيّر رتابة حياتي. آه لو رأيت تلك الأشباح التي تعيش في منطقة المرفأ! لا علاقة لي بالمهربين واللواطيين، وكل أولئك الأوباش الذين يتسللون إلى كهوف الميناء، ويختبئون فيها. لو رأيت أحداً منهم لدخلت في عراك معه. حاجتي إلى العراك لا تقل عن حاجتي إلى الخمر، والمرأة، وعزيزة.. جفاف العيش قتلني.. يا رب، يا رب، أرسل لي من أتشاجر معه.. لا يعقل أن أكون حارساً وتمضي الشهور دون أن يقع حادث في منطقتي.

فوجئت عند عودتي إلى المنارة أن قاسم غير موجود. كتبه موجودة، علبة دخانه موجودة، أما هو فلا أثر له. انتظرت عودته دون طائل. هاجمتني الوساوس: أين ذهب؟ خطفوه؟ اعتقلوه؟ تذكر موعداً فركض إليه مسرعاً؟ يعود أم لا يعود؟ أي سرّ وراء اختفائه؟ تكون له صلات لا أعرفها؟ جاءت فلوكة فذهب على متنها؟ نقلته إلى زورق ينتظر في البحر؟ طلعت غواصة فذهب فيها إلى بلاد «المسكوب»؟

خرجت ثانية. أغلقت باب المنارة ووقفت في الظلمة. مشيت على شاطئ البحر. رأيت شيئاً أسود مكوّماً على الرصيف. تهيأ لي أنها ثيابه. كانت بقية شبكة قذفتها الريح من الميناء. خاب أملي. قاسم اختفى. هذا العدوّ لفرنسا والاغوات، يكون ضحية عدائه لهم؟ كانوا يراقبونه؟ اقتفوا اثره إلى المنارة، ثم انتظروا حتى خرجت فداهموه؟ ألهذا قال لي لا تقل لأحد إنني أنام عندك؟ ولماذا لم يصرخ؟ لماذا لم يقاوم؟ لا أثر لمعركة في المنارة. لا دم، لا شعر، لا فوضى.. ربما فاجأوه فوقع بين أيديهم.. أحاطوا به فلم يستطع المقاومة. امسكوه، كمّموه، أوثقوا يديه ورجليه.. آه أنا الذي أبحث عن معركة، تقع المعركة في منارتي ولا أدري؟ أي حارس أنا؟ يخطفون قاسم من تحت أنفي؟ ماذا أقول غداً إذا ثارت فضيحة بسبب اختفائه؟ وما هي مسؤوليتي إذا كانت هناك جريمة!؟

لم يظهر قاسم، ولا أحد سأل عنه. بحثت في الميناء، في المقاهي، طفت في الشوارع، انتظرت أياماً. عبثاً. لم أقع له على خبر. كنت أتحرّى عنه دون أن أذكر شيئاً.. خفت أن أقول إنه كان عندي، وإنه ينام أحياناً في المنارة. ازداد خوفي من فكرة أنه قتل، أو أُغرق في البحر.. رحت أمشي على الشاطئ، أجالس البحّارة، أصغي جيداً لما يقال، عسى أن أسمع شيئاً عنه، أن يذكر أحد حادثاً ما، أن يلفظ البحر جثته الى الشاطئ.. لكن جهودي كلها كانت سدى.

قصدت خمّارة توفيق. قلت في نفسي لعلّ أحداً من الصيادين أو البحّارة أخبره بشيء. كانت المدينة تحت حكم مثلث. السلطة الوطنية، السلطة الفرنسية، والجهاز السرّي الانكليزي. أيّ من هؤلاء خطف قاسم؟ من الذي اعتقله؟ إذا كان قد اعتقل فالمسألة سهلة. قاسم يعرف السجن وقد اعتاده. ثم هو حزبيّ، ولا بد أن يكون له جماعة يسألون عنه، ويقدمون احتجاجاً على اعتقاله. أكثر نشاطه كان محصوراً بين العمّال. كان يقول لي إنه مهتم بإنشاء نقابة لعمّال المرفأ.. وكان المتنفِّذون يعارضون ذلك، كانوا من أنصار الكتلة الوطنية، والكتلة هي الحاكمة، أيكون اعتقل من قبلها؟ تدبير ما من أرباب العمل؟ وشاية؟ تهمة كاذبة.. ما أسهل أن يخترعوا تهمة ويلبسوه إياها.. مسكين قاسم.. راح ضحية نشاطه السياسي والنقابي!

وجدت توفيق في حال أسوأ مما كان. ليس عنده سوى

قلة من الزبائن. لم يعد يقطف حشيشة البحر ويخلّلها. غرزة التحشيش انطوت. صار ضيعفاً أمام رجال الأمن، وحتى أمام الزبائن أنفسهم.. عاد يسألني عن راغب درويش. صار مهووساً بعودته. يترقبها كل يوم. يفكر فيها كل الوقت، يؤكد أنه سيذهب معه، يصير من رجاله، يشتغل في التهريب.

قلت له:

- أنت تبحث عن مجهول يا توفيق.. راغب درويش قد لا يعود أبداً.. هذا مهرّب عالمي.. الله يعلم أين صار، وما هي أخباره، ربما سجن، أو قتل، أو منع من الدخول..
- ولماذا يمنعونه من الدخول؟ أليس سورياً هو؟
- أنت تعرف أن السلطة في سورية لها أكثر من رأس.. فلو اعتقل راغب في فرنسا أو بريطانيا، أو حتى في مصر، فإن السلطات هنا تمنعه.. المهرّب أمثاله يلاحق دولياً.. هناك بوليس دولي خاص لملاحقة المهربين كما نعرف كلنا في الميناء.
- لكن راغب ليس مهرّباً عادياً.. ليس من السهولة الوصول إليه.. وعدني أن يعود..
- أنا نفسي فكرت به وبعودته ذات يوم.. لكنني وجدت فكرتي سخيفة.. أنصحك بالالتفات إلى خمّارتك.. حاول أن تعيدها كما كانت..
- لا يمكن، لا يمكن.. أنا انتهيت..

ساد الصمت بيننا. حزنت لحالته.. الحشيش كان عاملاً رئيسياً في شغل خمّارته وفي استمرار حياته نفسها.. دون حشيش لا يستطيع العيش، وهذا يحتاج إلى حماية ومال.. أبو الوفق سيعود لصاً كما كان، واللصوصية تقوده إلى السجن.

- اسمع يا توفيق! قلت له، لا تنتظر راغب درويش ولا تفكر فيه، مروره عليك، تلك الليلة، كان مصادفة، ظني أنها لن تتكرّر، كان خارجاً من السجن، لا يعرف أين يذهب، ولا أين يقضي ليلته، وربما عجز عن الاهتداء إلى مكان يشرب فيه نفساً من الحشيش، فجاء إليك، إنه مدمن، مغامر، مطلوب في كثير من الدول، والعمل معه خطر جداً، إضافة إلى أنه صعب، ويحتاج إلى قوة، وإلى شباب، أين أنت منهما في هذه السن؟.. راغب لا يريد عجزة، ولا عجائز، والوعد بالعودة إلى خمّارتك كان كلاماً.. جرّب أن تنساه..

- مع من أشتغل إذن؟ أنا لا أستطيع أن أشتغل لحسابي.. ليس لي مال، ولا شأن، أو عزم.. أصلح، في هذا العمر، أن أكون أجيراً.. ابحث لي عمن يستأجرني.. أنا قادر على بعض الأشياء، ولا يقف في وجهي شيء.. مستقتل.. أريد أن أنتهي، وأبحث عمّن يضع نهاية لحياتي.. هذا ما أريده.. أرجوك..

فكّرت أن أقوم بعمل مفيد لهذا الإنسان التعيس. البؤس أوصله إلى طلب الموت. اللعنة على حياة كهذه!. أليس من يد تمد له في شيخوخته؟ لماذا يدفعونه إلى آخر السلم؟ سقط كل الدرجات.. يكفي.. ماذا يريدون منه أكثر؟ لو يسرق، لهان الأمر، لكنه قد يقتل.. هو قال إنه سيرتكب جريمة ليدخل السجن.. ربما اعتدى على انسان بريء.. عندئذ من المسؤول؟ على من يقع دم الضحية؟.. وأنا؟ ماذا أستطيع لأجله؟.. كنت أتخلى له عن حراسة المنارة. هذا عمل يليق به. حرّاس المنارات يكونون من الشيوخ عادة.. من الذين عملوا في البحر حتى لفظهم.. لكن القانون لا يسمح. صاحب سوابق هو.. لص.. مهرّب حشيش.. وهذه ميناء. انه أصلاً ممنوع من دخول حرم الميناء. يطاردونه في كل مكان.. فقد الحماية فصار مطارداً.. لا بد أن يكون زلمة لأحد.. لا يستطيع أن يكون حراً.. ما أفظع كل هذا!.

قال توفيق باستسلام:

- قدرٌ مكتوب على الجبين يا سعيد..
- أنت بحار قديم.. تستسلم بعد طول عراك؟
- وماذا في يدي؟
- قاوم.. اكتفِ بتقديم القهوة والشاي.. امنع الحشيش والخمر..
- هذا الوكر لا معنى له دون حشيش، أو خمر.. لا أحد

يأتي ليشرب قهوة عندي..

عاد الصمت يلفّنا.. وفجأة قال:

- هناك، في الحقيقة، طريق آخر.. غير السرقة والقتل..

- ما هو؟

- أن أصير قوّاداً..

ضحكت.. حتى هذه المهنة غير متيسّرة بسهولة.. ينبغي البحث عمن يقوّد لها.. ولا بدّ له من حيلة، وقوة، وعراك بسبب المنافسة.. الرذيلة لها ثمن.. لا يكفي أن يقبلها المرء حتى يحصل عليها.. هذا هو قانون الحياة..

قلت:

- حاشا يا أبو الوفق.. أنت لن تصير قوّاداً في هذه السن..

- ولماذا؟

- لا أدري.. هذا عيب..

- واذا لم أسأل عن العيب؟

- من لا يسأل عن العيب يفعل ما يشاء..

اشعل سيكارة:

- أنا لا أسأل عن العيب كما قلت لك، لكنني لن أفعل.. فكرت بهذا الأمر ورفضته.. السرقة أفضل من القوادة.. أدخل السجن عندئذ برأس غير منكّس..

- كله سيّئ.. حرام..

ضرب الطاولة بقبضته:

- أي حرام هذا؟ أموت جائعاً ككلب؟ لا.. حتى مع العجز

أقوى على الشر.. الذئب الذي تراه مقابلك كانت له أسنان.. والآن سيعض على النيرة[1]

- أنت ترفض نصيحتي إذن؟
- لا أرفضها.. الزمن هو الذي يرفضها.. القط، إذا ضاقت الدنيا في وجهه، خرمش.. هل أنا أقلّ من قط؟ خدمت كل أولاد العاهرة.. كل أصحاب المراكب تعاملت معهم، وها أنا شحّاذ.. وهم.. ألا تعرف كم يملكون؟
- وماذا تجدي الحسرة الآن؟
- لا شيء.. في هذه معك حق.. كان يجب أن أفكر وأنا شاب.. انقضى العمر.. سرقه أولاد القحبة..

في المساء، حين عدت إلى المنارة، كنت حزيناً لأجل توفيق. أهذه نهاية البحّار؟ والدي، إذا رجع، يلقى هذا المصير؟ وأنا، في آخر العمر، أشتهي الموت لأتخلص من حياة نتنة كهذه؟ وهؤلاء البحارة وعمّال الميناء، وكل فقراء مدينتنا، يواجهون، في الختام، نهاية سوداء كهذه؟ ربما حياة أقل سواداً، لكن العوز، والمرض، والفقر أشياء مفروضة عليهم، وفقدان السند، الرعاية، امكانية العيش اللائق، وحتى المستور، لا تتوفر للناس، بعد كل ركضهم وكدحهم منذ البداية إلى النهاية.. وماذا يستطيعون؟ القط، كما قال توفيق، يخرمش، وهم يخرمشون أيضاً.. يسرقون، يقتلون،

(١) اللثة.

يقطعون الطرق.. لكن هذه، بعد كل شيء، تصرفات لا أخلاقية، والدي يرفضها، لقد فضّل عليها طريقة أخرى، الخروج بالسلاح على القانون، وقاسم اتبع طريقاً آخر: العمل الحزبي، توعية العمّال، تأليف النقابات، لكن والدي دفع الثمن، وها هو قاسم يختفي. كلاهما راح ضحية نشاطه، كلاهما تعذب، ترك بيته، أهله، وخرج على القانون، الأول ضدّ فرنسا، والثاني ضدّ الزعماء.. ضدّ أصحاب المراكب والاقطاعيين والتجار، فما الجامع بين الطرفين؟ قاسم قال: «فرنسا أولاً. إذا لم نتخلص من الاحتلال فلا حياة لنا» لكنه، مع ذلك واجه أرباب العمل، وهذا ما فات والدي.. ترى، لو لم يختف في تلك الباخرة، كان يفعل كما فعل قاسم؟ يستطيع هذا أن يجرّه إلى صفِّه؟ يدخل معه في الحزب؟ على زمن والدي لم تكن أحزاب.. كان هناك رجال يعملون في السر، وكان قاسم واحداً، منهم، وقد قال لي: «أبوك فرد، ووحيد» قلت له: «والدي مع الثوّار» فأجابني: «أعرف.. لكن الثوّار مع من؟» مع أنفسهم «هذا لا يكفي».. إلى جهنم الحمراء بكل تعقيدات قاسم.. لا تدري، على الضبط، ماذا يريد.. هل كان يطمح إلى تأليف نقابة للثوّار أيضاً؟ وإذا فرضنا أن جميع العمّال دخلوا في نقابات، فماذا في النتيجة يفعلون؟ أصحاب الأراضي هم أصحاب الأراضي، وكذلك المراكب، ولا أحد يسمح بامتداد يد إلى أملاكه. يقطعها لو امتدت.. وفي هذه الحال، وما داموا يملكون كل

شيء. حتى الرجال والسلاح فماذا يخافون؟ ومقابل قوتهم هذه. ماذا يملك العمال؟ الشراشير[1]؟ العصي؟ الخرمشة كما قال توفيق؟ أيّة معركة ستكون؟ أين التكافؤ فيها؟ وفرنسا، عندئذ، مع من تقف؟ هل لهذا يحقد قاسم على فرنسا، وهل يعمل لاخراجها لهذا السبب بالذات؟ يفكر إلى بعيد ابن امه.. فهمت.. والريّس عبد الحميد فهم أيضاً.. يكره قاسم.. قال إنهم سيشنقونه.. قاسم خرج من السجن.. لم يُشنق، ولم يمت.. لكنّه اختفى.. وهذا أسبوع يمرّ على اختفائه.. هذه الليلة فكرت أكثر من عشر ليال.. كنت وحيداً، ساهراً، وإبريق الشاي يغلي، والريح والمطر في الخارج، وهدير البحر، والمنارة تفتح عيناً وتغمض عيناً.. الحيوان، في الوحدة، يفكر.. تراه بماذا يفكر؟ هل للحيوان هموم مثل الإنسان؟ تؤلف الحيوانات نقابة أيضاً؟ لها أعداء وأصدقاء الغابة والمدينة.. وما الفرق بينهما؟ القوي يأكل الضعيف.. في البر والبحر وكل مكان..

ضاق صدري، حسدت والدي على جرأته وحسمه في اتخاذ القرار. جاع الناس في اسكندرونة فخرج ينهب مخازن الحبوب، اعترضته الشرطة فقاوم.. «الكريزة» صدّرتها فرنسا إلى سورية.. هذا ما أدخلوه في رأسه، فمشى إلى غايته بوضوح: حمل السلاح ضد فرنسا. هكذا الرجال

(١) جمع شرشور.. وهو حديدة معقوفة تساعد العامل في حمل الأكياس على ظهره.

يضربون في الملآن. العدو واضح، كذلك كان في مرسين، وفي اسكندرونة.. اما هنا فلا أحد يرفع يداً، ماذا ينتظرون اذن؟ آه لو عاد قاسم. كنت أسأله سؤالاً واحداً: «لماذا لا تفعل كما كان يفعل والدي؟» ولكن إذا سألني بدوره: وأنت؟ ماذا تفعل؟ تحمي الحكومة؟ أجير عند الحكومة؟ صرتَ برغياً في الآلة؟ لا يا قاسم.. لست كما تظن.. أنا مستعد أن أهاجم المستشار في قلب السراي.. أقتله وأُقتل معه.. هذا أسهل عليّ من العمل معك.. ضربة واحدة وينتهي الأمر.. لا أطيق الصبر مثلك.. لا أطيق أن أكون نملة، تبني على مهل، تتموّن على مهل.. وتعيش على مهل أيضاً..

الماء يغلي في الإبريق، بخاره يتصاعد. حسناً، اعددت الشاي وشربته. في الخارج ظلمة، برد، ريح ومطر. صعب أن أقوم بجولة الآن. حاولت القراءة في الكتب التي تركها قاسم فلم أجد متعة. سحبت مسدسي من بيته ونظفته. نوّست الضوء وقبعت في العتمة. أرهفت السمع. دندنت بأغنية. آه ما أطول الليل! كم الساعة يا ترى؟ لعل ساعة السراي قد دقت ولم أسمعها. صوتها ضاع في الريح. البحّار العجوز انقطع عن زيارتي. البرد منعه من الخروج، كنت أستمتع بحكاياته.. لماذا لا أحفظ الحكايات؟ يقولون إنّ النار تسلّي الحراس، يشعلونها للتدفئة والتسلية. النار تتكلم.. تأخذ مع الانسان وتعطي. أنا لا أشعل النار. ممنوع

ذلك في المنارة. ممنوع شرب العرق أيضاً.. وماذا هناك حتى فرضوا كل هذه الممنوعات؟ منذ تسلّمت الحراسة لم يقع حادث واحد.. بودّي لو يحدث ما يبرر هذا السهر. لو جنح مركب لفهمت ضرورة المنارة. لو ظهرت غواصة معادية واكتشفتها لاقتنعت بأن ما أفعله مهم. الميناء أقفرت.. حتى المهربون واللواطيون هجروا المنطقة.. وعزيزة ليست هنا. عزيزة ضاعت، وكاترين رحلت، إنها في أحضان اليوناني الآن.. قال إنه سيعود.. أحبّ اللاذقية، سيعمل مرشداً للسفن. تراها تعود معه؟ إذا مررت في بلاد اليونان ورأيتها، يحن دمها إليّ؟ تتذكر مدينتها؟ تتذكر تاريخها فيها؟ تبقى مع اليوناني أم تستبدله؟ تملّ منه وتتركه؟ تعشق عليه؟ تدفعه إلى الموت وتعلِّق رأسه فوق عتبتها؟ كاترين! يا كاترين!.. لن تفلتي مني إلى الأبد.. سأتبعك إلى بلاد اليونان، إلى الهند والسند وبلاد الجان.. ومرّة، حين نلتقي، لن نفترق بعدها، ولن تكوني زوجتي. لن أتزوجك. ستصبحين عشيقة الابن كما كنت عشيقة الأب.. ولن تخرجي من تحت فخذي بعد ذلك.

مللت. مللت. مللت. الليلة تشبه أختها. السهر نفسه، الصفن نفسه، والأفكار ذاتها. لماذا لا تفيض البحار كالأنهار؟ لو حدث فيضان لتجدّد شيء ما في حياتي. لو انتحر مخلوق ما.. في بحرنا لا أحد ينتحر.. لماذا أيها الناس لا تنتحرون؟ تحبون الحياة إلى هذا الحد؟ حب حياة أم

جبن؟ وهذا التوفيق الذي يفكر بالسرقة والقتل والسجن ولا يفكر بالموت، لماذا لا ينتحر ويستريح؟ هل العشاق وحدهم ينتحرون؟ أليس من عشّاق في بلدنا؟ مرة واحدة حدث ذلك، البحّار العجوز حدثني عن فتاة انتحرت. قال إنها فعلت ذلك بسبب الحب، بعد ذلك أقلعت الفتيات عن الانتحار. صرن يذهبن إلى الدير أو يبقين عانسات، يجب أن ينتحر إنسان ما. واحد على الأقل، يفعلها هنا، قرب المنارة، ويجتمع الخلق، فأتعرّى أنا وأغطس.. مرة ومرة وثالثة، وإذا الغريق بين يدي، وأنا أصعد به إلى فوق، وبعد ذلك يكون التحقيق، سين وجيم، تكون القصص، والأسئلة، والضجة في هذا المرفأ الملعون الذي أقفرته الحرب، وزاده الشتاء وحشة وكآبة.

مع الأسف لم ينتحر أحد. وقع ما هو أسوأ. وقع ذلك الشيء الذي كنت أخشاه. مات قاسم غرقاً! الأصح أنهم قتلوه ورموه في البحر، وبعد أيام ظهرت جثته على الشاطئ، وفي جسمه طعنات الخناجر. كنت قد انصرفت من المنارة، في الصباح الباكر، ماراً بمقهى الميناء، لشرب فنجان من القهوة، حين وصل النبأ المهول اليها: عثروا على جثة غريق على الشاطئ، قرب ميناء الزجاج! بعد قليل جاء صياد وروى التفاصيل. قال إن الناس يتجمعون حول الجثة. الحكومة حضرت والتحقيق بدأ، في الأمر جريمة، لكن الرجل ظلّ مجهولاً، لم يعثروا معه على أيّة أوراق تكشف هويته..

ركض بعض البحارة وركضت معهم. أحسست انقباضاً في قلبي، كأن النبأ حجر هرسه. لم أكن أعرف الغريق، لكن هاجساً ألمّ بي. وحدي كنت أعرف أن قاسم قد اختفى قبل أيام. كان اختفاؤه، فجأة من المنارة، دليل شؤم. سألت الله ألاّ تصدق وساوسي، وأن يكون القتيل إنساناً آخر، لا أعرفه، وألاّ يكون لي دخل في الموضوع، لكن الله رفض دعائي، كان الغريق، بكامل ثيابه، ملقى على الرمل، والخلق مجتمعون من حوله، وأفراد من الشرطة يحرسون الجثة. بصعوبة اخترقت دوائر المتجمعين، مددت رأسي. كان الوجه أزرق، والشفتان منتفختين قليلا، والشعر الخرنوبي ملتصقاً بالرأس، يغطي طرفاً من الجبين، واليد اليمنى مسبلة على جانب الجثة، والأخرى معقوفة الى أعلى، والقدمان ما تزالان على حافة الماء، فوق الرمل المبتل، وبعض التشوّه قد ظهر على الملامح، عند الفم والعينين.

من الطلة الاولى، سقطت نظراتي على الرقاقة اللحمية بين الإصبعين، أيقنت انه هو، وإذا كان أحد ما لم يتعرّف عليه بعد، فذلك لأنه شبه مقطوع، لا أهل له في المدينة، وما كان على صلات اجتماعية واسعة بالناس. جفّ ريقي في حلقي. صرخت في داخلي: «ويلاه! مات قاسم!» كدت أبكي لولا تماسكي بجهد بالغ. أحسست برجفة في بدني. ذهلت لبعض الوقت. تناوبتني هواجس قاتلة.. أنا وحدي، بين هذا الجمع، من يعرف الغريق. إذا التزمت الصمت

ظلّت الجثة مجهولة. لفلفت القضية وضاع القتلة.. الحكومة لن تتعب نفسها في الكشف عنهم. انهم منها. السلطات الفرنسية ليست بعيدة عن الجريمة، وكذلك زعماء المدينة، أو بعضهم على الأقل، للجريمة علاقة بنشاط قاسم السياسي، الجريمة سياسية تماماً، لكنّهم إذا تكلمت، وقلت ما أعرف، حوَّلوها إلى جريمة عادية، وألصقوا التهمة بي، ماذا أفعل يا ربي؟ أتكلّم وأسلّم نفسي للسجن، وربما للمشنقة؟ أصمت وأدع دم هذا الصديق مهدوراً؟ أنا لا أستطيع أن أفضح علاقتي به، ولا مبيته، بعض الليالي، في المنارة. إذا قلت لهم إنه كان عندي واختفى، حامت الشبهات حولي، كان عليّ أن أخبر السلطات منذ اختفائه، الآن فات الأوان، عليّ أن أبتعد. أن أعضّ على شفتي. ما هذا وقت البكاء. ما هذا وقت الاحتجاج، إنني أعرف القتلة. أنا لا أعرفهم بالاسماء، ولكن من له مصلحة في موت هذا المناضل؟ كان ضدّ فرنسا والاقطاع، ضد الاحتلال والفقر في المدينة، كان يناصر العمّال ويسعى لتأليف نقابة في الميناء. الذين خافوا نشاطه هم الذين قتلوه.. المستشار، ورجال الكتلة، وبعض أصحاب المراكب، والريّس عبد الحميد من بينهم. هذا شتمه في المقهى، تمنى أن يشنقوه حين كان سجيناً.. لماذا لا يكون هو ورجاله الذين قبضوا عليه، وطعنوه حتى مات، ثم القوا جثته في البحر؟ يا إلّهي يمكن أن يفعلها الريّس عبد الحميد؟ يبلغ حقده على قاسم درجة اغتياله؟ في الانتخابات

الماضية وقف قاسم ضد الكتلة.. حرّض الناس في الميناء. عمل لمرشح آخر، من الجبهة المنافسة. لم يكن لحزبه مرشح في المدينة، لكن منافسي الكتلة تعاونوا معه. كان وجوده كفيلاً بكسب أصوات كثيرة بين البحّارة وعمّال الميناء.. كان ذكيّاً، نشيطاً، محبوباً، كان خطراً واضحاً ضدّهم.. كانوا يحسبون حسابه، في النهاية اتفقوا على قتله.. لا يريدون في المدينة وجهاً جديداً، صوتاً جديداً.. الأخطر كان نشاطه بين العمّال. هذا ما لم يغفروه.. بموته تعود الاشياء الى ركودها، مياه الميناء لن تتعكر. لن تضطرب. لن يكون نوء ولا عاصفة.. انكسرت الريح التي كانت تحرك العاصفة.

«قاسم! يا قاسم! يا صديق العمّال والفقراء.. كيف لم تحتط؟ لماذا لم تحمل سلاحاً؟ لماذا لم تصرخ؟ هل كنت تحدس أنهم يتعقبونك؟ قلت لي: «لا تخبر أحداً أنني أنام أحياناً في المنارة» كنت تهرب من ملاحقتهم؟ كانوا يطاردونك وكنت تعرف ما يريدون. لا بد أنهم هددوك طويلاً. أنت لم تخبرني بذلك.. التهديد لم يكن شيئاً بالنسبة إليك، لم تأبه له. قدّرت خطرهم وتحديتهم.. وازنت بين الموت والقضية. تمسكت بالقضية، كنت رجلاً، رجلاً دفع الثمن.. مت.. والقضية ماتت من بعدك.. ألم تمت؟ من يدري.. إنني لا أدري..

كنت أقف جانباً، كان المطر رذاذاً. غيم في السماء. رؤية مغبشة على البحر. والموج يرتطم بالشاطئ، يتكسر على

الصخور.. والناس يأتون ويذهبون.. يحدّقون في الجثة. بعضهم ينحني فوقها. بعضهم يخاف ويتراجع، الصبية يتدافعون.. الأصوات تتداخل. وصل النائب العام. سأل عما إذا كان أحد قد تعرف إلى الجثة، جاء الطبيب الشرعي، عاين الطعنات في الصدر والبطن. تهامس مع النائب العام، فتح الشرطي دفتراً وكتب ما قاله الطبيب، قلبوا الجثة، وضع الطبيب أصبعه في فتحة أحدثتها مدية.. أعادوا الجثة إلى وضع الاستلقاء.. قام الشرطي بردّ الجمهور إلى وراء.. وفجأة اقتحم الدائرة بعض العمّال. أمسك أحدهم بيد القاتل. حدّق في الرقاقة اللحمية بين الاصبعين وهتف: «هو.. إنه هو.. قاسم عبد الصمد» تدافع الناس إلى امام. أشهر الشرطي عصاه وهددهم. صاح النائب العام بالعامل الذي تعرّف على الجثة:

- من أنت؟
- أنا من رفاق القتيل..
- هل أنت واثق مما تقول؟
- تماماً.. هذا هو قاسم، وهذه هي الرقاقة اللحمية..
- متى رأيته لآخر مرة وأين..؟

قال العمال دفعة واحدة:

- كلّنا رأيناه.. كان عندنا في الميناء.. ثم اختفى.. حسبناه اعتقل.. كنا نعرف أنه مهدّد..
- ممّن؟

- من فرنسا.. من السلطة، ومن الزعماء..
- لماذا؟
- لنشاطه السياسي.

وقال أحد العمّال:

- هذه جريمة سياسية.. لقد قتلوه.. لن نسكت على الجريمة..

وصاح به مفوض الشرطة:

- اخرس.. جاوب على أسئلة حضرة النائب العام فقط.. دع الامر للحكومة.. لا تتسرع وتتهم أيّة جهة.. لا نريد شغباً في المدينة..

استمر التحقيق وقتاً آخر قصيراً.. خلال ذلك وصل رجال آخرون تعرّفوا على الجثة. كانوا من العمّال، وأصحاب المهن، والطلاّب.. أقفل محضر التحقيق. أمر الطبيب الشرعي بنقل الجثة إلى المستشفى الوطني للتشريح.. تفرّق الجميع. الرذاذ يتواصل، تكاثف الغيم واسودّ. لم يبق غيري على الشاطىء. كلهم تكلموا إلاّ أنا.. تحدثوا عن آخر لقائهم به، عن انطباعاتهم، خواطرهم وليلة الحادث. بقيت صامتاً، من منهم يعرف أن قاسم كان عندي تلك الليلة؟ من يظن أنه اختطف من منارتي، وأنني الشخص الذي يكتم الخبر في صدري ولا يستطيع البوح به؟ لقد خفت أن أتهم بالقتل، فتتحول القضية من جريمة سياسية

كما هي في الواقع، إلى جريمة عادية وربما لفّقوها وصوّروها على أنها خلاف على امرأة.

سرت عائداً باتجاه ميناء الزجاج، شعرت، لأول مرة في حياتي، بحزن كبير كالبحر، كالجبل، كالسماء الرمادية. امتلأ صدري بالحقد. حقد أسود بغيض، كنت وحدي أعرف.. وحدي أكتم.. وحدي أعاني.. لو كان والدي إلى جانبي.. لو وقع القتل على رجل آخر، وكان قاسم حياً لهرعت اليه. كنت أفضي إليه بما أعلم، أتخفف من وطأة عذاب نفسي أليم. أفعل كما يطلب مني. أجعله شاهداً على براءتي، شاهداً على الحقيقة، أسلم نفسي للسجن وأدع له أن يدافع عني، أن يجعل من هذا الموت قضية أكبر من الموت، صراعاً بين الذين، في أطراف المدينة، يعانون من الظلم، من الجوع، من جور أصحاب العمل، وبين الذين، في القصور، والسراي، والكازينو يتنعمون، ويقامرون ويفسقون..

شربت، ذلك اليوم، في خمّارة توفيق كمية من العرق تقتل ثوراً، كنت أريد أن أنسى، أن أهدأ، أن أطمر سرّي في صدري. وكان توفيق يعجب لحالي، كما عجبت، قبلا، لحاله، وكلانا غارق في بؤس شديد، وفي رأسه هذا السؤال: «أنتقم ممن؟»

بعد شهر طردوني من العمل. عبثاً بحثت عن السبب. رئاسة الميناء عزت ذلك لتقصيري. زعمت أن شكاوي

جاءتها حول إهمالي، مما تسبب في انطفاء المنارة في إحدى الليالي.. لكن الريّس عبد الحميد صارحني: «أنت يا سعيد خيّبت ظنّنا.. جعلت من المنارة ملجأ لبعض الناس..» ولم يكمل.. عرف أني فهمت.. وعرفت من يقصد وتأكّدت شكوكي.. لكن من يثبت ذلك؟

ضاع قاسم. لا لم يضع. ضحّى. ذهب ضحية أفكاره، وهذه الأفكار، تعيش من بعده؟ لقد زرع. لكنه لم يحصد زرعه. الزرع لم ينم.. ما زال في الارض، وهذه القسوة، هذا البطش، هذا الشتاء الجليدي، يقضي على تلك البذور؟ كان، كما قال، يضرب على حديد بارد، ترى، سخن الحديد؟ استطاع هذا «الحدّاد» الماهر أن يطرق فأساً، مطرقة، منجلاً، سكة فلاحة؟ وهؤلاء العمّال الذين تجمّعوا حول الجثة؟ جرأتهم في الكلام مع مفوض الشرطة والنائب العام، كانت ظاهرة، أفلا يخافون؟ أنا سكتّ. هل كنت جباناً فسكتّ؟. لم أقل شيئاً.. قد يكون كلامي، دون استشارتهم، غير مفيد، لكن كلامي، معهم بالذات، قد يكون مفيداً. عليّ أن أعثر عليهم، كان عليّ أن أذهب معهم وراء الجثة. هناك في المستشفى، كنت أنضم إليهم.. لقد فاتني ذلك. لم يعد الأمر ضرورياً الآن. لن يؤدي إلى اكتشاف القتلة. هم اكتشفوا القتلة. دلّوا عليهم، في منشوراتهم، في صحيفتهم، أكّدوا أنّ الذي قتل قاسم اثنان: فرنسا

والحكومة. ليست فرنسا بالذات، بل عملاؤها. ليست الحكومة باليد، بل بأيدي زلمها.. هذا واضح.. وقد عرفوه، قالوه، صرخوا به، والعمّال عرفوا، وكذلك الفقراء ومن يعنيهم الأمر. الذين كان قاسم يتوجّه اليهم، ويخاطبهم، ويناضل لأجلهم.. كل هؤلاء رأوا القتيل، والقاتل، وأدركوا سبب الجريمة، ومن وراءها، وأنا أدركت مثلهم، لكنني لا أعرف القاتل شخصياً، ولن يزيد كلامي شيئاً.. كل ما أستطيعه هو اتهام فرنسا، والحكومة، والظنّ بالريّس عبد الحميد، برجاله، لكن من هم رجاله؟ إنهم رجال الكتلة، أي الحكومة، وهذا ما عرفه الجميع.. لقد مات قاسم.. مات ولن يعود.. ولكن ألن يكون هناك امثاله؟ بلى سيكون. بل هم كائنون.. موجودون، وسألتقي بهم يوماً.. عندئذ سأقول ما أعرفه.. أمّا الآن فلن يكون مجدياً كلامي. ماذا يعني أن يعرفوا أن قاسم خطف من المنارة؟ هذا لا يزيد ولا ينقص، ما دمت لم أر الخاطفين.. مع ذلك قلت لهم.. وكتبوه، ونشروه، وكنت شاهداً في التحقيق.. وبرغم هذا حُفظت القضية.. قُيِّدت ضد مجهول..

لم أستطع النوم خلال أيام من مقتله. لم أسترح حتى بحت بالسرّ. ولم تجرؤ السلطة أن تتهمني.. كنت صديقاً لقاسم.. وكانت الحكومة تريد لفلفة القضية، وقد أفلحت فيما أرادت. أما أنا فقد تعذبت. لو طلب مني أحد أن أقتل الريّس عبد الحميد لفعلت، رغم موقفه الطيب مني، لكن هذه الفكرة لم

ترق لأخد. قالوا لي: «نحن لسنا قتلة مثلهم.. نترك ثأرنا للمستقبل؟ » وقلت في نفسي: «آه أيها المستقبل! كم يحملونك وكم تحمل. ترى تحقّق الآمال؟ تنتقم لقاسم؟ » ورحت أفكّر في نفسي.. الآن أيقنت أن الاسى لا يفيد.. الأهم، إذا كنت رجلاً، بحاراً، عاملاً في الميناء، فقيراً، ألاّ أقضي عمري مثل توفيق الخمّار، بل مثل قاسم.

لقد كانت بدايتي جيدة. لن أنسى أنني سجنت لأجل الوطن.. هذا شرف.. والدي سيفتخر به.. غير أنه، إذا علم بما تلا ذلك سيغتمّ.

مع ذلك لم أكمل الطريق.. تراجعت.. أنا لم أقف ضدّ، لم أخن، لكنني لم أتقدّم.. وكل أقوال قاسم لم تفلح في أن تجعل مني مناضلاً.. أعرف السبب: قلّة صبري. لا أشكو الخوف، ولا الإقدام. علّتي في نفاد صبري، لا جلد لي على ضرب الحديد البارد. أنا نفسي حديدة باردة، لم يستطع قاسم أن يطرقها، أن يصنع منها ولا مفتاحاً.. «اللعنة عليك يا سعيد! اللعنة عليك يا سعيد! ».

بأشكال مختلفة، بصورة متباينة، بكلمات صامتة، لا ترابط بينها، كنت أتحدث إلى نفسي بكل هذه الأفكار. لم أجد من أتحاور بها معه. توفيق حيوان، يظلّ مسطولاً من الحشيش، مخموراً من العرق، فإذا صحا ندب حظه.. هذا لا يفهم عليّ. لو أعطاه ربه حظاً من الفهم ما انتهى هذه النهاية. والريّس عبد الحميد صار بغيضاً إلي. تبدّل موقفه

مني، وصرت أتساءل: «هذا الانسان أين موقفه السابق من فرنسا؟ لقد تعاون مع فيشي، ويتعاون الآن مع فرنسا الأخرى. صارت الكتلة في الحكم. «نحن الحكومة». قال مرة. ولكن ماذا تفعل هذه الحكومة؟ ما زالت فرنسا موجودة خلال حكمها. البطالة، الغلاء، الفقر، وكل شيء على حاله، فأيّ حكم وطني هذا؟

كنت قد قلت لقاسم، مرة، ونحن في المنارة: «أترى كيف تبغدد جماعة الكتلة؟» قال: «هذا لا بدّ منه. الكتلة ما ناضلت ضدّ فرنسا من أجل الشعب بل لأجل مصالحها... هذه مرحلة لا بدّ منها.. وبعد ذلك يأتي الفرج.. المهم أن تخرج فرنسا.. الكتلة لن تخرجها. الحكومة ليست حازمةفي موقفها من فرنسا، لكن الظروف سترغمها.. حين نناضل جميعاً، ويقوم الشعب قومة رجل واحد، ستجد الكتلة نفسها مضطرة لاتخاذ موقف حازم..» قلت: «ولماذا تغيّر موقف الريّس عبد الحديد؟» قال: «أمثال هؤلاء لا يكون لهم موقف ثابت على طول»، «لكن الريّس عبد الحميد كان متطرفاً في موقفه من فرنسا»، «زعماؤه كانوا كذلك.. كانوا يريدون الحكم، وصلوا الآن، هذا شوطهم وانتهى.. أداروا ظهرهم للشعب الذي كانوا يستنجدون به.. لم يعد لهم معه شغل.. الشعب يريد الوصول الى مسافة أبعد.. هم لا يريدون.. في المسافة الأبعد يذهبون هم أيضاً.. ستوب!. يريدوننا أن نقف في محطتهم.. لكننا لن نقف.. ما ناضلنا

لأجل الاستقلال كي يقطفوا الثمرة هم.. لهم دور الآن، وبعد ذلك يجب أن يذهبوا..»، «ومن يأتي مكانهم؟»، «لا أدري بالضبط.. لنقل الرجال التقدميين»، «وأنتم؟» أشعل سيكارة. ابتسم.. قال: «كنت أعرف الى أين تريد أن تصل.. أنت مستعجل.. دخّن، يا شيخ سعيد، غير مستعجلين. محطتنا بعيدة بعد.. يكفي ان تخرج فرنسا، أن يقوم الحكم الوطني، أن تكون هناك حريّات.. أن تتألف النقابات.. أن تتغيّر احوال الشعب، وهذا جيد.. نحن مع حكم كهذا بكل قوانا.. تحسب أن كل هذا سيصير في سنة؟ في سنتين؟ لا.. ولا في عشر سنوات..» قلت: «أف!» قال: «هذا هو.. أف!. أنت تظن عشر سنوات مدة طويلة.. لا.. طرفة عين.. الزمن مسرع، لكن الاشياء لا تتغيّر بسرعة.. سنواجه مصاعب كثيرة. الذين كانوا ضد فرنسا، سيكونون ضدّ بعضهم في المستقبل.. بل بدأوا منذ الآن.. ألا تقول إن الريّس عبد الحميد تغيّر.. إنه الآن ضدنا. بيننا صراع..» «وأين هو الصراع؟»، «أنت لا تراه.. إذا كنا لا نرى الشيء الصغير فليس معنى هذا أنه غير موجود.. لكن الشيء الصغير سيكبر، وعندئذ يراه الجميع.. دعني أنم الآن.. يكفي ما حكينا».

والذي حكيناه لم يزد إلا في تشويش ذهني «المعركة لا تنتهي بخروج فرنسا إذن! كذلك لا تنتهي بالحكم الوطني، متى تنتهي إذن؟ الشيطان وحده يعرف» قاسم تنبأ

بالمصاعب. كان يعني الموت أيضاً؟ كان يشك في نوايا رجال الكتلة، يعرف أنهم لن يغفروا لمن يحرّض العمّال؟ رأى الموت ولم يخف.. بعده من يأتي؟ ماذا يحدث في المستقبل؟ نقوم على بعضنا؟ والدي ظنّ أن خلاصنا من الأتراك هو الخلاص. ثم رأى أن فرنسا في طريقنا، فعمل للخلاص منها.. تراه كان يتقدم ويعادي الريّس عبد الحميد؟ يظلّ مع قاسم وأمثاله؟ في أيّة محطة كان يقف؟ أنا وقفت في المحطة الاولى.. هذا أنا.. تنبل.. تلهّيت بالنساء.. بالسكر.. فكرت براغب درويش.. ابتعدت كثيراً عن الطريق.. والآن.. ماذا أفعل؟ قاسم مات.. أنا مع جماعته.. لم أنتظر حتى تجمعني المصادفة بهم، بحثت عنهم ووجدتهم.. أنا في الميناء على كل حال.. أبعدوني عن المنارة ولكنهم لن يستطيعوا إبعادي عن الميناء.. هنا سأبقى.. هنا سأبقى..

لا.. كنت كاذباً. أخجل كلما فكرت أنني كذبت كثيراً في حياتي. ماذا كان ينقصني لأكون صادقاً؟ فضّلت السفر على الميناء. كنت، بعد الحرب العالمية، وبعد خروج فرنسا، وبرغم الريّس عبد الحميد، قادراً أن أبقى في الميناء، أن أجد عملاً في زورق، في مركب، في أي مصلحة.. لكن بحاراً، من حارة الكاملية أغراني بالسفر.. كان أكبر مني سناً، له تجربة في البحر، ويعرف بلاد بره. اسمه عمر الدندي. كان عائداً لتوّه من السفر.. قال لي وقد التقينا في

إحدى الخمّارات: «أنا في فترة إجازة. أنا أجزت نفسي. تركت الباخرة التي كنت أعمل عليها. اشتقت إلى البلد. لا أستطيع قضاء عمري في باخرة واحدة. تغيير البواخر مثل تغيير الوجوه، رحمة. يتعرّف الإنسان إلى خطوط بحرية جديدة، قباطنة جدد، بحّارة جدد، ويزور بلده بين كل عمل وآخر.. يرى أهله، يعود إلى زوجته وأولاده، أو يخطب ويتزوج إذا كان أعزب.. أنا لم أفعلها.. ما حاجتي إلى امرأة لا تستطيع السفر معي؟ أتركها في البلد حتى تركّب لي قروناً؟.. أعرف جنس النساء.. لا أمانة له.. لا أقول إنني لن أتزوج، لكن معي وقت. على مهل إلى أن أجمع قرشين.

لقد اشتريت بيتاً لأهلي.. عدت بقليل من المال، واستدنّا.. لا بدّ من السفر، مرّة أخرى، لسداد الدين.. أتمهل قليلاً حتى أستريح.. أشبع من اللاذقية، من الأرض، العمى.. في الباخرة ليس إلاّ البحر.. تصدِّق؟ تصدق أننا لا نرى اليابسة، ولا ندعس الأرض في شهر أو شهرين؟ لكن البحر حلو يا سعيد، والسفر حلو، والكسب حلو.. هناك متاعب.. لكن هناك فلوس.. إذا كنت شاطراً تربح.. إذا هرّبت بعض الأشياء، بين ميناء وأخرى، تربح أكثر. طظ في هذه الدنيا.. أتعاطى كل شيء.. في اللاذقية أنفق بعض ما جمعت.. قسم صغير فقط.. أنفقه في المقاهي والخمّارات.. البحّار.. إذا عاد إلى بلده، يعرف نفسه في الميناء، يتباهى،

يتردد على الخمّارات.. يستأنس بالجو.. يفتح يده قليلاً.. يجمع حوله بعض البحّارة، بعض الأصدقاء، يشرب، يحكي، يدعوهم على حسابه.. عيب، بعد كل هذه الرحلة أن يبخل المرء على نفسه، أو على من حوله.. هذا لا يجوز، وإذا كان يتعب لكي يعيش، فمتى، بالله عليك، يعيش؟ نصف دخلي أنفقته على الشراب والنساء.. لا أريد أن أحرم نفسي.. المرأة تريد فلوسك، وأحياناً بغير فلوس إذا كنت فحلاً، وأحبتك.. هذه هي الحياة اللذيذة.. أما هنا، في الميناء، فليس سوى الموت.. قوّ قلبك.. كن شجاعاً وهيّا نسافر معاً.. نتآخى.. ما يصيبني يصيبك والسلام..»

كان يتكلم وكنت أصغي مفتوح الفم. ما قاله طاب لي.. السفر إلى بعيد.. بعيد جداً.. شهور في البحر. ليس سوى البحر.. والمرافئ، والنساء، والخمور.. «آه يا عمر الدندي، يا ابن أمك، يا ابن الكلب، هل تقول الحقيقة؟ كل ما قلته حقيقة؟ تتفرّج، تتعرّف إلى بلاد جديدة، وجوه جديدة، وتربح مالاً؟ تربح مالاً يكفي لشراء بيت؟ أيّ حلم هذا.. أنت تبالغ ولا شك.. بكم رحلة جمعت ثمن البيت؟ لا بد أنك اشتغلت بالتهريب؟ ماذا كنت تهرّب؟ ولو ضبطوك يوماً.. يطردونك من الباخرة.. تنزل في أولّ مرفأ؟ وإذا لم تعد إلى وطنك، تحاول أن تدبّر أيّ عمل.. تشتغل أيّ شيء؟ يمكن هذا؟ في الغربة ليس من يعرفك.. في أمريكا يبيع المغتربون كل شيء. يحملون «الكشة» كما قال والدي.

يفعلون ذلك لأنه لا أحد يعرفهم.. هنا يتغيرون.. يرفضون أن يعملوا ما عملوه هناك.. يعودون أغنياء.. أفنديّة أو خواجات.. نعيماً.. كل هذا من السفر.. ليت والدي سافر أيضاً. لو عمل على باخرة.. لو ذهب من مرسين إلى أميركا.. نصيب.. فات والدي أن يعمل كالآخرين.. فضّل البحر، فضّل مقاومة الأتراك ومن بعدهم الفرنسيين، هذا هو السبب في أننا بقينا فقراء.. اللعنة على حالنا.. لو لم تشتغل أمي في الريجي متنا من الجوع.. سافر يا سعيد.. سافر يا ابن أمك.. عمر الدندي ليس أفضل منك. ليس أجر منك ولا أشجع.. سافر، في السفر سبع فوائد، وتكفيني واحدة منها، أن اعثر على والدي».

لازمت عمر خلال أسابيع، تجولنا في المدينة، سكرنا في الليالي، ذهبنا إلى المبغى. ولم تنقصنا خمّارة توفيق. كنت عاطلاً عن العمل، ولا نقود معي، مع ذلك كنت أدفع قليلاً، عمر كان يدفع الأكثر.. عرض عليّ أن آخذ منه نقوداً أردّها بعد العمل. رفضت. خفت من الدَين يكفي أنني سأستدين منه أجرة السفر إلى اليونان. هناك نجد باخرة نعمل فيها. «هناك كاترين أيضاً. قالت لي إنها ستسكن أثينا. لم تكتب إلينا منذ رحيلها. نسيتنا؟ الذي يغيب عن العين ينساه القلب. غبنا عن عينها فسلتنا.. اكتفت بعشرة زوجها.. هل أرضاها زوجها؟ هل بحثت عن والدي؟ هل عثرت له على أثر؟ وأين أجدها إذا بحثت عنها في أثينا؟

عمر قال لي إن أثينا مدينة كبيرة. ليست مثل اللاذقية ولا طرابلس أو بيروت.. أكبر.. أكبر يا سعيد.. كيف تكون يا ترى؟ أين أجد كاترين فيها.. حول الميناء؟ زوجها لابدّ أن يسكن قريباً من الميناء.. هذه منطقة البحّارة.. وهو بحّار أباً عن جد، ولن يبتعد عن جماعته.. »

اتفقنا على السفر، أعطيته وعداً. كلمة شرف لا أتراجع عنها. وسرّ عمر. قال: «إذا اشتغلنا على باخرة واحدة يستأنس واحدنا بالآخر. نكون اثنين. هذا أفضل. نتقوّى ببعضنا. نظلّ معاً، على الباخرة وعلى البر.. نتعاون في كل شيء. كنت وحيداً ولم أهب أحداً.. الآن نحن اثنان. ليجرّب ابن قحبة أن يتحرّش بنا.. وقلت لعمر: «أشتهي هذا يا دندي.. من زمن لم أتعارك مع أحد.. تيبّست مفاصلي، لا أحب العدوان. لكن العراك، أحياناً، مفيد، سأكون لك ظهراً.. » وفتح توفيق عينيه بصعوبة وقال: «في هذه لا يكن لك فكر.. سعيد قرش.. تحدثوا عنه أمامي، وأنا خبرته.. رأيته في المقهى أيضاً.. يكفي أن يكون ابن صالح حزوم.. ألم يحدثك عن أبيه؟ لم أكن قد فعلت.. تولى ذلك توفيق.. قلت «أن يسمع عمر من الآخرين أفضل.. لو أخبرته أنا لقال إنني أمدح والدي.. في البحر سيكتشف من أنا» لكنني استدركت: «الباخرة ليست كالمركب. مهارة البحّار تظهر في المركب. سأكون أجيراً هناك أيضاً. أعرف ذلك.. قاله لي قاسم وعانيته بنفسي».

لكن عمر قال: «القبطان ليس صاحب الباخرة.. هذه ملك شخص آخر. ملك شركة غالباً» قلت في نفسي: «هذا أفضل.. القبطان أجير مثلنا. كل منّا يقوم بعمله. هو ريّس ونحن بحّارة.. لكنه مثلنا ولن نتنازع على امرأة..»

أدرت ذلك في نفسي وابتسمت. سألني عمر: ما بك؟ «لا شيء.. تذكرت أمراً لا يهمك.. شيئاً خاصاً جداً، لا علاقة لك به..» أقول لعمر إنني ضحكت لسبب ابن كلب. فكرت: «وماذا يا سعيد لو كان زوج كاترين قبطاناً على الباخرة نفسها التي ستعمل عليها؟ لا، هذا لن يكون. هذا افتراض بعيد، إلاّ إذا كانت الدنيا مصممة على أن تدير لي مؤخرتها.. في هذه الحال أرفض العمل. أبحث عن باخرة أخرى. أنزل في أوّل مرفأ نصل إليه.. أنا لن أتعارك مع هذا اليوناني. لن أنافسه على كاترين.. وهو لن يقطع بي الحبل كما فعل الريّس عبدوش.. تلك حادثة مرّت، لن تتكرر. ما أسخف أفكاري أحياناً.»

أمي هي هي. لم يبلغ تقدُّم العمر أن يغيّرها. بالعكس.. زادها خوفاً ووسوسة. قطعت أملها من عودة والدي، هذا جعلها تتعلق بي أكثر. صارت عودتي إلى البحر كارثة بالنسبة إليها، توقعت ذلك، وعندما أخبرتها وجدت أن ما توقعته كان صحيحاً، لكنني لم أرضخ لضغوطها، لم أكترث لتوسلاتها ودموعها.. أفهمتها أنني سأسافر.. سأصبح صاحب حالة.. لا يمكنني العيش دون شغل.. والشغل في الميناء لن يجعل مني

بشراً.. عليّ أن أتغرّب.. أكسب.. أدّخر قرشين.. نشتري بيتاً كغيرنا.. نتخلص من الأجرة والبهدلة.. قلت: «افهميني يا أمي.. أرجوك» عبثاً هذا هو الحديد البارد الذي تحدّث عنه قاسم. قلب الأم، حين يتعلق الموضوع بفراق ابنها، لا يلين لشيء. يرفض حتى الكلام المعقول، يصبح عصياً على التأثّر.. كل الأمهات كذلك.. عمر قال لي إن أمه عارضت أيضاً، واضطر إلى الفرار.. لكنّها رضيت عنه حين عاد غانماً.. وجدت أنه كان على حق.

غادرت البيت دون إرادتها. لم أقبّل يدها. لم تمنحني بركتها.. هددتني بالدعاء عليّ، قلت لها «افعلي ما تشائين. سأسافر.. أعمل وأربح، وأبحث عن والدي..» دقّت صدرها. نتفت شعرها، ارتمت أرضاً وهي تبكي. لم آبه. وضعت قطناً في أذني. غادرت البيت وعويلها في أذني.. لم أتلفّت إلى وراء.. أغلقت الباب وليس معي إلاّ حقيبة صغيرة، وفي الكراج كان عمر ينتظرني.. ومن هناك انطلقنا إلى كسب، ومنها إلى تركيا، وبعد أسبوع كنّا في اثينا.

المدينة كبيرة. أحسست بالضياع فيها. أن أشعر أنني غريب فهذا طبيعي، لكن أن تبتلعني هذه المدينة، وأتضاءل أمامها حتى أغدو لا شيء، فذلك ما أزعجني. اللاذقية تضاءلت أيضاً. غدت قرية صغيرة. عجبت كيف لا يضيع عمر فيها. قلت في نفسي: «يا له من ذكي»! حسدته

حسداً صريحاً. أكلتني الخيبة من الداخل. كي تحس بخيبتك عاشر إنساناً ناجحاً. مجرد سفر عمر، وإبحاره، ومعرفته بتلك البلدان التي زارها، وقدرته على أن يطوف فيها، كما يفعل في اثينا، كان كافياً لاقناعي بذكائه، بنجاحه، كافياً لتعميق الخيبة، والغربة، والضياع في نفسي. حين فاتحته بذلك ضحك. قال لي: «ستتعلم يا سعيد كما تعلّمت. هذه هي فوائد الغربة.. تجعل العين مفتوحة. والإنسان يعتمد على نفسه».

فكرة البحث عن كاترين الحلوة تبخّرت من ذهني. المدينة بيدر من القش، وكاترين إبرة.. أنا لست مجنوناً حتى أبحث عن إبرتي وسط هذا الجبل من القش، محال. انحصر تفكيري في البحث عن نفسي.. الحفاظ عليها من الضياع. التخلص من الغربة التي في داخلي. التآلف مع الأشياء الغريبة من حولي.

فندق صغير، رخيص الأجرة. هذه بغيتنا. كان عمر يعرف منطقة الميناء. هناك عثرنا على فندق على مقاسنا. قال عمر، وكان الليل قد هبط: «هنا نستقر إلى وقت السفر.» وافقت. لم أكن أملك رأياً آخر. بل لم أكن أملك أي رأي. تركت لعمر أن يسيّرني كيف شاء، أن يدبّر أمره وأمري. صرت، بإحساس صادق، تابعاً له. من دونه لا أقوى على شيء. كبر في نظري. هذا مرشدي ودليلي. إنه ينفق عليّ أيضاً. أنا لن أنسى معروفه. سأرد له الدين شاكراً.

إذا عملت فسأدفع دينه من أول أجر أستلمه. أضمرت ذلك في ذاتي. لم أقله له. لم أكرره كما يفعل الضعفاء أمام الأقوياء. أنا لا أنوي عقوقه. لا أريد ابتلاع نقوده. لذلك وجدت الشكر الكثير غير ضروري. لن أفي معروفه بالشكر وحده. سأرده نقداً، وهذا ما أدخل الراحة إلى قلبي. التزمت الصمت. تركته يفعل ما يريد.. أزمعت الطاعة والموافقة حتى أستطيع التصرّف بمفردي. وكان عمر يزجرني: «فكّر معي.. لا تقل طيّب لكل فكرة أو اقتراح. رأيان أفضل من رأي.. هل أنت مستريح في هذا الفندق.. هل الطعام جيد؟.. ماذا تريد أن ترى في المدينة؟ لدينا وقت بعد، لا تتعجل الأمور».

في اليوم التالي هبطنا إلى الميناء.. أي مرفأ هذا؟ أيّة أرصفة؟ يا لكثرة البواخر.. أنا الإبرة الآن.. الصواري غابة.. البواخر قلاع.. ضجة المرفأ، ضجة الحياة في المرفأ، التحميل، التفريغ، الرافعات.. زحمة الناس. البائعون، الشارون.. المكاتب البحرية.. الشاحنات.. السيارات الصغيرة. كان عمر يمرق بينها كسهم، يدور كلولب وينطلق. كنت اتبعه ولا أبلغه. أظلّ على مبعدة منه، كأنني امرأة من بلدنا وراء زوجها في الأسواق، آه يا عمر.. يا عزيزي عمر، لولاك، كيف كنت أتدبر أمري؟ أنا لم أخلق للغربة. ولا للزحمة، أو المدن والمرافئ الكبيرة.. خلقت لمدينتنا الصغيرة فقط. «الديك على مزبلته صيّاح» كنت ديكاً صيّاحاً في

مرفأ اللاذقية، أما هنا فلست سوى فلاح ينزل المدينة لأول مرة.»

لم أفاتح عمر بموضوع كاترين الحلوة. تعملقت كاترين بقدر ما تقزّمت. أين أنا منها؟ أين أعثر عليها؟ كيف أواجهها غريباً، ضائعاً مفلساً، أتّبع غيري، وأعيش على نفقته، باحثاً عن عمل لا أدري متى يتوفر؟. تصاغرت فتوتي.. الذي يضيع، أو يهان، أو يجوع، تتصاغر فتوته.. تنام فحولته.. لا يفكر بالجنس.. يصبح هذا ترفاً بالنسبة إليه، شيئاً مؤجلاً إلى ما بعد.. لقمة مسروقة من طعام فقير.. لا.. لا أريد كاترين، ولن أبحث عنها.. حتى والدي لم أعد في وارد البحث عنه.. ذلك سيصير.. حين أصبح جديراً بأن أكون ابنه، جديراً بأن يراني بحّاراً مثله.. أنا لست وغداً بالفطرة. لست عاهراً في السلوك. ما زال شبابي بريئاً.. ما زلت على شيء من كبرياء.. اللعنة على الغربة، على المدن الكبيرة والمرافئ الكبيرة، والبواخر الضخمة.. اللعنة على هذا الشعور بالمسكنة أمام جبروت الحياة الصارخ في أذني من كل جهة.

خلال يومين جاءنا الفرج.. الفرج، كالضيق، يأتي فجأة. كنت في غرفتنا بالفندق. طلب عمر مني أن أبقى، ريثما يعود من موعد مع شركة بحرية سبق أن عمل معها. قال لي: «لا تأتِ انت».. لم يفصح عن السبب. قدّرته أنا تقديراً. رددته إلى سوء الطالع. طرقنا عدة أبواب معاً ولم تفتح

لنا. عزا عمر انسداد الأبواب في وجهنا إلى سوء حظي. هذا ما حمله على إبقائي في الفندق. أحسن إذن.. كان دقيق الملاحظة. فهم. تصرّف.. ذهب بمفرده، معتمداً على حظه؛ وها هو يعود غانماً..

فتح الباب واندفع إليّ يعانقني..: «فرجت يا سعيد» «كيف؟»، «فرجت والسلام..»، «عثرت على باخرة لنفسك؟»، «لنا نحن الاثنين.. السفر بعد أسبوع.. هات جواز سفرك والحقني.. سنوقّع اتفاقاً ونقبض اجرة أسبوع سلفاً.. أما قلت لك إنها فرجت؟»

نزلنا درج الفندق كهبّة ريح. ركبنا سيارة ابتغاء السرعة. في مكتب الشركة وجدت شخصاً يتكلم العربية. آه يا للحظ الطيب.. لم يقل لي عمر إن هناك من يتكلم العربية أيضاً. كان يونانياً من مصر عمل في الشركة بعد الحرب. كان في بلده كما تقول، برغم أنّ له جنسية مصرية. هذا واحد من عندنا، من الوطن العربي.. أهلاً وسهلاً.. يا ريحة الديار.. مجرد رؤيته، سماع لغته العربية، رؤية سمرته المحببة، أثلج صدري. ولأول مرة، بعد وصولنا إلى أثينا، أشرب فنجاناً من القهوة مع سيكارة فأجدها على هذه الروعة.. كنت فرحاً، وكان طعم البنّ في فمي لذيذاً، وتكلّم عمر فبقيت صامتاً. تركت له أن يعرّف بي، أن يقول لمدير الشركة اليوناني إنني بحّار ابن بحّار، وقد عملت في المراكب، ولي خبرة جيّدة في البحر.

رازني مدير الشركة. تفرّس في وجهي. عاين طولي وعرضي، ولم يبق إلاّ أن يطلب مني أن أقبل وأدبر، كما كان يفعل الشارون مع الجواري. احتملت نظراته الثاقبة. المنبعثة من عينين مقفل حاجباهما، وجلست حين طلب مني ذلك وهو يتسلم جواز سفري، سألني، بواسطة المترجم المصري، عن بعض الأشياء الخاصة بالبحر، والتي هي مشتركة بين الباخرة والمركب، مثل الدفة والرقابة وغيرهما، ولما وجد أنني مارست العمل البحري فعلاً، أعطى الجواز لأحد الموظفين لملء الاستمارة، وقال لي بنبرة صارمة «اذهب معه وجاوب على أسئلته:» عمر لم يخضع لكامل الشكليات التي خضعت لها. كانت لديهم استمارة عنه، وكان بيانه المحفوظ لديهم، يشهد بسلوكه الحسن، وهذا ما ساعد في قبوله، وفي أخذ شهادته عني بعين الاعتبار، فلما دوّنوا كل المعلومات المطلوبة عني، مع عنواني الكامل في اثينا، أعطوني ورقة عمل، تشهد أنني من بحارة الشركة، واحتفظوا بالجواز لديهم، ودفعوا لي أوراقاً بالعملة اليونانية، كمصروف إقامة، إلى أن يحين موعد السفر.

جلسنا في أحد بارات المرفأ، لم نتعجل العودة الى الفندق. نحن الآن بحّارة على الباخرة «كاسل»، حمولتها ٢٥ الف طن، تعمل بين أوربا وأميركا. انتهى عهد المراكب. أنا الآن بحّار في باخرة، وسنبحر إلى مسافات بعيدة، إلى مرافئ شهيرة، أين منها مرفأ اسكندرونة أو اللاذقية أو

الإقامة والترحال. هذا شيء جربته بنفسي، وبلغ من استردادي لعافيتي النفسية أنني صرت، بعد تسلم العمل، أتكلّم وأتصرّف وأشرب بثقة أكبر. عادت قامتي التي تصاغرت إلى النمو. الوحش المهول للمدينة الكبيرة كفّ عن إخافتي. أستطيع، الآن، أن أبدّل فندقي، وأدخل أي مطعم مناسب، وأركب أيّة سيارة، فتحملني إلى مكان سكني. لم أعد ضائعاً، مرتبكاً، خائفاً من المجهول، وقد صارحت عمر بكل هذا، وقلت: «الفضل يا عمر يعود إليك، أنزلت عني متاعبي، فكيف أكافئك؟» قال عمر: «هذا لا شيء يا سعيد، غداً أو بعده تمدّ يدك إلى غيرك أيضاً. تمتلك الخبرة. ومن هذه الخبرة تعطي.. يصير عندك شيء تعطيه.. غيري أخذ بيدي وعلّمني. أنا أخذت بيدك، وأنت تأخذ بيد غيرك.. وهذه هي الحياة» اعترضته: «هذا تواضع منك.. هذا كرم.. أنت كريم..» وقال عمر: «قد يكون ما تقوله صحيحاً، ولكن ما دفعني هو شعوري بضرورتك إلى جانبي.. الإنسان بأخيه.. الدنيا لبعضها..» ورفع كأسه: «كأس الوطن» وشربنا كأسين بصورة كاملة.. ولم أقل شيئاً، لكن أعماقي ابتهجت.. منذ الآن صار للوطن معنى آخر.. صار معشوقاً مثل امرأة.

نوم هنيء. هذا ما فكرت به في الصباح التالي. عدنا من الخمّارة إلى الفندق، وبمجرّد وصولي خلعت ملابسي ونمت. كنت جائعاً للنوم، كان نومي، منذ غادرنا اللاذقية،

متقطعاً، مضطرباً، تتخلله الأحلام المزعجة، والكوابيس، وحين يأتي الصباح، أستيقظ مصدوعاً، وأول ما أفكر فيه العمل «هل نتوفق إلى عمل، أم نعود إلى بلدنا خائبين؟»

الآن، بعد الاتفاق مع الشركة الملاحية، وبانتظار السفر، صار لنا وقت فراغ كامل، تجوّلنا في المدينة. اشترينا بعض اللوازم، خاصة شفرات الحلاقة. وفي منطقة المرفأ ابتعت قبعة بحّار، ونصحني عمر بالحصول على لباس أزرق، من القماش الرخيص، يلائم حياة البحر.. عملت بنصيحته، وشعرت بقيمتها في ما بعد، يوم صرت على ظهر الباخرة، وصار العمل يتطلب الاّ نقرب اللون الأبيض، إلاّ عند نزولنا من الباخرة، لأن كل ما عليها يوسّخ الثياب، يجعلها كثياب الميكانيكيين، ولا أمل في تنظيفها، وإعادتها إلى ما كانت عليه.

سألت عمر: «كيف تقضون وقتكم على الباخرة، بين نوبة عمل وأخرى؟» ابتسم عمر، كان يعرف حياة البحر، وقد عاناها، وأقسم ألاّ يعود إليها، وها هو يعود لكنه لا يريد أن يخيفني قبل الأوان. الشيء الوحيد الذي أنبأني عنه هو المطالعة. قال إنّ البحارة الاجانب يطالعون في أوقات الفراغ، لديهم الكتب، يشترون كتباً من المرافئ، هناك مكتبات في كل مكان، لكنها لا تبيع الكتب العربية مع الأسف.. البحارة العرب، على البواخر الاجنبية، لا يحصلون على صحيفة أو مجلة. بعضهم، وخاصة

الذين تقدموا في العمر ، لا يقرأون أصلاً ، الآخرون ، الشباب مثلنا ، لا يصطحبون كتباً معهم ، ولا يجدونها في البلدان التي يصلونها .. لم تصبح المطالعة عادة عندنا بعد . قلت: « وغير المطالعة ، ألا توجد تسليات أخرى؟ » قال عمر: « قليلة » من بينها لعب الورق. يعني القمار ، لعب الشطرنج ، وهذا لذيذ جداً .. هل لعبته في حياتك؟ » استغربت سؤاله . ما هو الشطرنج هذا؟ في بلادنا لا يعرفون هذه اللعبة . لو سألني عن النرد لأجبت بأنني أعرفه ، أما الشطرنج فلم أسمع به سوى من القصص ، وأجهل كل شيء حوله . قال عمر: « لا بأس يا سعيد ستتعلم الشطرنج في الباخرة ، معرفتي به قليلة ، أعرف نقل الأحجار فقط ، وهذا ما يجعلني مغلوباً دائماً .. الشطرنج يحتاج إلى مهارة ، وبعضهم يقرأون كتباً حوله .. ما أظن أن هناك كتاباً في العربية عن هذه اللعبة ». شوّقني هذا الكلام ، فاقترحت أن نشتري رقعة شطرنج نحملها معنا . كنت أظن أن اللعب يعوضني عن القراءة. كان استعدادي كبيراً لتعلم كل شيء ، وبأسرع ما يمكن .

في الأيام التالية استفاق حنيني إلى الوطن . بهظني الشوق إلى كاترين الحلوة ، تفتّحت رغبة جنسية في جسدي كله . حسبت نقودي الباقية . فكرت أن الوقت الباقي لي في أثينا يكفيه نصفها . أعيش خلال ذلك على الكفاف ، اكتفي بأجرة الفندق وثمن وجبة في اليوم . كدت أغامر . نزلت إلى منطقة المرفأ للبحث عن أيّة امرأة ، لكن السير في الشارع

ردّني إلى عقلي. أنا لن أمدّ كفي مستديناً من أحد. يكفي أن عمر دفع عني أجرة الطريق، ربما تأخر سفر الباخرة، أو وقع ما ليس في الحسبان. عندئذ أنكشف. ما أفظع أن ينكشف الانسان في الغربة. الأيام التي مضت، قبل الإتفاق مع الشركة الملاحية، علّمتني أن الكلب أفضل من إنسان عاطل عن العمل، مفلس، في بلد لا يعرف فيه أحداً. عليّ ألاّ أغامر. أحبس رغبتي الجنسية. أقلع عن التفكير بكاترين الحلوة، أستبعد فكرة البحث عنها. أنا أبدأ حياة جديدة، وينبغي أن تكون جديدة في كل شيء.

مع ذلك تمنيت، وأنا أسير في الشوارع، أن تطل عليّ، من نافذة ما، من باب ما، من واجهة مخزن، من وراء طاولة على الرصيف، صورة تلك المرأة التي استبدّت بي، واتخذتني لعبة في شبقها وجنونها. جهدت في استحضار صورة زوجها اليوناني إلى ذاكرتي. قد ألتقي به في الميناء. الرجل لا يقعد في البيت. يغادره إلى العمل، واين يمكن أن يعمل البحّار إذا لم يكن في المرفأ؟ لو أكثرت من التطواف في هذه المنطقة، ربما صادفته. لقد فاتني أن أسأل كاترين عن اسمه الكامل. عنوانه في اثينا.. أوصيت أختي أن تبعث إليّ، بأيّة رسالة تأتي منها.. ترى تكتب كاترين إلينا؟ ولماذا؟ ما هي الصلة التي أبقيت معها؟.. أي سلوك مريح سلكت معها؟ أي ذكرى جميلة تركت لها؟ لقد وعدتني أن تبحث عن والدي.. إذا وجدته فستكتب إلينا لا محالة. تجده يا

يافا.. والكلام فيها سيكون بالانكليزية، فيها سيكون بالانلكيزية، لأنها اللغة البحرية العالمية. ارتقى دور عمر بالنسبة إليّ، منذ الآن أصبح معلمي. سأتعلم منه الكلمات الانكليزية، المصطلحات البحرية، وأصول العمل على الباخرة، وسيكون عليّ أن أفتح عيني وأذني كما قال،أن أجدّ في العمل، وفي السهر والمراقبة، وخاصة على الدفّة، وأن أثبت أنني بحّار كما شهد لي، ولا أتولدن أو أكثر من المزاح مع البحارة، مختلفي الجنسية، ولا أقع في استفزازاتهم، وأن أحافظ على نقودي وأشيائي، فالحياة في البحر، أمرّ من الحياة في العسكرية، وينبغي أن أكون ماهراً وشجاعاً.. أن أتحمّل الطرق، كالحديدة المحمّاة فوق سندان الحداد.

كل هذا الكلام الذي وجد عمر من واجبه أن يقوله لي ونحن نشرب لأول مرة منذ وصولنا إلى اليونان، وعيته وسررت به. كان يدور حول المهنة، وكان ضرورياً، والطريقة التي قاله بها عمر كانت مريحة. لقد كان أخاً، وزميلاً، ودليلاً، كان كفوءاً في كل شيء، وكنت أستفسره عن هذا أو ذاك من الأمور، مدفوعاً بمعرفة الأشياء قبل أوانها، فكان يشرح لي بعض الأمور، ويُلجم نفاد صبري، طالباً منى أن أنتظر، وسيعلمني السفر كل شيء في وقته. وحين عرضت عليه قسماً من نقودي، كسداد لدينه، رفض.. «أنت يا سعيد، ستحاسب الفندق عن نفسك، وتتولى

الإنفاق على طعامك وشراء بعض الحوائج، وما لي في ذمتك آخذه في المستقبل.. العمى! طارت الدنيا؟..»

شكرته على هذا الموقف، هزّتني رجولته وأريحيته فطربت. وقفت وسط خمّارة ملأى بالزبائن، وقبّلته.. وتبادلنا القبل. لم يكن ذلك مستغرباً. كان اليونانيون أيضاً يقبّل بعضهم بعضاً مثلنا، وخاصة عند التلاقي بعد غياب، أو عند رفع الكلفة كما نقول، بين شاب وفتاة، وعند تقبّل الهدايا، هذا عرفته فيما بعد. لاحظته في أوربا وأميركا أيضاً. صار شيئاً عادياً بالنسبة إليّ، وصرت أفعل مثله بنفسي، ومع أيّة امرأة في أي خمّارة. وقال لي عمر وهو يغمز بعينه: «ما رأيك بزيارة إلى هناك؟» كان الاقتراح معقولاً. لقد شربنا، ونملك المال، وصار لدينا عمل. تخفّفنا من متاعبنا دفعة واحدة. خاصة أنا، المتغرّب لأول مرّة. لكن مرارة الافلاس، والبطالة، واحساس الضياع الذي عانيته، دفعني إلى الرفض، حرصاً على نقودي القليلة. ولم يصرّ عمر.. كان يعرف، أنّ لدينا وقتاً طويلاً لذلك، وان المرأة موفورة في كل ميناء، لذلك واصلنا الشراب، وبقينا حتى الليل.

كنت قد استعدت بعضاً من روعي. انتفى شعور الغربة والضياع، العمل ساعدني على نفيه. وقد لاحظت، عمري كله، الا شيء يولّد الوحشة والانسحاق مثل البطالة. تحسّ، عندئذ كأنك مقطوع من أصلك. العمل هو الانتماء الأكبر، في

ترى؟ يكون في أثينا ولا أدري؟ ماذا لو كنت أبحث عن الريّس اليوناني فألتقي بوالدي بدلاً عنه؟ آه! لو يصير ذلك، لكان مفاجأة غريبة، كان فرحة العمر.. كنت أقبّله كله.. أعانقه حتى الإغماء. أضع رأسي على صدره وأبكي.. أطلب رضاه وأنا أستقبل المجهول، في أول غربة عن الوطن، في أول عمل بحري أباشره على باخرة أجنبية.

ما عثرت على كاترين الحلوة، ولا على زوجها اليوناني، وكالحلم تبخّر ذلك الأمل الذي تردّد في صدري حول لقاء والدي. البحر في أثينا، كالبحر في اللاذقية، كالبحر في كلّ رحلاتي على المراكب، ظل صامتاً لا يجيب. أنا لن أملّ من طرح سؤالي عليه: «أين والدي؟» أعرف صمت البحر.. تكون في وارد، ويكون في وارد آخر. البحر له مشاغله أيضاً. له دنياه، له سرّه الذي لا يدرك.. ولكم أرهبني سرّ البحر.. لامبالاته أمام الأسئلة التي تثور في الصدر، وأنت على الشاطئ تتأمل مداه، وتدع نفسك تذهب مع زرقته البعيدة.

إلى الجحيم بكل شيء، لن أقول لعمر عمّ أبحث. أنا لن أحمل امرأة في رأسي وأدور بها الدنيا. هي لم تبال. هانت عليها اللاذقية، وذكرى والدي، وحبي. لم تسأل عن شيء. تريد بأية وسيلة، أن تضمن حياتها. الزواج بالنسبة إليها ضمانة. وبعد ذلك يأتي العشق. ليست، بعد كل شيء، ناقصة عقل. تخطّط لنفسها، تدبّر، وتنفّذ بنجاح. هذا هو الزوج

الرابع، في العلن، ومن يدري، كم رجلا عرفت في السر، ومع ذلك ترفض أن يسيطر أحد عليها. هذا اليوناني الذي خطفها وطار.. أين حطّ بها يا ترى؟ ريّس هو.. ولكن كيف يكون الريّاس في هذه البلاد؟ يؤمنون بما نؤمن به من صيانة العرض، حمايته؟ الدفاع عنه؟ يقتتلون في سبيل امرأة؟ كاترين الحلوة لن تجعل من زوجها الجديد «حبّابا» آخر؟ ولكن ماذا تفعل إذا سافر؟ تظل وحدها؟ تنام في سرير خال؟ لو كنت، في هذه الحال، إلى جانبها؟ إنها تحتاج إلى رجل، لا تستطيع العيش بغير رجل، هذا واضح.. ربما في وقت كهذا، تفكّر بي. تندم على فراقي، تسأل الله أن يسوقني إليها، ولو حدث ذلك، لو علمت أنها تطلبني لعدت إليها ولو كنت في أقصى البحار..

انتهى الأسبوع. لم يبق معي من النقود إلاّ القليل، أحسنت في الحرص عليها. عمر قال: «القبض كل خمسة عشر يوماً». في الباخرة لا نحتاج إلى الكثير، هناك لا يتعاملون بالليرة السورية أو اليونانية، بل بالاسترليني أو الدولار. مقابلها يمكن أن تحصل على التبغ، والنبيذ، والويسكي.. في البواخر لا يوجد عرق، من الخير أنهم لا يبيعون فيها ما يسمونه العرق في اليونان. هذا اللعنة لا يشرب. عمر مدح الويسكي كثيراً، قال إنه غال جداً. لكنّه لذيذ.. لا يقف أمامه أي مشروب. قلت: «والعرق؟» فأومأ بكفه رافضاً: «هذا طيب في بلادنا.. هناك يقدمونه مع

المازه.. مع التوابل والكبة نية والتبولة.. في الباخرة لا يوجد سوى اللحم والرز والشوربة.. غداً، يا سعيد، تموت على رائحة الشنكليش.. ترضى بأن تصوم يومين للحصول على صحن فول أو حمص.. إنس هذه الألوان.. نفسك سترفض أكل الباخرة أول الأمر.. حتى السمك يقدّمونه مسلوقاً.. لا تستطيع أن تقول أريد هذا ولا أريد ذاك.. الوجبة واحدة، كلها أو ارْمِها في البحر.. لا أحد يسأل عنك، ولا أحد يرمي وجبته في البحر.. يظل جائعاً، أو يعيش على السردين والطونة.. ستتعلم يا سعيد، الصعوبة في الشهر الأول فقط.. بعدها يهون الأمر» سألته: «ألا يوجد بصل على الباخرة؟» قال: «مع الطعام نعم.. لكنك لن تحصل على فحل من البصل كلما أردت.. لا بأس أن تأخذ معك قليلاً منه.. هذا ضروري لك في البدء..» اشتريت بعض البصل.. رأيتهم، هنا يبيعونه في أكياس شبكية، داخل الجامات.. الله! البصل صار له قدر في هذه البلاد.. عندنا كومات منه.. حين وصلت إلى أثينا كنت أقل قدراً من البصل. لو لم أعمل لبقيت كذلك. الإنسان والبصل.. حكاية طريفة هذه والله.

في موعدها أبحرت الباخرة. نزلنا إليها قبل يوم من رحيلها. أخذونا إلى المسؤول عن البحّارة. قدّمنا له الأوراق التي أعطتنا إياها الشركة. نظر فيها وكتب شيئاً في دفتره. أبقى الأوراق عنده للتسجيل. أعاد إلينا جوازي السفر

وورقة لكل منّا تنبئ أننا من بحّارة الباخرة «كاسل».. أحالنا إلى المستودع. هناك حصل كل منا على لباس العمل، حصلنا، كذلك، على قسائم للطعام.. أرشدنا إلى قمرتنا في الباخرة، هذه كانت صغيرة، ضيقة، فيها نافذة مستديرة على البحر، وأربعة أسرّة اثنان منها فوق اثنين آخرين، فاخترنا أن نكون في طرف واحد، وأعطيت السرير الأدنى لعمر، وقفزت إلى السرير الذي فوقه، فوضعت عليه بعض أغراضي.

أحسست بالاطمئنان. الذي أحلم به تحقّق. كنت أريد الانفراد بنفسي. الجلوس في أرض القمرة مقرفصاً، شابكاً يديّ حولها. والبقاء على هذه الحال وقتاً طويلاً، كانت لدي مشاعر داخلية مضطربة، وكنت أريد استيعاب هذه المشاعر، ترتيبها، نفي بعضها، تعطيله عن العمل إن أمكن، وخنق كل تفكير يشدني إلى اليابسة، إلى كاترين الحلوة، إلى الأهل في اللاذقية، وقتل الحنين الذي أحسست به قبل النزول إلى البحر. لهذا طلبت من عمر أن يدعني وحدي، أبلغته أنني أريد ترتيب ثيابي، والاستلقاء قليلاً، إلى أن تحين وجبة الظهر.. وقال عمر: «في الباخرة مشرب.. يمكن أن نأخذ كأسا أو زجاجة، ما رأيك؟» قلت: «سألحق بك.. أنا بحاجة إلى مثل هذه الكأس، ولكن ليس قبل أن أرتب حاجياتي وأرتدي هذه البدلة التي أعطوني إياها، والتي تشبه بدلة السجناء.»

بعد الظهر تعرّفت على أقسام الباخرة. رأيت غرفة المحركات. كان المولد الكهربائي وحده الذي يعمل. رأيت ضابط الميكانيك وثلاثة من البحارة يعملون بين هذه المحركات. عرفتهم من ثيابهم. كانوا يقومون ببعض الإصلاحات، وتفقُّد المحركات استعداداً للإبحار. وقفت على سطح الباخرة، وراء الحاجز، أرسلت بصري فيما حولي. كان المرفأ مكتظاً بالسفن والزوارق، وهناك بقع كثيرة من الزيت المنتشر على وجه الماء. ضجة كبيرة في كل مكان، صافرات البواخر تنطلق في نداءات لا أعرف منها شيئاً. كنت صامتاً، أحاول أن أتملّى ما حولي، أفهمه، اندغم فيه، جاهداً إلى التماسك، حتى أمام عمر نفسه، كيلا أظهر ضعفي: دهشتي، شرودي، وكي أستعد نفسياً، لتقبّل حياتي الجديدة، والقيام بالعمل المطلوب، ما أن أكلف به.

قال لي عمر: «هذه الباخرة على اسم مدينة ألمانية. الآن تملكها شركة يونانية. على الباخرة قبطان وثلاثة مساعدين. فيها اثنان وعشرون بحّاراً. رئيس البحّارة ينادونه «موسترومو» والحارس «وشتمان»: «احفظ هذه الكلمات.» أضاف: «سنبحر باتجاه المانيا ونهنكر فيها». لم أفهم كلمة نهنكر. شرح لي عمر. قال: معناها نتوقف، نرسو.. نلقي الياطر واسمه الهنكر.. هنا يستعملون كلمات خاصة، بعضها انكليزي، وبعضها لا أدري من أيّة لغة.. افتح أذنيك جيداً.. اسألني عن كل شيء.. السؤال، لمن لا

يعرف، حلو، لا عيب فيه.. اكتب الكلمات في دفتر، في ورقة، وحتى دون ذلك تستطيع حفظ كل شيء في أيام.. الكلمات البحرية قليلة على كل حال».

في منتصف الليل أقلعت الباخرة. كانت محاذية للرصيف، وليس لها مدى للمناورة. ما سبق لي أن شاهدت إقلاع باخرة على هذا النحو. المركب يظل في البحر، لا يحتاج إلى مناورة في الإقلاع، كذلك السفن في مينائنا. البواخر تقف خارج الميناء في اللاذقية. تشغل محركاتها وتستدير بسهولة، فتخرج إلى عرض البحر. هنا مرفأ كبير، بواخر كثيرة. كيف تقلع «كاسل» وهي ضخمة إلى هذا الحد؟ لن أدع إقلاعها يفوتني، ما دمت لم أتسلم عملاً محدداً بعد. تسمّرت على طرف الباخرة. كان سياجها واطئاً، وكل شيء أمامي مفتوحاً، وكان قد وصل زورقان لقطرها خارج الميناء.

هدرت المحركات. اختفى البحّارة عن السطح. القبطان ومعاونوه وقفوا في المقدمة. زمجرت المحركات في الماء. اهتزت الباخرة. اضطرب البحر وبدأ فوران الزبد، شرع جسم الباخرة بالابتعاد عن الرصيف بحركة بطيئة جداً، وتقدم أحد الزورقين فقطر الباخرة وسحبها خارج الحوض..

هكذا بدأت الرحلة..

البحر أمامي واسع، معتكر قليلاً، وطيور تحوم في السماء، والمدينة تنأى، تبتعد، ودويّ الصافرات، يخفت.. إننا نبحر.. وداعاً يا أثينا.. وداعاً لكل الأشياء التي عرفتها على اليابسة.

ها أنا جالس على سطح الباخرة، والباخرة تمضي في المحيط والذكريات تأتي.. تأتي وتذهب.. لقد مضى على إبحاري شهر ونصف تقريباً.. ولكم وجدت هذا الزمن طويلا!

★ ★ ★

- ٣ -

سعيد حزوم ما زال يتذكر. يستعيد الماضي وهو يسير على الشاطئ، لقد رحل بعيداً جداً. تخطّفته السحب التي فوقه. تخطفت روحه. الجسد المكدود يتابع السير، أما الروح فسحابة تنفخ فيها ريح خفيفة تهبّ من الجنوب الغربي. إنه في الطريق إلى قصر السيدة. هو، إذن، في الطريق إلى المجهول. كان في قرارة ذاته، يحب هذا المجهول، يستسلم لندائه بغير تردد، لم يبق ثمة ما يخاف عليه. تلك السيدة، في الخيام التي تركها وراءه، أعطته قدراً مضاعفاً من الحساء. ابتسمت له أيضاً. لم ينظر في عينيها. سباقه مع الفتى، في الصباح، كان نزوة عابرة. تعلّم منها درساً: مضى الشباب. تستطيع أن تعتصر من البقية بقية. أن تحبس أنفاسك تحت الماء وتمضي. تسابق فتى وتسبقه. تجعله يعترف بك بحّاراً، يعترف بماضيك البحريّ على الأقل. ولكن ماذا يعني هذا؟ أنت تعرف نفسك. وصلت إلى حافة التلف. هل كنت تريد أن تتلف. ما العمر، في النهاية، يا سعيد؟ كم مرة واجهت الموت؟ تسعى وراءه الآن؟ تقول له: خذني؟ لماذا قمت بتلك المغامرة الصغيرة؟ هل لتثبت للسيدة ذات الابتسامة أنك ما

تزال في الشباب؟ وحين خرجت من السباق مضعضعاً، متلاشياً، وجررت نفسك إلى الرمل، وانهدمت عليه، راغباً، وأنت تشد بجسمك على الرمل، أن تغوص فيه. رأتك السيدة وأدركت.. من أجل ذلك لم تنظر في عينيها. من أجل ذلك تفرّ منها. تدعها هناك، على الشاطئ، بين الخيام، وتمضي في الليل والريح شمالاً.. تمضي وأنت تتذكر، كأنك استيقظت من حلم كابوسي، استعادك إلى دنيا مروعة، فيها ماضيك مرسوم على شاشة رمادية، عليها من الفردوس ظلال، ومن الجحيم ظلال، ومن تلك الرحلة الطويلة كوابيس.

أنت لا تكلّم البحر، ولا الرمل، الريح لا تسمع، أحد لا يسمع، ربما الله، الذي يعرف ما في الصدور، يستطيع وحده أن يعرف. لكن حذار أن تحرك شفتيك، عندئذ تسرق الريح منك الكلمات وتذروها.. والكلمات، يا سعيد، لا تموت في الريح، تذوب فيها، وتنتشر معها، وفي صعودها إلى أعلى، صوب النجوم، تحملها معها.. أطبق شفتيك إذن. تكلّم في ذاتك فقط. تذكّر: أنت على الباخرة «كاسل». الباخرة تشق المحيط ميمّمة شطر النصف الغربي من الكرة الأرضية. لقد بعدت عن اليابسة الآن.. أنت في صحراء من الماء. صحراء رهيبة، مخيفة، فيها رمال محرقة. فيها وديان وكثبان. فيها أيضاً سراب.. لو أنزلك الربّان في قارب، وقال لك اذهب حيث تشاء، لتوسلت إليه ألاّ يفصلك عن

القافلة، ألاّ يجعلك تضيع، فهذا العالم المائي، الرصاصي، هذا الغضب البحري المضطجع بالرعد، هذا الصمت المحيطي، هذا الامتداد الشاسع الذي لا ساحل له، يجعل عيونك فارغة إلاّ من نظرات ترحل مع الضياء الحجري، مع المتاهة التي تنادي البحارة إلى مغامرة الانتحار في اللجة العميقة، حيث آلاف الحوريات، وحيث ابتساماتها تتملقك لأن تذهب، وتموت، منهياً هذا الشقاء الذي ما كنت تتصور يوماً أنك ستصير إليه.

كان سعيد يجلس على السطح، مسنداً ظهره إلى جدار القمرة العليا. هنا، في السفر البعيد، بين مدينة وأخرى، مجلسه الأليف. ينظر إلى الآفاق، المتصلة بالماء، المنتهية عندها، ويتساءل: «ماذا وراء الأفق؟ هو يعرف أن ثمة ماء بعد الماء. بقدر ما تتقدم السفينة، يبتعد الأفق. إنه أفق متنقّل. المحيط موحش، جائش، فاتح ذراعيه للرجال الذين رفضوا الانتحار على البر، فأبحروا ليجدوا، في كل نهار، كل ليلة، مجالاً طيباً، مؤاتياً، لمغامرات انتحارية تفوق الخيال في غرابتها. أنت، يا سعيد، تحب المغامرة، عرفتها مع الريّس عبدوش. عرفتها مع الريّس زيدان. عرفها، قبلك أبوك، في تلك العاصفة النهرية، عرفها في عشرات المرات التي كان الموت فيها غولاً يحدّق فيه بعينين غائرتين، فيهما سردابان مروّعان من شر وخبث. ومهما تجلدت فالرعدة في أوصالك، يعكسها وجهك، حين يبطن الغضب وجه السماء. ومهما

أغمضت عينيك، فالغول البحري، بمحجريه الفارغين، يتراءى لك، ويذكرك بأنك قد دفنت نفسك في حياة أشد نسياناً وإغفالاً من الموت.

حانت نوبة الحراسة، سيّان. يومه كله حراسة. البحر يشدّه إليه، هنا بحر آخر، البحر ذاك، في المتوسط، طفل بحر لا أكثر. هذا هو الأب. هذا هو العالم الذي لا تشكل اليابسة سوى كتلة جافة منه. لا تقلق. لن تبقى صامتاً. ستتعلم لغة المحيط، وتتكلم عبر الظلمة والريح، عبر الضوء الرمادي، وفي النوء والمطر، بغير صوت. ستقول له ما يؤلمك، ما يقلقك، ما يشجيك، ويقول لك بعض أسراره، بعض أحداثه، وكيف في مئات الأعوام، شقت ظهره، آلاف والآف القيدومات، في اندفاعها، في تقحمها، في حرثها للمحيط، دون أن تنبت في أرضه، أيّة بذور، دون أن تطلع أيّة شجرة، تخفف من جهامة هذا السهب الذي يمتد وأشواكه مخاوف لا نهاية لها.

لقد تعلم سعيد الآن، أن يقف في المحرس، أن يمسك بالدفة، أن ينظف ظهر الباخرة، يطلي هيكلها من الخارج بالدهان، حين ترسو في الموانئ، أن يستمع، خلال ساعات طوال، إلى ثرثرة البحّارة، مماحكاتهم، نقارهم، شجارهم، وأن يرى إليهم وهم يقامرون، يسكرون، ويبكون حنيناً أو خوفاً، أو لمجرد ذرف دموع ضاقت بها صدورهم.

وكان سعيد يعرف أنه لن يلبث أن يصير منهم. يقامر، يسكر، يجمع ما معه من نقود، وينزل في أول مرفألإنفاقها على الحانات والعاهرات. وقال في نفسه، وهو يقوم بالحراسة، ويراقب الأمداء المائية: «من الخير أن نوبتي في النهار البرد شديد. في الليل يشتد أكثر، تصبح الحراسة لعنة لا تطاق. يتجمّد الجسم. عندئذ تعود إلى قمرتك وأنت جثة مجمّدة، لا تعود إليها الروح إلاّ بالدفء، بالماء الساخن، أو بالكونياك، زجاجة كاملة من الكونياك، تسكر بعدها، تبكي، تحاول الانتحار. كل شيء جائز، لكنك دون شراب ستبقى ترتجف حتى وأنت تحت ثلاث بطانيات. أفهم الآن لماذا يشربون، لماذا ينفقون نقودهم، وعندما، في أحد المرافئ «تهنكر» الباخرة، يبيعون حوائجهم ويذهبون إلى المباغي، يريدون أن يثبتوا لأنفسهم أنهم ما زالوا أحياء.»

وقف سعيد في المحرس وبيده «ناضور».. على الباخرة، يعطى الحارس ناضوراً، إنه، في الليل، من الزوائد، ولكنه، كما البندقية في محرس الجندي.. من اللوازم، عمله أن ينظر في الجهات الأربع. أن ينظر إلى أمام، ويخبر عن أيّة شارة غريبة تلوح عن بعيد. في المركب كان يصعد أعلى الدقل. هناك يظل معلقاً كسنجق. هنا المحرس على ظهر الباخرة، من جهة مقدمتها. يقف الحارس، يتأمل، يحدق في الأبعاد، يحدث نفسه بألف لسان. يقول ولا يقول. يتكلم وهو صامت. يفكر غالباً بعائلته، أولاده، زوجه، حبيبته، وطنه، يفكر

بالله.. وبالشيطان، وتحت المطر أحياناً، يلبس واقياً، فلا تبقى تحت غطاء الرأس المشمع، سوى عينين مشقوقتين كجرحين من مدية، في جسم سمكة تشوى على نار. إنه البياض المرتعش، المنسوج من شعيرات حمراء، من أثر الملح والدموع. البؤبؤان فقط، في رحيل الرؤية، في اختراقها الظلمة أو النور، وطيرانها بسرعة الضوء، يظلّان يحدقان، موجعين، في نقطة الجدار الذي يرتطم به النظر ويرتد. هنا مداك! البحر مدى، لكن للنظر مدى محدوداً، تتكسر الرؤية بعده وتتناثر إلى جزئيات تتلبث على المشهد الأقصى، في نقطة أقصى، لا يظهر من البحر بعدها شيء. لهذا كان سعيد يفضّل الحراسة نهاراً، وفي الصحو، وعند الأصائل. ثم اعتاد. أصبح المشهد مشاهد. صار لكل مشهد جماله، وحتى المطر، صارت له متعة لديه، فالغضب المضطجع بالرعد، ينزل من عليائه عندئذ، على هيئة شهاب مطوي الجناحين، وينقضّ كنسر من نار، فيتراءى الزبد على وجه الماء وهو يطفر، يشرئب، يحاول الإمساك بجناحي النسر المتوهجين، غير أن هذا يندفع إلى أعلى، كما انحط إلى تحت، وتردم الظلمة بطرفة عين، الومض البرقي الذي فتح فيها شرخاً له شكل غصن يابس مضيء.

كانت الريح هوجاء، محمّلة برذاذ البحر، خيّل إليه أن لها يداً جبارة تصفعه كيفما استدار. إنها تنفذ من تحت الواقي وتبلّله. تشد بغطاء الرأس وتكاد تقتلعه. يسيل الماء

المالح، في جداول من قطرات، على صفحتي الخدين. ينقطان في الصدر. يفرز المحجران دمعاً مالحاً، حارقاً، متلاحقاً، مفرطاً. البرد يجمّد الأطراف، الألم يتحجّر، يتحجّر.. الفم مطبق.. والسماء محايدة. إنها معمودية بحّار، في غابة ذئاب جائعة. الريح ذئب، والمطر ذئب، والبحر ذئب، والبرق المشتعل، في أقصى الأفق، يكشف عن قطعان من الذئاب تعوي وهي ترمح بآلاف الأقدام المتوفزة على ذرى أمواج عاتية.

قال سعيد في نفسه: «هذا ما يدعونه المحيط. المتوسط ليس هكذا. هناك تعرف أين أنت. ترى السماء، النجوم، الزبد الأبيض، وفي النهار تسطع الشمس، ويتشكل ما يشبه السراب، في خداع عذب للرؤية».

بأصابعه الخشنة، مسد الجفن الأعلى، أطبقه، اعتصره، مسح الماء من المؤقين، بحركة نزقة، وضغط عجرة أنفه، ليخرج ما فيه من عصارة تسيل في شاربيه، وبصق.. بصق بعنف، كأنما على شبح أمامه، ونظر إلى أعلى: «هل هي العاصفة؟» وقال في نفسه: «لا.. نحن لم نواجه عاصفة بعد.. هناك، قرب مارسيليا، في وادي السفن، صادفتنا عاصفة عابرة. كانت خفيفة وعابرة.. عمر قال: «هذه لا شيء. كل السفن تعرف هذه المنطقة وتحسب حسابها.. النوء شديد، يخلع دفة السفينة أحيناً.. لكن السفن تعبره بغير قلق. السفن روضّت البحر يا سعيد: لم تبق فيه بقعة إلاّ وأجرت

فيها.. العمل في البحر صار تسلية، والسفر فيه صار نزهة.. أين نحن من عهود المراكب، والصواري، وكل تلك الوسائل البدائية؟» علّق سعيد، وهو يضطرب في محرسه: «أي نزهة بنت كلب هذه التي تحدث عنها عمر..؟ الدموع المالحة حرقت عيني. هذا الضباب اللعين أيضاً. مقابل أيّ شيء، في نهاية الأمر، نموت وسط هذا العالم الكريه؟ أنا، مع الأيام، سأنقلب إلى انسان متوحش. كل البحارة ينقلبون إلى رجال متوحشين. يبيعون آدميتهم مقابل قليل من النقود، ينفقونها في الخمر والعهر.. اللعنة على حياة كهذه.»

ظلّت السفينة «كاسل» تمضي إلى أمام. تمخر المحيط الأطلسي باتجاه مضيق بناما. إن الرحلة في أولها، معمودية سعيد في أولها أيضاً. هنا بالنار، لا بالماء، يتعمّد البحار. كي ينتصر على الذئاب، في غابة البحر، ينبغي أن ينقلب إلى وحش بحري، والدي- قال في نفسه- انقلب إلى وحش، ثم عاد، تارة أخرى، إلى رجل، إلى إنسان، ثم إلى وحش، مرة ثانية.. هذا ما لم يقله لأحد، لم يبح به لأمي ولا للبحّارة. هؤلاء يعرفون هذه التحولات.. من أجل ذلك يعيشون بطبيعة أخرى، غير أنهم، برغم ما لقوا من أحوال المتوسط، لم يعرفوا أهوال المحيط.. كان يجب أن يعبر المحيط والدي.. عندئذ، لو فعلها، ولو عاد إلينا بعد رحلة في أحد المحيطات، لتغيّر كلياً، لفارقته آدميته إلى الأبد».

قضى سعيد، بعد ذلك، ما تبقى من وقت الحراسة في التفكير بوالده. قال في نفسه: «من أدراني أنه ليس في أحد المحيطات الآن؟ على هذه السفينة، بحّار اسكندراني في مثل عمره. شركات الملاحة تستخدم هؤلاء أيضاً. تعرف أنهم بحّارة حقيقيون. خبراؤها، من نظرة في وجوههم، يعرفون كم كابدوا وقاسوا.. انهم لا يحتاجون إلى تمرين.. البحر أنضج جلودهم. دبغها الملح والشمس. صاروا وحوش محيطات صالحة لكل المغامرات. على مثل هؤلاء تعتمد.. والدي واحد منهم. بل هو أفضلهم قوة وأجسرهم قلباً، إنه يصلح للرياسة.. لو كان له مركب لكان ريّساً.. لا بأس.. والدي عمل بحّاراً على المراكب، فلماذا لا يعمل بحّاراً على السفن؟ إنه هارب من فرنسا.. وفي حال كهذه، من الطبيعي أن يكون قد وصل إلى اليونان أو إحدى الدول الأوروبية. هناك لا بدّ أن يعرض نفسه للعمل في البحر.. وإذا كان قد فعل ذلك فلا بدّ أن يكون على إحدى السفن الآن.. عليّ أن أبحث عنه. أسأل بحّارة السفن. أسأل البحّارة العرب الذين ألتقيهم في المرافئ.. أسأل هذا الاسكندراني.. أعطيه أوصافه، أجعله يتذكر جيداً. إذا كان والدي بدّل اسمه فلن يستطيع أن يبدل أوصافه..» فكّر لحظة واعترف قائلاً: «واأسفاه.. هذه تتبدّل أيضاً.. كل شيء يتبدّل من الخارج.. الشعر، الوجه، العينان، التقاطيع، والقامة.. يتبدّل الإنسان من الداخل أيضاً.. الفتى يصير رجلاً،

والرجل كهلاً.. القامة تتقوس، تحدودب، والنظرة الحادة تنطفئ.. والقلب...»

ركدت الريح قليلاً.. السحب بدأت تنحسر متدحرجة. السماء بانت. وثمة نجمة بنفسجية بعيدة.. انقشع الضباب تماماً. ذرته الريح.. خرجت السفينة من نفقه إلى رحابة البحر.. تنهّد سعيد بارتياح.. لولا بقايا مطر ورذاذ لأشعل سيكارة. تحلو السيكارة في وقفة الحراسة، تحدّث شاربها. تقوم لديه مقام الكأس والمرأة، مؤقتا.

شرب سعيد نصف زجاجة كونياك بعد أن بدّل ثيابه. بدأ الشرب حتى قبل أن يبدّلها. جرع جرعة كبيرة ما أن وصل قمرته، تابع ذلك وهو يجفّف جسمه، ويدخّن سيكارة هي الأولى منذ ساعات. استشعر الدفء رويداً رويداً. عادت روحه إليه. جلس فوق سريره مسروراً، كمن أخرج من قلب الماء في نوء شديد. في مثل هذه الحال يحس البحار كأنه ولد من جديد. بعد الحراسة يستعذب الشرب والتدخين. الطعام يأتي بعد ذلك. إنه لا يسيغ الطعام قبل أن يشرب. بحاجة إلى الاسترخاء قليلاً. وحين يفرط في الشراب تساوره رغبة في البكاء، وفي الليل يتلظى جسمه الشبق من حرمان طال.. ثم تأتي الأحلام الداعرة. ويصبح الوصول إلى اليابسة، مجرّد رؤيتها، عزيزاً إلى حد الجنون، يصير جسد المرأة، بكل تفصيلاته، صورة مجسمة يكاد يقبض عليها في ظلام الليل. ذلك أنه يعرف أن الحبيبة، المرأة،

حين تصبح بين ذراعيه، تعطيه قبلة اللقاء والوداع في آن، إنه لا يستطيع أن يأكلها، ولا أن يمتصها، ومن تجربته تعلم أنه لا سبيل إلى حملها معه، وعندئذ، بعد أن يبلغ ذروة شهوته معها، يعطيها قبلته الأخيرة ويرجع ليستسلم إلى البحر، إلى الماء، والمطر، والريح، والزبد الأخضر الذي تصبّه السماء من الأعالي، ورماح البروق التي في رؤوسها زهرات من ذهب، وفي الأصباح، حين تمر العاصفة، مخلفة وراءها رعد الفجر المتقطع، يأخذه وجد إلى الصلاة في قلب صمت البحر والضياء الآتي من الجهات الأربع.

لم يذهب إلى المشرب. وفي المطعم تناول حساء ساخناً. دخّن، ثمة سيكارة طيبة. كان الليل يوشك أن ينتصف. إنه لا يقامر. لم يعتد هذه الرذيلة بعد. جرّبها ولم يغرم بها كصديقه عمر. كانت الكأس والمرأة والمغامرة هواه. وكان القبطان انضباطياً جداً، لا يريد عراكاً بين بحّارته. وسعيد لا يريد السجن ولا العقاب. تكفي عقوبة الرحلة. لذلك سأل عن سيّد الاسكندراني، فلما قيل له إنه لم يظهر على السطح، قرّر أن يذهب إليه في قمرته، ويصغي إلى حكاياته ونوادره عن البحر والبحّارة.

وجده جالساً على سريره يقرأ. كانت القراءة هوايته، ولديه بعض الكتب القديمة، صادرة عن مطبعة بولاق، يحملها معه من سفينة إلى أخرى. كان ربعاً، رمادي الشعر، له كرش بارزة قليلاً، وتبدو سمرته الشرقية، تحت الطاقية

البيضاء، أعمق مما هي في الواقع، ويلبس فوق كنزة الصوف السوداء، صدارية بغير كمين، محافظاً بذلك على هيئة البحارة في بلده البعيد الاسكندرية. علّته، في نظر سعيد، أنه لا يشرب، يدخّن ولا يشرب. وعندما، في الموانئ، يسرع البحّارة إلى الحانات والمباغي، يكتفي سيّد بشراء بعض الأشياء المفيدة، التي يبيعها أو يبادل عليها في مرافئ أخرى، ويعتذر لحياته شبه المتقشفة هذه بأن له عائلة كبيرة يعيلها، وأنه يجمع بعض النقود لشراء فلوكة والعودة إلى الصيد، إذا قيّض له أن يعود سالماً إلى وطنه.

- وماذا عن البحر؟ سأله سعيد.
- يكفي.. البحر أخذ ثلاثة أرباع حياتي.. وفيت كل ديوني له..
- لكنك تعود إليه دائماً كما قلت..

تنهد وقال:

- نصيب.. لكنني، هذه المرة، لن أعود.. احسبه زوجتي.. الرجل يطلّق زوجته أحياناً..

ضحك سعيد وقال:

- كم مرة طلّقت هذه «الزوجة»؟
- مرات كثيرة..
- ولماذا تعود إليها دائماً؟
- بسبب الفقر، والبطالة..
- فقط؟

اعتدل سيّد في جلسته وسأل:

- لماذا تعود إلى هذه النقطة كلمّا التقينا؟

- كي أعرف.. إنني، مثلك، لا أريد العودة إلى البحر بعد هذه الرحلة.. لكنني أخشى ألاّ أستطيع ذلك، وأن يكون مصيري كمصير والدي.

قال سيد جازماً:

- سيكون مصيرك كمصيره.. هذا ما كتب علينا جميعاً..

ساد الصمت بعد هذا الحكم الذي أصدره بحّار قديم.. انداحت رهبة كالتي تكون بعد صدور حكم بالإعدام في محكمة الجنايات. إذا صدقت نبوءة سيّد فسيكون على سعيد أن ينـذر نفسه للّجـة. أن يدفن نفسه حيّاً في مقـبرة المحيطات.. إنه لا يريد مصير والده، ولن يصغي إلى نداء الأعماق. لكن هذا السيد يصدر حكماً مبرماً. يصدره عن خبرة. يصدره على نفسه ذاتها، فكلامه عن العودة وشراء فلوكة ليس إلاّ شوقاً إلى شيء يعرف أنه لن يكون.

تحدثا بعد ذلك عن صالح حزوم، روى سعيد قصة والده بتمامها هذه المرة، وحين فرغ منها، أصدر سيّد حكمه الثاني قائلاً:

- لاقى والدك مصيره وارتاح..

- لكن والدي ما زال مفقوداً..

- البحـارة لا يموتون.. يُفقـدون غالباً.. اسأل عائلات

البحّارة.. كل زوجة تنتظر عودة زوجها. لكن انتظارها يطول.. تظلّ عينها على الباب والغائب طوته الأمواج..

- لماذا تقول ذلك؟ تفاءلوا بالخير تجدوه..

- حسناً، تفاءل ما شئت... أنا لم أسمع بوالدك ولا رأيته.. ربما طلّق البحر.. ابحث عنه كما يليق بولد وفيّ لوالده، لكن حذار، لا تبالغ في الأمل حتى لا تبالغ في الخيبة، اعذرني على هذه اللهجة.. الموت هو النهاية التي يتمناها من بلغ أقصى الشتاء مثلنا.. إننا قبل أن نرحل في البحر، نكون قد نصبنا الشاهدة على قبرنا وانتهى الأمر.. لا يَرُعْك هذا.. لا أريد إخافتك. أنت لن تخاف إلاّ خلال الشدائد.. خلال الصراع الطويل مع اللّجّة، أما عندما تصير على اليابسة، فإن الحنين يجذبك مرة أخرى إلى الماء.. لا تصدّق أن هناك عرائس بحر.. قد تكون هذه خرافة.. البحر وحده هو العروس، ونحن نحبها ونكرهها إلى النهاية.

فكّر سعيد: «لماذا يتكلم سيّد هكذا؟ إنه يصوّر أقصى الشقاء؟ هل البحّار شقي إلى هذا الحد؟ بحّارة المراكب لم يكونوا إلاّ أجراء كما قال قاسم. لنفرض أن بحارة السفن أجراء أيضاً.. فما الفارق بينهم؟ يحسّون بالشقاء أكثر؟ تطول رحلاتهم أكثر؟ تبالغ شركات الملاحة في اعتصارهم؟ عمر لا يتكلم على هذا النحو.. إنّه فتيّ إذن؟ سكّير ومقامر؟ هل بسبب جهله أيضاً.. ما قصة سيّد هذا؟ أتكون

حياة البحّارة في الاسكندرية شقيّة إلى هذا الحد؟ ».
عرف، في الليالي التالية، أن سيّد كان بحّاراً على مركب صيد. قال له: «أنت لا تعرف أي استغلال بشع يخضع له البحّارة عندنا.. صاحب المركب مثل صاحب الأرض، هذا يعتصر فلاحيه وذاك بحارته.. عند اللزوم يحرمهم العمل، يتسبّب في جوعهم مع عائلاتهم، وإذا رفعوا الصوت أدّبهم رجاله، وإذا تمرّدوا ضربوهم بالنار.. ما أهون القتل لديهم، وما أكثر ما تذهب دماء عمّال البحر رخيصة! أنت لا تستطيع شيئاً تجاه الإقطاعي. الأرض له، إذن فالقوّة له، وفوقها قوّة الحكومة. وكذلك الحال بالنسبة لصاحب المركب، ومتعهدي السمك، وأصحاب المعامل.. الدولة دولتهم، وهي إذن في خدمتهم.. هل تفهم ما أقول؟ »

أجاب سعيد:

- كان لي صديق في مرفأ اللاذقية يقول ما يشبه هذا الكلام.. كان يعمل لتأليف نقابة للبحّارة وعمّال الميناء. وقد سجنه الفرنسيون، ثم تولى إقطاعيو المدينة وأزلامهم في الميناء أمره.. خطفوه وقتلوه.. أغرقوه في البحر يا عم سيّد.
- هذا يحدث دائماً.. عندنا، في الاسكندرية، وكذلك في القاهرة وغيرها، حدث مثل هذا.. لكن البحّارة والعمّال توصلوا إلى إنشاء نقابات لهم.. نحن بدأنا قبلكم..

- ناضلتم ضدّ الحكومة؟
- ضدّ الانكليز والحكومة..
- والدي فعل هذا أيضاً..
- ولذلك قتلوه..

قال سعيد..

- لكنه غرق ولم يقتل.. هو الذي نزل إلى تلك الباخرة لإخراج تنكات الكاز.. ثم لم يظهر.. هرب من وجه فرنسا.. أنا واثق أنه هرب ولم يغرق..
- مهما يكن.. نحن في البلية سواء.. عمّال الاسكندرية وعمّال اللاذقية واحد.. قضيتّهم واحدة وعدّوهم واحد...

ساد الصمت لحظة «سيّد الاسكندراني يتكلم مثل قاسم تماماً.. إنه من الفصيلة نفسها.. لكن العدو يختلف.. في مصر الانكليز وفي سورية فرنسا..»

قال الاسكندراني:

- أعرف، في الاسكندرية، زملاء من برّ الشام.. عملوا معنا..
- في البحر؟
- لا.. في النضال ضد الانكليز.. وفي الحركة النقابية.. كان أحدهم من عائلة «خياطة» ثم عاد إلى لبنان.. قيل إنه بدأ نشاطه مع العمّال هناك.. جاءتنا نشرة، علمنا

منها أنّهم احتفلوا بأول مايو في بيروت.. بعد رحيله بعام واحد..

- ما معنى مايو؟

- عجيب.. ماذا تقولون عندكم للشهر.. الذي يأتي بعد مارس؟..

- لم أفهم أيضاً..

- ما هي أسماء الشهور عندكم؟

ضحك سعيد وسيّد عندما اكتشفا أن «مايو» هو أيار، وبعضهم يقول له نوار.. وأن عيد العمّال يقع في أول يوم منه، وأنّهم، في الاسكندرية يحتفلون به منذ مطلع العشرينات، وأنّ سعيد سمع به لأول مرة في الثلاثينات.. وأن الحكومة كانت تلاحق المحتفلين به، وتسجنهم، وأن قاسم سجن لذلك في اسكندرونة نفسها.

- ثم ماذا؟ سأل.

قال سيّد:

- أنا أيضاً سجنت بسبب الاحتفال بأول مايو يا سعيد.

- أنت؟

- لماذا تستغرب؟ ألست بحّاراً؟

- نعم، نعم، ولكن أن تكون منهم؟

- ممن؟

- من..

- فهمت..

وأضاف..

- لا تقل هذا لصاحبك عمر.. هنا لا يريدون دعاية سياسية. كن حذراً..

- سأفعل..

وقف الرجلان وتعانقا.. وقال سعيد فرحاً:

- هكذا تلاقينا.. بحّار من سورية وبحّار من مصر.. هذا جميل..

قال سيّد:

- سنلتقي ببحّارة أمثالنا في جميع أنحاء العالم.. لسنا مقطوعين، ولا نحن وحدنا..

تلك الليلة نام الصديقان الجديدان مرتاحين. علاقتهما، بعد الآن، ستكون أكثر من علاقة بحر، إنها علاقة قضية. وتذكّر سعيد العامل بنيوتي في اسكندرونة، وكيف رآه يقلب ياقة سترته لبحّار إيطالي، ويريه الشارة الحمراء.. ثم يقفان ويتصافحان.. إن والده لم يعرف، في زمنه، قضية كهذه، ما حدّثه عن بحّارة العالم والصلة بينهم، ولا عن عمّال العالم ووحدتهم.. والده لم يجتمع بقاسم، ولا حضر الاحتفال بأول أيّار.. كانت الأمور، في تركيا ثم في اسكندرونة، غير مفهومة بعد.. والده من الروّاد، من الأوائل الذين دفعتهم عروبتهم للنضال ضد تركيا وفرنسا، ودفعتهم أخوّة البحر، والفقر، وتلك المظاهرة، إلى الوقوف مع البحّارة والتضحية، لأجلهم.. قال في نفسه: «تراه لو بقي حياً، كان

يقف مع قاسم وسيّد والآخرين؟ لقد مات قاسم، غير أن العمّال في اللاذقية، أقسموا على الانتقام له.. لو كان والدي، يومها في اللاذقية، لباشر الانتقام بنفسه.. ومن يدري.. ربما هو الآن في البلد الذي هو فيه، مع بحّارة وعمال ذلك البلد.. إنه قادر على الفهم كالآخرين تماماً».

سهد سيّد طويلاً تلك الليلة. كان فرحاً حقاً. محال أن يعرف سعيد من هو. إنه من الاسكندرية فعلاً، لكن اسمه يختلف. خرج من الاسكندرية بجواز سفر مزوّر، دبرّه له الرفاق، إنه مثل صالح حزوم تماماً، هارب من مصر لأن الانكليز حكموا عليه غيابياً بالإعدام. هو لم يقتل. لكنه اتهم بالقتل. كان بحّاراً معروفاً، ونقابياً معروفاً، ومن أجل ذلك دبرّوا له تهمة وصمّموا على أخذه بها... «طيب، قال في نفسه، أنا لا استطيع العودة ما لم يخرج الانكليز.. صالح حزوم، كما قال سعيد، لم يكن يستطيع العودة قبل جلاء فرنسا.. ها هي فرنسا قد رحلت عن سورية وغداً أو بعده يرحل الانكليز عن مصر.. هناك في الاسكندرية، لا يعرفون شيئاً عني. أنا مفقود مثل صالح حزوم، ومثله، ربما، أعمل في البحر، وأولادي، مثل سعيد، قد يكونون يئسوا من عودتي، أو ربما كانوا يبحثون عني.. أي شقاء هذا؟ أيّة ضريبة ندفعها؟ متى ينتهي هذا كله؟».

هاجه الشوق. هاجته مشاعره العائلية. حنّ إلى الزوجة والولد. اشتهى المرأة كثيراً، وكثيراً صعّد رغباته الجنسية

في محاولة للإبقاء على تماسكه، للنجاح في رفض حياة البحّار الذي ينحدر إلى المستنقع، إذا لم يكن له ما هو أهم من الخمّارة والمبغى.. إن عليه أن يتكلّم مع عمر أيضاً.. لا بأس! حتى في قلب المحيط يمكن الصيد أيضاً.. سعيد ليس سمكة ولا قرشا.. إنه ليس فريسة بل زميل.. رفيق، وهذا شيء جميل.. يمكن إنشاء خلية من شخصين، وإذا استطاع، مع الأيام، أن يكسب عمر أيضاً أصبحوا ثلاثة.. هكذا يكون نضاله متواصلاً.. يكون على الطريق نفسه، ففي كل سفينة عمل عليها استطاع أن يقول بعض الأشياء لبعض البحّارة.. إنه يتمّوه جيداً. يحذّر.. يبدي مهارة وشجاعة، لكنّه أيضاً «يصطاد» في قلب المحيطات.. فالأهوال التي يلاقيها البحّارة، تجعلهم مادة صالحة للفهم والتشكل.. وللعمل في بلدانهم التي يعودون إليها.

كان سيّد، في الظاهر، صاحب حكايات بحرية. كان يحفظ منها الكثير، ويرويه، ويستمتع بحفظه وروايته، وعن هذا السبيل يتقرّب إلى الآخرين، يدخل قلوبهم.. يقول لهم: «انظروا.. هكذا عاش أجدادنا البحّارة» فاذا فتحوا له قلوبهم، تحدثوا عن غربتهم وشقائهم، تقدّم خطوة إلى امام، ألقى سؤالا بريئاً، ما سبب هذا الشقاء وإلى متى يدوم؟ ولا يقتصر كلامه على البحارة العرب. إنه يعرف الإنكليزية.. تعلّمها في الإسكندرية، وأتقنها على البواخر، وكثيراً ما استعار كتباً من البحّارة الأجانب، أو قرأ لهم، من كتبه

العربية.. وترجم أيضاً.. وكان هؤلاء البحّارة يفتتنون بحكاياته الشرقية، حتى أن بعض القباطنة، في ليالي الإبحار الطويل، استدعاه إلى غرفته، وطلب منه أن يقرأ ويترجم.. أو أن يحكي، ببساطة، بأسلوبه الخاص، حكاية البحّارة القدماء، الذين كانوا ينطلقون بمراكبهم من شواطئ اليمن إلى شواطئ الهند والسند وجزر الواق الواق، ويواجهون العواصف، فتتحطم مراكبهم، ويغرقون، أو ينجون في قواربهم وينزلون في جزر غريبة.

وكان قبطان الباخرة «كاسل» فناناً بطبعه، يدعى ارتورا من شمال ايطاليا. وأكثر القباطنة الذين عمل معهم سيّد حباً بحكاياته، لا يكاد أسبوع يمر، إلاّ ويسهر معه، ويدعوه لمنادمته، في قمرته ذاتها. كان مولعاً بشيئين: الخمر والمطالعة. كان مرحاً، صخّاباً، يحب البحر حباً حقيقياً، يكره موسوليني، يكره الفاشية، بسبب من أنه سجن في عهدها. كان يقول: في أوقات سكره: «رومل قائد جيِّد. يتقن عمله الحربي. من أجل ذلك لقبّوه ثعلب الصحراء.. لكن مونتغمري كان قائداً جيداً أيضاً وقد واتاه الحظ..» ثم يسرف في الكلام على العمليات الحربية في الصحراء، ويبلغ به الحماس أن يرسم خريطة، ويحاول أن يشرح كيف دارت المعارك فيها، لكن سيّد يمتدح عبقرية مونتغمري نكاية، وعندئذ يحتد القبطان ارتورا، ويضرب المنضدة بقبضته صائحاً: «اذهب إلى الجحيم يا سيّد.. يا وغد! أنت

تظنني أحب رومل؟ لا.. إنما أنا معجب بفنّه الحربي.. الحظ يا سيّد لعب دوره.. الدب الأبيض، في روسيا، هو الذي حارب ضد رومل.. اضطر القيادة الألمانية إلى سحب قواتها من افريقيا.. انظر! هذا هو العنصر الحاسم، هذا ما أسميه حظاً واتى مونتغمري.. »

وفي نوبات الاندفاع هذه كان يشتط في الشرب. إنه لا يشرب إلاّ خارج أوقات العمل، حين يكون نائبه في مركز القيادة.. عندئذ يحمرّ، تزداد لمعة عينيه، يقف ويجلس دونما سبب، يرغم سيّد على الشرب معه، وأحياناً يمازحه قائلاً: «اسمع يا صديقي.. انتبه! أنا الآن أدعوك صديقي. نحن خارج العمل.. حسناً! ارتورا حين يكون خارج العمل يكون صديقاً.. هذه (ويمد يده إلى شرائط القبطان على كتفيه) لا يعود لها دور.. ليأخذها الشيطان.. أنا لست فاشياً ابن زانية بعد كل شيء.. وأنت؟ تستطيع، ونحن نسكر، أن تلبس سترتي.. نتبادل الأدوار بصورة مؤقتة.. في هذه الحال أنا الذي يحكي عن البحر.. هكذا نتساوى.. نصبح صديقين.. ولكن، بعد كل شيء، من أنت؟ مع من كنت في الحرب العالمية الثانية، مع هتلر أم ستالين؟ »، «كنت مع النحّاس باشا »، «ماذا يعني أن تكون مع هذا الباشا اللعين؟ »، «يعني أنني ضدّ فاروق والانكليز »، «هم.. لكن الانكليز كانوا ضد هتلر وموسوليني وهذا جيد » «لكنهم كانوا ضد مصر.. كانوا يحتلونها ».. عندئذ

يخضّ ارتورا يده في الهواء علامة الموافقة النصفية قائلاً: «أفهم، أفهم.. عمر المختار كان ضد إيطاليا أيضاً.. أنت مع الباشا لأنه مثل عمر المختار.. هذا جيّد.. معنى ذلك أنك وطني.. برافو سيّد.. اسمح لي، اسمح لي، أرجوك.. انهض واقفاً.. سنشرب كأس المقاومة.. كأس المقاومة يُشرب على الواقف.. احتراماً.. أنا أيضاً انضممت إلى المقاومة، في أواخر الحرب العالمية.. ولديّ، هنا، وسام.. (يقولها ويفتح صندوقه بحثاً عن وسامه..)

ولقد أحبّ سيد قبطانه ارتورا كما لم يحب قبطاناً آخر، مع ذلك بقي متحفظاً معه. لم يقل له من هو ولا إلى من ينتمي. ذلك أن ارتورا، في الصباح، يغدو رجلاً آخر، نظامياً، صارماً، لا يتوانى عن الضرب بيديه، عن الركل بقدميه، إذا ما تمرّد عليه بحّار، أو عجز السجن عن تأديبه، كان عندئذ يجمع بحّارته على السطح، يأتي بالبحّار المذنب، المشاكس، اللص، المهرّب، الذي ارتكب حماقة ما، ويقول للبحّارة: «قفوا في شبه دائرة، ولا تتدخلوا، سنتعارك الآن.. سأؤدب ابن القحبة هذا دون مسدس ولا سوط.. بل رجلاً لرجل، كما يقضي الشرف البحري».

ليس هذا فقط. بل إنه يزمجر إذا ما ارتكب بحّار ما مخالفة خلال العمل. يثور إلى درجة الجنون، ينقلب إلى وحش، ونادراً ما يعفو، كأنه مصاب بالانفصام، وكأن شراسته هي الوجه الآخر لطيبته.. وفي إحدى المرات،

وكان سيّد قد دخل في عراك مع بحّار انكليزي، توقّع أن تعقد حلقة العراك بينه وبين ارتورا، لكن هذا اكتفى بسجنه. وفي الليل أخلى سبيله، واستدعاه فقال له: «من أجل تلك المرأة.. كيف تسمّيها؟ شهرزاد.. أعفو عنك. إنني مغرم بالنساء، لكنني، خلال هذه الرحلات البحرية، أحلم بأن ألتقي شهرزاد يوماً. عندئذ سأحملها معي على السفينة. ولو خالفت كل القوانين البحرية». كان مفتوناً بنوعين من حكايات سيّد، تلك التي تحكي عن البحّارة القدامى، وعن نساء ألف ليلة وليلة. ومع أنه كان يكره شهريار.. ويسمّيه بالفاشي القذر فإنه كان على نحو ما، يمارس شعور فاتن النساء، لفرط اعتداده بوسامته ورجولته، ولهذا كانت نساء لاهور، اللواتي يلتففن بالساري، يُثرن شبقه، فيقول له: «هل مارست الحب يا سيّد مع امرأة لاهورية.. إنني لا أتحدث عن بغايا الموانئ.. أقصد أميرة شرقية لاهورية تلتف بالساري، طويلة، جميلة، سوداء العينين؟ .. أنا أريد ولداً من امرأة كهذه.. أريده أميراً شرقياً هو الآخر.. انظر! حكاياتك الداعرة بدأت تؤثر علي.. أحك لي عن امرأة شهبندر التجار.. كيف تقول؟ ترضى المرأة الشرقية بالطريقة الشاذة؟ لا تغضب! في الحب يصير كل شيء.. البحّار ليس راهباً، وحتى هذا، إذا سنحت له الفرصة، يكون داعراً ابن قحبة.. أنا أحلم بامرأة تقف امامي، منتصبة كقضيب، ومثلما التفّ الساري حول

جسدها، ينحلّ لفة بعد أخرى، وهي تتعرّى رويداً رويداً، وأنا أشرب وأنظر إليها مفتوناً.».

هذه الليلة، في نحو التاسعة، استدعى القبطان ارتورا صديقه البحّار سيد.. قال له: «أخبروني أنك مسرور هذه الأيام لوجود بحّارين عربيين معنا على الباخرة.. ما اسماهما؟ قال سيّد: عمر وسعيد.. إنهما من سورية، ومن مدينة اللاذقية البحرية»، «حسناً! حسناً! قل لهما أن يطمئنا في عملهما ولا يتسببا في مشاكل كالبحّارة الآخرين» قال سيّد: «سأبلغهما ذلك.. ولن ترى منهما إلاّ الخير.. إنهما من أمهر البحّارة».

أفرغ ارتورا كأسه كله وقال: «يعني أولاد عاهرة مثلك» قال سيّد: «أنا لست ابن عاهرة.. وأنت تعرف ذلك». «اسمع- قال ارتورا وملأ كأسه- هذه ليست شتيمة.. البحّار لا بد أن يكون ابن عاهرة على نحو ما.. هذا ضروري» قال سيّد: «عندنا البحّارة رجال، لا فتيان ميناء كما عندكم في نابولي».. أفرغ ارتورا كأسه وضحك قائلاً: «يعني ليسوا مثل الإنكليز. لا يسلمون أقفيتهم لغيرهم». قال سيّد «هذا ما أردته.» قال ارتورا: «ولا يستلمون أقفية غيرهم؟ كن صريحاً معي، نحن في البحر». قال سيّد: «لست ادري.. ربما فعلها بعضهم.. لكن هذا يعد عيباً عندنا». صاح ارتورا صاخباً: «عيب؟ وماذا في ذلك.. إلى الشيطان يا سيّد.. إلى الشيطان يا صديقي.. أنا لا

أصدقك.. حين يكون البحّار فتى، وجميلاً.. وماذا يفعل البحّارة وهم بعيدون عن النساء؟ ثم إنه لذيذ.. لا تكن عربياً جلفاً.. اسمع.. ألم يقع لك..؟ حدثني عن البحّارة العرب.. لماذا تكشّر في وجهي؟.. اشرب!.. اشرب قليلاً.. البحّار، بعد كل شيء، ليس امرأة، أعني يجرّب كل شيء.. يعيش قانون البحر.. ما رأيك؟» قال سيّد: «كل شيء إلا الشذوذ.. ولكن لندع هذا الحديث.. سمعته منك كثيرا..» صاح ارتورا: «كما تريد.. ليأخذك الشيطان.. إحك لي حكاية مسلّية.. حكاية عن حادثة بحرية نادرة.. من كتابك العتيق، الأصفر.. ألم تحضره معك؟»

كان سيد قد أحضر الكتاب احتياطاً. لكنه فضّل أن يحكي مما حفظه.. في هذه الحال كان يجد متعة أكبر.. يختصر، يلوّن، يعطي للسرد نكهة مغايرة، لا يستطيعها وهو يقرأ ويترجم.. وقال ارتورا وهو يقدم له كأساً طافحة: «اشرب هذا أولاً.. لا تكن وغداً.. أنا لن أعود إلى حديث الشذوذ.. ثم أنت جاف كدلبة.. لا تقبل نصائحي».

شرب سيّد الكأس. تجرّعها على مهل. تذوّقها بفمه وجوارحه. شعر بالدفء والانتعاش.. طابت نفسه، وعندئذ قال لارتورا: «إذا طالت صحبتنا فسأصبح مدمناً من غير شك.. لماذا تفرض عليّ أن أشرب كأساً كاملة؟» قال ارتورا: «لكي تلحق بي.. انظر! أنت لست ابن عاهرة حين

تشرب.. تصبح ظريفاً أكثر.. هيّا.. حدثني.. إحك حكاية لطيفة.. أنا مصغ إليك..»

فكر سيّد قليلاً، انتقى حكاية يعرف أن ارتورا سيحبّها، وقال بصوت متهدج أولاً، لم يلبث أن نشط، واستقام مطاوعاً: «كان في قديم الزمان ريّس يدعى عبهرة. نشأ في صباه راعياً للغنم، ثم عمل بحّاراً في مركب يسافر إلى الهند، وبعده عمل في مركب يسافر إلى الصين، وحين صار ريّساً، سافر إلى الصين سبع مرات، وعاد سالماً.. ولم يكن أحد من النواخذة[1] أو البانانية[2] قد سافر إلى هناك ونجا من الغرق. وروى بحّار أنه كان مع الريّس شهرياري، وهو من ربابنة الصين، في البحر قرب «صندل فولات» فاضطرب المركب لشدة النوء وراح يغرق، ولم تسعف الريح في التحرك، فما كان من الريّس شهرياري إلاّ أن ألقى الأناجر[3] في البحر ورسا لمدة يومين في حالة الخطر. وفي اليوم الثالث رأى شيئاً بعيداً في البحر، فانزل «الدوينج»[4] وأرسل فيه أربعة بحّارة، وقال لهم اذهبوا فعاينوا لي ذلك السواد، فذهب البحّارة وعادوا ليخبروه أن

(١) نواخذة مفردها نوخذة وهو ريس المركب.
(٢) البانانية مفردها باناني وهو البحار في المركب.
(٣) الأناجر مفردها انجر وهو الباطر، المرساة، ويقول له الأجانب: هنكر.
(٤) قارب صغير للنجاة..

السواد هو مركب الربّان عبهرة، فسألهم لماذا لم تحملوه إلينا ليساعد في إنقاذنا؟ أجاب البحّارة: «اجتهدنا معه فامتنع علينا، وقال: «لا أصعد إلى مركبكم إلاّ بشرط أن أكون الربّان فأدبر المركب وآخذ أجرتي ألف دينار عيناً من بضائعكم.».. وقد وجد الريّس شهرياري أن المبلغ كبير، لكن البحّارة أصرّوا عليه، ونزلوا إلى عبهرة وطلبوا منه أن يصعد ويتولى قيادة المركب الذي فيه أمتعة وأموال عظيمة، وخلق كثير، وسيعطونه ما يطلب. كانت الريح شديدة، وبصعوبة استطاعوا حمل عبهرة في زورقهم وإيصاله، على ذرى الأمواج، إلى المركب.. فلما صار فوقه تسلّم بضائع بألف دينار، وقال للربّان اجلس ناحية، وتولّى هو القيادة.

«كان أول ما أمر به الريّس عبهرة أن يطرحوا حمل المركب كلّه في البحر. رمى البحّارة نصف الحمولة. صاح بهم: اقطعوا الدقل[٥] الأكبر وألقوه في البحر ففعلوا. أمرهم أيضاً أن يرفعوا الأناجر ويتركوا المركب يسير لنفسه فأطاعوا. لكن المركب ظلّ ثقيلاً. عندئذ طلب منهم أن يقطعوا الأنجر الأكبر فقطعوه، وظلّ يأمرهم حتى قطعوا ستة أناجر، فعام المركب جيداً، واستطاع مقاومة الخب[٦] الذي طلع عليهم في اليوم الثالث. ولما انتهى الاعصار أصلحوا من

(٥) الدقل: الصاري.

(٦) الخب: النوء العظيم.

حال المركب وتوجهوا بقيادته إلى الصين، فباعوا واشتروا، وأقاموا دقلاً جديداً. وقفلوا راجعين، إلى أن صاروا إلى الموضع الذي صادفهم الإعصار فيه، فقال لهم انزلوا في الزورق واذهبوا إلى الجبل الذي مقابلكم تجدوا الأناجر على أطراف الجزيرة. ذلك أن الريّس عبهرة كان يعرف زيادة مياه البحر ونقصانها، وقد علم أن المياه انحسرت عن الجزيرة، فظهرت الأناجر التي أخذوها وعادوا بها إلى المركب. عندئذ سأله بحّار: «كيف تجرأت، يا ريّس عبهرة، أن تقطع الأناجر، وتذهب بدونها إلى الصين؟» فقال عبهرة: «لم تكن الأناجر ضرورية لنا في بحر الصين، وقد تخفّف منها المركب حتى نجا بما تبقّى فيه من بضائع وبجميع ركابه». أضاف: «الآن عودوا إلى بلادكم مصحوبين بالسلامة..» وهمّ بالنزول من المركب، لكن امرأة من بين الركاب، جميلة فارعة، كحيلة، شهدت ما جرى للمركب، تقدّمت من عبهرة وقالت له: «قف! سأذهب معك.. أنت الريّس الذي أكون آمنة معه، والذي كنت أبحث عنه» فقال عبهرة لمن في المركب: «إنني أردّ إليكم جميع ما أخذته منكم من بضائع ومال.. واكتفي بهذه المرأة التي تسوى لدي المركب كله».. والتفت إلى المرأة وسألها: «من أنت؟» قالت المرأة: «أنا قطر الندى، وقد كنت جارية الربّان شهرياري، لكنني أتخلى عنه وأتبعك يا سيدي، أتبعك بعد كل ما رأيته من شجاعتك ومهارتك في البحر» وهكذا صار..

سأل ارتورا متلهفاً:

- وماذا فعل الربّان شهرياري؟ هل ترك المرأة تذهب بغير مقاومة؟

قال سيد:

- كان الربّان شهرياري يرتجف من وطأة العار الذي أحسّه في هذا الموقف.. وقد أدرك أن الخبر سينتشر بين جميع الربابنة والبحّارة، وأنه سيكون أضحوكة الجميع، فتناول خنجراً من حزامه وقتل نفسه.. وبعده تولى عبهرة رياسة المركب وقاده إلى خليج اليمن.

هتف ارتورا:

- يا لها من حكاية!

فعل ذلك وهو واقف يلوِّح بذراعيه.. لقد بلغ به الجنون أن شرب كأسه ثم قضم الزجاج بأسنانه.. كان منفعلاً، متحمساً، متهوراً كما لم يره سيّد من قبل، وقد خطف الكتاب الذي كان ملقى جانباً وضمّه إلى صدره قائلاً:

- آه!.. أيها الشرق.. كم فيك من أشياء عجيبة!؟

ثم انحنى وقبّل سيّد باكياً من السكر، ولما هدأت نوبة انفعاله قال:

- كم كان بحارتكم شجعاناً؟ إنني ألعن السفن الحديدية كلها.. لقد مضى عهد المراكب، عهد الربابنة المهرة المغامرين، وكذلك مضى عهد القراصنة.. اصبح البحر قحبة يفتح فخذيه لكل بحّار.. فقد بكارته إلى الأبد..

وفي اليوم التالي قصّ سيّد على سعيد ما جرى معه. كان يضحك من طرافة ارتورا، ويعجب لروحه المغامرة، التي تجد هواها في قصص من هذا النوع، وتندمج فيها متأثرة إلى أبعد حدود التأثر.

قال سعيد فجأة:

أنا من رأي القبطان ارتورا..

- حتى في الشذوذ الجنسي؟..

ضحك سعيد:

- هذا لا.. أنا معه في ولعه بالأشياء الغريبة.

قال سيّد:

- أنت مغامر مثله، وربما كان والدك صالح حزوم، مثلكما أيضاً (وبعد صمت قصير) عهد المراكب الشراعية مضى، ومن الخير أنه مضى.. التقدّم في صالح البشرية، أكان في البحر أم في البر!

قال سعيد في شبه عتب:

- أنت لا تعرف والدي.. لذلك أرجوك ألاّ تتحدث عنه بسوء..

- ما قلت ما يسيء.. لكن زمن المراكب.. كيف أقول؟ فكّر بالمسافرين، بحركة نقل البضائع، بكل ما أحدثته السفن من تغيير في الحياة..

- لا أريد أن أفكّر بشيء.. إنما أرجوك ألاّ تتكلم عن والدي كما فعلت.

هكذا، افترق الصديقان، لأول مرة، وفي نفس سعيد عكر خفيف. لم يشتم سيّد، لم يناقشه، ولو اقتصر الكلام عليه هو ما سأل، إنما والده.. «والدي مغامر؟ وماذا في هذا؟ ليكن.. المغامرة حلوة، لولاها كم كانت جافة حياة البحر! ماذا في هذه السفينة الهرمة من متعة؟ أين الشجاعة والرجولة والمهارة التي يحتاجها البحّار على المركب؟ لقد عملت هناك.. وها أنا أعمل هنا.. أين الفرق؟ إنه كبير.. كبير جداً، أنا، تلك الليلة العاصفة، يوم غرق مركب الريّس عبدوش، قطعت الدقل بنفسي.. صعدت إلى أعلى، في مغامرة مجنونة وفصلت الدقل المكسور بسكين.. ووالدي، في تلك المعركة النهرية.. كم كان جسوراً ورائعا! وبعد هذا. يقول عنه إنه مغامر. وماذا يعني بها؟ طائش؟ لا. والدي ما كان طائشاً. كان رجلاً.. وأنا رجل أيضاً. لكنني أتعفّن على ظهر هذه السفينة. أنا وأي بحّار خامل سواسية.. اللعنة!»

جفاه النوم، سيّد ذكّره، عندما تعارفا، بقاسم. اليوم ذكّره به أيضاً، سعيد يتكلّم مثل قاسم. كلّما طار الإنسان أنزلاه إلى الأرض «والسماء يا جماعة؟ القباطنة، على السفن، لا يضحكون للرغيف السخن، لكن ارتورا هذا رائع.. مجنون يقول عنه؟ طيب، ليكن مجنوناً.. أنا أحب المجانين.. أحب عبهرة.. وأحب شهرياري لأنه انتحر.. لو كنت مكانه لمزقت «قطر الندى» بخنجري.. أقتلها وبعد ذلك أقتل نفسي.. هذه هي الرجولة.. القبطان ارتورا حطّم

الكأس بأسنانه.. هذا جيد.. إنه يتمنى لو كان مكان عبهرة.. يحب النساء، يحب الخمر، يحب الموت.. وسلام على الدنيا..».

أشعل سيكارة وسيكارة، لا يريد أن يغضب من سيد. في الماضي ما كان يرغب في إغضاب قاسم أيضاً.. يعز أمثالهما، ولكن لماذا، في الكلام على السياسة، يتجرّدان من العاطفة تماماً؟ يقرّران، ببرود، أن الأشياء كذا وكذا، كأنما فصّلاها تفصيلاً، أو كأنما امتلكا الحقيقة الشاملة في هذا الكون. هو لا يستطيع أن يكون كذلك، لا يريد حتى ولو استطاع. في نفسه أسى قديم من التعقّل. قاسم ما كان يرتاح لبعض أسئلته. يرى فيها نفاد صبر. لجاجة. يقيس الناس كلهّم بمقاسه. الصبر على الحديد حتى يحمى. ولكن متى؟ ها هو قاسم قد مات والحديد ما زال بارداً. وسيّد مثل قاسم، في الإسكندرية كاد يدفع حياته ثمناً. في الغربة يدفع الثمن نفسه ولكن بأشكال أخرى، غير أن المطرقة ما تزال في يده، وما يزال يضرب حديداً بارداً.

كان انزعاج سعيد، في حالات كهذه، ناجماً عن شعور بالتقصير، مردّه إلى ذكرى والده، في نوع خفي جداً من تأنيب الضمير. غضبه، هنا ينصبّ على نفسه، أكثر من انصبابه على قاسم أو سيّد أو من عرف من البحّارة والمناضلين. قال له والده، في دعوته إلى اتباعه على طريق

البحر ومقاومة الفرنسيين، «كن رجلا» وهو، في أعماقه يشعر بخيبة من تنفيذ الوصية. شجاعته. في السفر مع المراكب. كانت ومضاً لا ضوءاً. لم تكن حياته كلها، لم يشعر أنها طبيعته الكاملة. ما زال في هذه الحياة شيء من إحباط. أما مقاومة فرنسا. فإنها تعطيه سبباً إضافياً في الإحباط. لأنه لم يشارك فيها كما ينبغي. وذروة فشله تتجلى في أنه لم يمتلك يوماً نفساً طويلاً. صبراً مؤاتياً لنصرة العمّال والبحّارة الذين ضحّى والده. بغير صوت. لأجلهم.

إنه ينقم، دون أن يدري، على لجاجته، يتأرجح على حبل الخيبة بين رغبته في أن يكون كوالده، وبين عجزه عن أن يكون. يزداد هذا العجز حين يتطلب الموقف قدرة على فهم الأشياء المركبة، أو التي تتعدّى الأحادية. والده كان ضد الأتراك والفرنسيين، هذا واضح، كان ذلك ميسوراً لوالده، وكان بسيطاً. لكن قاسم كان مع العمّال، وضد الزعماء المحليين، ضدّ الاقطاع كما قال له، وسيّد يقول إنه ضدّ الإقطاع واالبورجوازية، وكلاهما يكرهان الأجنبي، فرنسا وبريطانيا، ويحبان أجنبياً آخر، هو روسيا، فكيف تستقيم الأمور على هذا النحو؟ وكيف لا يعجب سيّد بميتة شهرياري، ولا بحماسة القبطان ارتوروا لموقف «قطر الندى»؟ ولماذا ينكر أن المراكب أجمل من السفن، وأن مهارة عبهرة، مثلا، أفضل من مهارة أي قبطان ابن كلب، يدير مؤخرته للبحر، ويجلس طوال النهار أمام خرائطه في

غرفة القيادة؟ كل ما في القبطان ارتورا حلو، شاعري، حماسي، مريح، وقد كان الريّس عبدوش عدوّه، منافسه على تلك المرأة، لكنه تصرف باندفاع، بروح المغامرة، حين قطع الحبل، وحين قرّر أن يغرقه ويغرق نفسه.

اعتزم سعيد أن ينسى ما سبّب له سيّد من ازعاج. صحيح أنه، حين اختلى بعمر، قال له إن سيّد بحّار عجوز، وإنه يتظاهر بالهدوء الذي يتناسب مع سنه، وإن هناك فرقاً في العمر بينهما، غير أنّ هذا لم يمنعه أن يكنّ احتراماً أكبر له، وأن يشتاق حكاياته، ويبحث عنه كلّما وجد وقتاً فارغاً لديه. ولقد دفعه إعجابه بالقبطان ارتورا إلى التحرّش بسيّد قائلاً:

- أريد حضور مجلسكما مرة..
- لماذا؟ وبأي سبب؟
- لمعرفة أي نوع من الرجال هو أرتورا.. اليس هذا سبباً كافياً؟
- لكنه لا يبّرر حضورك مجلس القبطان..
- هل القبطان ملك..؟
- على الباخرة هو الريّس وهو الملك.
- أنا لا اعرف الملوك ولا القباطنة.
- مع ذلك تحب ارتورا..
- أحب جنونه..

قال سيّد:

- إنه مسلٍ..
- فقط؟
- وماذا غير ذلك..
- ألم يشترك في المقاومة؟
- وماذا يعني.. إنني معجب بفعله هذا.. ولكن ارتورا، مثل مئات الألوف ممن قاوموا هتلر.. لا يفعل شيئاً الآن.. قال لي: إنه قام بواجبه وكفى..
- وماذا تريد منه أكثر..؟
- أنا لا أريد شيئاً.. إذا كان موسوليني الفاشي قد مات، فان الفاشية ما زالت موجودة.. في إيطاليا نفسها فاشية الآن، والاميركان يحاولون بعثها من جديد..
- وصلنا إلى الاميركان أيضاً؟
- الخطر يأتي منهم الآن.. ورثوا هتلر وموسوليني..
- وحقّ الشيطان لم أفهم شيئاً.. كنا نتحدث عن القبطان ارتورا..

قاطعه:

- الكلام يجرّ بعضه.. (وبعد وقفة) لماذا تضجر من السياسة؟
- لا أدري.. ربما كنت لا أفهم فيها..
- ألم تكن سجيناً يوماً؟
- وماذا يعني هذا؟

- السجن هو سياسة أيضاً.. ألم تفكر لماذا سُجنت؟
- كيف لا؟ ألم أقل لك إنني سجنت بسبب فرنسا؟
- وأنا سجنت بسبب بريطانيا..
- غداً ترحل بريطانيا عن مصر وينتهي الأمر..
- يا ليت.. المشكلة أعقد يا سعيد.. لدينا الآن اسرائيل..
- وماذا يهم؟ دولة صغيرة في قلب عالم عربي كبير..
ابتسم سيّد:
- المشكلة ليست فيها ذاتها بل في أميركا التي تحميها وفي بريطانيا التي سلّمتها فلسطين..
- والعرب... ماذا يفعلون؟
- بعضهم، الحكام خاصة، يهادنون اسرائيل.. لهم مصلحة في ذلك..
- لا أصدّق..
- صدّق..
- هل هناك عربي يريد أن يبقى صهيوني في أرضه المغتصبة؟
- لنتفّق على هذا العربي أولاً.. من هو؟ الى أيّة طبقة ينتمي..؟ ما مصلحته؟ ما موقفه من الاستعمار؟
- العربي هو العربي..
- لا تضع الجميع في سلّة واحدة.. بين العرب العامل والفلاح من جهة.. وبينهم الإقطاعي والرجعي من جهة ثانية..

- أنت مثل قاسم.. لا تثق بالزعماء ولا بالحكام.
- أنا لا أعرف قاسمك هذا.. لكن الذين لهم مبدأ واحد لهم رأي واحد..
- انتم تعقّدون المسألة..
- هي تتعقّد لحالها.. ونحن نعمل لحلّها..
- كيف؟.. قل لي..
- ليس من السهل أن أشرح كل شيء.. المهم أن يزول الاستعمار أولاً..
- عندنا رحلت فرنسا..
- ومن يحكم الآن؟ الإقطاع.. زعماء الإقطاع.. هؤلاء لا يقطعون مع فرنسا..
- لقد حاربوها..
- حتى يصلوا إلى الحكم.. الآن صارت لهم مصالح.. والآن الخطر ليس من فرنسا بل من أميركا..

قال سعيد في نفسه، وهو ينظّف سطح الباخرة بالماء والمعجون: «هذا السيّد يكاد يخبلني من كثرة خلط المواضيع ببعضها.. عندما رأيته في بدء الرحلة، حسبته بحّاراً درويشاً. إنه عادي تماماً، ليس له مظهر رجل ينطوي على كل هذه الصلابة وهذا الذكاء.. ظنّي أنه سينتهي كما انتهى قاسم.. إنه منذور للموت، ولهذا يحاذر، يحترس، يشمّ، كالأرنب، رائحة الخطر من بعيد.. وددت لو أعرف نصف ما يعرف.. يا ربي!. أين تعلّم ذلك كله»؟

في هذه اللحظة ربّت على ظهره المنحني فوق خشب السطح إنسان ما. توقّف عن العمل واستدار: كان هذا القبطان ارتورا.. ارتبك سعيد وهو يحييه. لم يفهم ما قاله القبطان، لكنه لاحظ أنه يروزه، يتفرّس فيه من رأسه إلى قدميه، وبعد أن تأمله ملياً، انصرف عنه إلى مقدمة الباخرة، فرجع سعيد إلى عمله، وقد سرّه أنه لفت نظر القبطان بهذا الشكل..

عند الظهر اجتمع الثلاثة على طاولة الغداء: سيّد وعمر وسعيد. كان المرق، في صحونهم، يميل حسب ميلان الباخرة ويكاد يندلق. فقال سيد:

- سنواجه عاصفة على الأرجح..

سأله عمر:

- وكيف عرفت..؟

- من تغيّر لون الماء.

ثم شرح رأيه قائلاً:

- من عملي الطويل في البحر لاحظت أنّ الماء يتغيّر قبل الأعاصير.. يصير داكناً.. تتحرك التيارات الجوفية كأن مغناطيساً يجذبها من الريح التي تمرّ على السطح..

- في هذه الحال لا حاجة إلى الرصد الجوي. قال عمر ساخراً..

قال سيد:

- سترى.. الملاحظة الطويلة تسمح لك بالتنبّؤ يا عمر..

تدّخل سعيد:

- من هذه الناحية أوافق.. الريّس عبدوش كان يحدّق في الماء ونحن في عرض البحر، ويبدي رأيه في الحالة الجوية.

قال عمر:

- إنما أنت يا سعيد صوت سيّده.. كلما خطّ سيّد حرفاً بصمت عليه.

- أنا أحترم البحّارة القدامى.. الأكبر منك بيوم أعرف منك بسنة.. هذا ما كان يقوله والدي.

- ليست المسألة بالعمر.. بل بالفراسة.

- هذا صحيح، قال سيّد، فإذا اجتمعت تجربة العمر وفراسة النظرة، كان صاحبها جديراً بالمعرفة.

- أنا لا أرى مخايل عاصفة، قال عمر..

لكنّه بعد قليل، اضطر إلى مسح الحساء الذي سال من صحنه على المائدة، وعندئذ ضحك سعيد قائلاً:

- بدأت العاصفة في صحنك يا عمر وأنت تجادل..

وفجأة، من حولهم، نشب عراك بين البحّارة. كان أحدهم قد شرب حتى السكر، وكان خصمه قد قمره في اللعب، ووجدا المطعم مكاناً مناسباً لتصفية ما بينهما. وكان البحّارة، في رتابة حياتهم، يسرّون لمثل هذه المشاجرات، وما أن تنشب حتى يشتركوا فيها، وعندئذ تتطاير الكراسي والزجاجات والأقداح، ويعجز الموسترومو[١] عن وقف العراك، حتى إذا ظهر القبطان توقفوا، وانسلّ بعضهم

(١) رئيس البحارة.

اتقاء العقاب، ومن ضبط مجروحاً أو ممزق الثياب كان للقبطان شأن معه.

ومع أن سعيد لا يمتّ إلى المتعاركين بأيّة علاقة، فقد حشر نفسه في المعركة، محاولاً فضّ الخلاف، والفصل بين المتعاركين، ثم انحاز الى البحّار الثمل، بدافع من شفقة، وراح يضرب ويضرب إلى أن جرح في جبينه، جرحاً بالغاً بزجاجة قذفه بها أحد البحّارة.. ما قدّر أن ذلك سيحدث لكنه حدث. الجرح في جبينه رعف دما بلّل قميصه، الخصوم تكاثروا، عمر انجرد ليحمي سعيد، ظلّ سيّد بعيداً، يراقب بأسف، وكل ما في المطعم تهاوى أو تحطم، والوشتمان[٢] لم يستطع شيئاً، وكذلك عجز الضباط عن تهدئة رجال مغامرين، شرسين، جائعين إلى العراك.

حين يصير المرء في قلب المعركة، يتوقف الحذر الذي كان في نفسه قبلها. العلاقة بما هو خارجها تنفصم. يصبح الموت يسيراً، يخلي الخوف مكانه للتوفّز، يملي الغضب أوامره، يمتلكها. إنه قانون! أنت قاتل أو مقتول. الكل، في هذه الحال، يصبح قاتلاً، لا أحد يرضى أن يقتل، يصبح الموت نظرة افتراس في عينيْ كل من الرجال المتعاركين.

سعيد لم يكن، في هدوء تفكيره يقدّر أن ما وقع سيقع، أحياناً كثيرة، في بلده اللاذقية تمنّى خوض معركة. لكن

(٢) الحارس.

هذه كانت تختلف. طالما أنها موجهة ضد فرنسا، التي تحتل الوطن كانت معركة هادفة. الآن المعركة مجانية. يكفي أن يتفرج عليها من بعيد، كما فعل سيّد. لكنه تدخّل للفصل بين المتشاجرين، فاذا هو متشاجر، إذا هو مجروح، وإذا بالكراسي والزجاجات تنهال عليه، ويصبح الآخرون قتلة، وهو إذا لم يقتل، لا بّد أن يقتل، في حال كهذه أصبح دفاعه مشروعاً. دائماً الهجوم يكون باسم الدفاع. يصير مشروعاً وضرورياً، ولا سبيل للخلاص إلاّ بالمضيّ في المعركة حتى آخرها، دونما حساب، أدنى حساب للنتائج التي ستسفر عنها.

مدفوعاً بهذا العامل النفسي، خاض سعيد معركته الأولى على الباخرة. استبسل فيها. استنفر لها كل طاقته. كل رجولته، كل شجاعة قلبه، والقبطان ارتورا، الذي شاهد طرفاً من المعركة رآه، عرفه، أفرد له حلقة من حلقاته، برغم رجاءات سيّد. ارتورا، هنا، ريّس، ملك، الملوك يباشرون عقابهم بواسطة حراسهم. ارتورا يباشره بنفسه. هذا شرف بحري. هذا واجب قبطان ينبت في داخله ألف إغراء شهرياري. إن «قطر الندى» ما كانت تترك سيدها وتلحق عبهرة لولا رجولته. هو الآن، ارتورا عبهرة، وفي خياله يعيش بحر الصين. وبحر الهند، وألف أسطورة من تلك التي رواها له سيّد، لكن العاصفة أجّلت إقامة الحلقة. ففي ساعات ما بعد الظهر، توالت نذر إعصار

قادم الى المنطقة التي تبحر فيها «كاسل» مما أوجب على ارتورا أن يتولى القيادة بنفسه، ويعلن النفير العام على الباخرة، متلقياً أول بأول تقارير الرصد الجوي التي تأتيه تباعاً من المحطات التي يتلقاها عامل اللاسلكي في الباخرة. وكانت المعلومات كلّها تدلّ على أن إعصاراً ربما كان «التسوناي» هو الذي يهب من شواطئ بيرو والأكوادور، مروراً بمضيق بناما، وأن سرعته تصاعدت من ٦٠ الى ٧٠ الى ٨٠ ميلاً في الساعة الواحدة.

استدعى ارتورا معاونيه وأطلعهم على التقارير الجوية، قال: «هذا الإعصار خطير جداً، يمكن أن يصل ارتفاع الموج فيه إلى ٤٠ قدما، وأن تداخل الأمواج العالية يكوّن موجات فوقية غير عادية. بحيث تغرق اكبر السفن. على هذا لا بدّ من تغيير خط السير، حتى نتفادى الاصطدام بمقدمة الاعصار» طلب من معاونيه أن يجهزوا زوارق الإنقاذ، أن يشددوا الرقابة، أن يوعزوا بعدم النوم لأي بحّار، أن يجعلوا على الدفة أمهر البحّارة وأقدمهم في الخدمة، كذلك مراقبة اللاسلكي. ذكّرهم أن سهواً واحداً، إغفاءة قصيرة من عامل اللاسلكي، يمكن أن تؤدي بالسفينة، وعقوبتها في هذه الحال الموت.

انفضّ الاجتماع، تسارع الضباط المعاونون إلى مراكز عملهم. عمموا الأوامر، اقفلوا العنابر، اخلوا سطح الباخرة إلاّ من الوشتمانية والمراقبين. تفقّدوا زوارق

الإنقاذ، طلبوا من ضابط الميكانيك تشغيل المحركات بأقصى طاقتها، وتبدّل خط السير، فراحت الباخرة تتلقّى الأمواج في خاصرتها. فتشبّ المياه، ويعلو رذاذ كالبخار فوق السطح، يبدو البحّارة من خلاله كأشباح تتحرك في الضباب، والمياه تبلّل ثيابهم ووجوههم.

أبرقت الباخرة إلى أقرب الموانئ. «زودّونا بالتوجيهات» أعطت موقعها من خط العرض وخط الطول، والمنطقة البحرية، ووجهة السير، جاء الرد: «استمروا، مع انحراف السير إلى العمق، انتظروا تقديرات جوية لاحقة» بعد الغروب اشعلت اضواء الباخرة كلّها. فتحت البروجكتورات من كل الأطراف وبدأت الاتصالات بالبواخر المتواجدة في المنطقة، على مسافات متفاوتة، لتحديد مواقعها، وجهات سيرها، مع تحذير من تكاثف الضباب، والخوف من الاصطدام.

ارتورا، في غرفة القيادة، هادئ واثق. هذا ليس أوّل إعصار يواجهه، لا بأس بجرعات من الويسكي. الزجاجة على كومودينة في الزاوية، بجانب علم الباخرة اليوناني، لا حاجة للكأس. من فم الزجاجة الى جوفه. نار تدخل الجوف ولا يحترق. خلع سترته. فكّ ربطة عنقه. ارتدى سترة مشمعة خفيفة. صاح في البوق: «إلى الشرق أكثر ١٥٠ درجة على خط الطول» ردد الضباط النداء من ابواقهم. البحّار، على الدقّة، أدارها وفق الأوامر. مرّة أخرى ارتورا يصيح في

البوق: «تفقّدوا المناكر» جاء الجواب: «كل شيء جاهز» أبلغ عامل المراقبة: «ندخل منطقة ضبابية سوداء. ارتفاع الموج يزداد. الباخرة تضطرب بشدة».

اعتمر القبطان ارتورا قبعته. سترها بطاقية واقية للمطر. أخذ جرعة من الويسكي القوي الفاخر. ترك باب قمرته مفتوحاً، وخرائطه على قوس القيادة، وخرج.. عليه أن يعاين كل شيء بنفسه، قبل أن يعطي تقريره عن الحالة. صعد إلى السطح. كان مغموراً بالماء، ريح عنيفة باكية تجتاحه فتهزّ المدخنة والصارى الكبير، كأنها تمسك بهما في قبضة جبّارة غير منظورة. كان سعيد على السطح، في موقف المراقبة. وقفته لا ينقصها التحدي. الرذاذ يضرب وجهه فلا يحاول اتقاءه. كان منتصباً هناك غير مبال. وكان السطح خالياً، ومن خلال أشعة المصابيح الكاشفة، يتراءى الرذاذ البخاري كأنه ذرات غبار تسبح في ضوء شمس تخترق النافذة، سأله ارتورا عن اسمه. نظر إليه بإعجاب. وفي اللحظة نفسها جاءت هبّة ريح هوجاء تحاول اقتلاعه، فترنح، ووجد نفسه بين ذراعي سعيد، الذي كان يمسك بوتد ليقوى على عصفة الريح.

أكمل القبطان جولته. انحدر مبللاً كله الى القمرة. كان يرتجف من الماء والبرد، وكان يشتم شتماً مقذعاً، فتناول زجاجة الويسكي وتجرّع مقداراً طيباً منها، ثم عكف على

التقارير التي وصلته عن حركة الإعصار، وجهته، سرعته، وعن الشواطئ التي ضربها، والتلف الكبير الذي أحدثه. شواطئ كولومبيا كانت تتلقى هجمته الذئبية.. التقارير أفادت أن سرعة الإعصار بلغت سرعة طائرة نفاثة. الأمواج دمرت شواطئ كولومبيا، بسبب الاضطرابات العارمة التي تتجاوب من تحت سطح البحر، مع تيّار الإعصار فوقه «خطر! خطر! خطر!» صاح القبطان ارتورا في بوقه: «انحراف أكبر إلى الشرق، مع سرعة قصوى. الإعصار قادم. الجاهزية كاملة، اربطوا أحزمة النجاة» انداح النداء حتى بلغ، مردداً، كل أنحاء الباخرة. البحّارة تلقوا إشارة الخطر بوجوم. كان كل منهم في مكانه الآن، تولّى برود روموس، نائب القبطان، دفّة الباخرة بنفسه. صارت الأوامر تصدر إليه من غرفة القبطان مباشرة. سيّد تولى مراقبة تسرب الماء إلى العنابر. عمر وبحّار آخر في المقدمة، على المنكر الكبير. كل بحّار أدرك واجبه ونهض له. انتفى الخلاف والحزازات. الكل واحد أمام الخطر. الموت غول بسبعة رؤوس يتدحرج مع الموت ويفحّ في الريح. لا نظام للورديات الآن، كلّ في المهمة الموكولة اليه حتى إشعار آخر، حتى زوال الخطر. سيّد تبلل كله. الرذاذ رنّخ ثيابه. أعمى عينيه. ومن موضعه في المراقبة رأى كتلاً جبلية من الموج، تأتي كالانهيار المائي، كسد يتداعى تحت ضغط سيل عرم، وتنطوي الموجة على نفسها، ثم ينبثق

رأسها، كتفاها، هيكلها الضخم المخيف، ويرتطم بالجانب الأيسر للباخرة، ويغمر سطحها وينساح من الطرف الآخر. والضباب المتقطع، الذي كان يأتي على دفعات، غدا الآن موصولاً، دخلت الباخرة في ليلين شديدين من الظلمة والضباب، لم تعد المصابيح، على سطح الباخرة، تسمح بالرؤية، خيّل لكل بحّار وهو يتشبث بموقعه، أنه وحيد في قلب المحيط، وأنّ أحداً لا يراه، ولا يسمعه لو صرخ، وأن النهاية دنت، ولن تلبث «كاسل» أن تستلم لمصيرها فتتحطم وتغوص في الأعماق.

في هذا الوقت الرهيب، اتخذ القبطان ارتورا قراره المفاجئ: «دوران مئة وثمانون درجة. مؤخرة الباخرة إلى الإعصار، والاتجاه شرق شمال، والسرعة مفتوحة تماماً». نفّذ القبطان المساعد برود روموس القرار لكنّه طلب مناقشة الموقف. ظنّ أن القبطان فقد وعيه من كثرة ما شرب. كان الشرب، في مثل هذا الموقف، ممنوعاً، لكن ارتورا كان يخالف القانون، ومن حق هيئة القيادة، في هذا الحال، وإذا ثبت أنه أصبح في حالة سكر كامل، أن تنحّيه ويتولى القيادة أكبر نوابه رتبة. لكن ارتورا مع انه شرب كثيراً، كان في حالة صحو كامل. جسمه، في حالات كهذه، ذو قدرة بالغة على امتصاص الخمور. لبّى طلب المناقشة فوراً. القرار الأخير له، إلاّ أن سماع آراء معاونيه ضروري. وفي غرفة القيادة بدا في حالة إرهاق شديد. أحمر العينين مشدود

عضلات الفكين، يذهب في الغرفة ويجيء، كأنه فرغ من توّه من إصدار حكم بالغ الخطورة. بسط الخريطة، ووضع خشبة مكعبة صغيرة في الموقع الذي تتخبط فيه الباخرة في قلب المحيط. وضع خشبة أخرى على شكل سهم، رأسه مصوّب إلى الباخرة، وقال: «اقتربوا! نحن في قبضة الإعصار. حاولنا، منذ ما بعد الظهر، تفاديه فما نجحنا، لو استمررنا في الإتجاه الذي كنا عليه تحطمت الباخرة، الموج العنيف يحطم الحاجز ويفكك خشب السطح. أما الجانب الفولاذي فلن يصمد طويلاً بعد ذلك. محال، إنه الانتحار. في هذه الحال، يبقى هناك خياران: أن نواجه الإعصار فيرفع الباخرة من أمام ويصعد بها إلى أعلى، حتى يقلبها ويردمها. وفي هذه الحالة نضيع، الخيار الثاني أن نستدير ونذهب مع الإعصار إلى أعماق المحيط. احتمال النجاة هنا أكبر، فالباخرة تندفع إلى أمام، بكامل سرعتها، ونحن لا نخشى الارتطام لأن الشواطئ بعيدة، فإذا ما تغير إتجاه الإعصار، أفلتنا من شدقيه، وعدنا أدراجنا باتجاه مضيق بناما.. هذه خطتي أيها السادة.. والآن جاء دوركم وأنا مصغ».

قال ذلك وأشعل سيكارة، كأنه فرغ من صياغة حكم كان يعذّبه. قال نائبه الأول:

- لنطلّع على آخر تقارير الرصد الجوي..
- ها هي، قال، ووضعها فوق الخريطة على الطاولة.

بسطها أحدهم، وعكف المعاونون الثلاثة على قراءتها بينما

ارتورا يذهب ويجيء.

قال النائب الاول:

- تقدير اتجاه الإعصار صحيح..

قال برود روموس:

- نحن في حالة مغامرة على كل حال.. إلاّ أنني أوافق على خطة القبطان.

عارض النائب الثالث:

- في قرار القبطان مجازفة كبيرة.. لماذا لا نعود إلى خط سيرنا الأول، ما دامت توجيهات الموانئ تتطابق معه.

أشعل القبطان ارتورا سيكارة جديدة بحركة عصبية. عاد إلى الخريطة فنحى الأوراق من فوقها وقال:

- نحن لا نستطيع أن نذهب شرقاً بصورة دائمة. ليس من الحكمة تعريض خاصرة الباخرة لضغط شديد متواصل. ولا يمكن ان نتحوّل إلى الساحل. فهناك الانتحار على صخوره.. أفضل شيء كما أرى، أن نتحوّل شمالاً. كما نحن الآن.. ليس لدينا وقت طويل، ما هو قراركم؟ قولوه بكلمة واحدة.

وافق برود روموس. خالف المعاونان الآخران، قال ارتورا:

- حسناً، أيها السادة، اتخذت القرار على مسؤوليتي الشخصية.. عودوا الى مواقعكم.. سأبرق الآن باتجاهنا الجديد.

تناول الهاتف فأملى برقية مختصرة، وألقى القلم، بحركة غاضبة، فوق الخريطة، وذهب إلى الزاوية فتناول زجاجة الويسكي، وشرب منها جرعة كبيرة طويلة، كأنه فريسة ظمأ لا يرتوي.

قبطان الباخرة، قائد فرقة محاربة خلال العواصف والأعاصير، تتجمع لديه المعلومات. يتصل بالموانئ الأقرب، يرجع إلى الشركة التي تملك الباخرة، لكن قرار التصرّف في المعركة يعود إليه، يعرف أنّ النتائج في آخر المطاف، ستقرّر مصيره، لا كقائد فقط، بل كإنسان أيضاً، كروح بشرية تحب الحياة، لكنها مضطرة إلى مواجهة الموت بشجاعة. القبطان ارتورا مسؤول عن الباخرة، عن حياة من فيها، عن حياته شخصياً، ويعرف أن زورق النجاة في حال استخدامه، سيضم الجميع إلاّه، فهو كما العرف البحري يبقى في الباخرة حتى اللحظة الأخيرة، وقد يغرق معها.

عبهرة رمى بحمل المركب حتى يؤمن عوماً أفضل. كسر الدقل. قطع الأناجر... كان ذاك مركباً في بحر الصين. «كاسل» باخرة في المحيط الأطلسي، لا ينفع معها رمي الحمولة، ولا كسر الدقل أو قطع الأناجر. الخطر هنا أكبر وأفظع. وليس من جزر قريبة يلتجئ إليها، وزورق الإنقاذ، لو صمد حتى تصل النجدة، فلن يكون له أمل في الخلاص وسط هذا الضباب الفحمي، ولن يقذفه الإعصار على طرف جبل، ولا شاطئ جزيرة ولا ينطبق الواقع بحال على

حكايات سيّد، ومهارة عبهرة، وطير الرخ، ومغامرات السندباد، هنا أيضاً كما في المركب، يلعب الإنسان دوراً حاسماً. تتجّلى شجاعته، مهارته، قدرته على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ولهذا فإن قبطان الباخرة، لا يريح مؤخرته على كرسي وثير في غرفة القيادة كما توهّم سعيد. المحيط أكبر والإعصار أخطر، وكتلة الحديد العائمة، مثل كتلة الخشب العائمة، ويبقى الإنسان، في عمله الخلّاق. سيّد الموقف. من أجل ذلك، حين تصل الباخرة إلى ميناء، يتساوى القبطان والريّس في أنهما معاً، كانا قائدي معركة، واستحقا، عن جدارة، لقب قائد، وكان لهما، في المكافأة التي ينشدانها، متعة تتساوى مع حق الرجولة وطموحها.. ارتورا يا سعيد، مثل الريّس زيدان، ينشد الف كاترين حلوة، في ألف مرفأ يمر عليه، وكالريّس الفحل في مهارته، هو ريّس فحل في رجولته، حطّم براءته على صخرة الإعصار، غدا رجلاً متميزاً في الفعل، والسلوك، ومضاجعة المرأة. إن ماريا التي سوسحت القبطان كانت فوق كل الماريات اللواتي يسوسحن البحّارة، من حقه أن يتملك عروس البحر، وأنثى الجن، ويفتض بكارة جسم ما ذاق قبله ارتواء غلمة، في جسد ينفث سعيراً. من أجل ذلك كان سيّد، يرى في الباخرة كما في المركب شاعرية خاصة، ويرى في الحديد، كما في الخشب، قيثارة، الإله وحده يستخرج أنغامها.. إن سيّد، العقلاني إلى درجة قاتلة، كما تصورت يا

سعيد، هو عاطفي إلى درجة بالغة، أيضاً، وإن قاسم، الذي جردته من الخيال، كان عاطفياً يستقي خياله من حلم المستقبل...

الباخرة تضطرب في المحيط، أين النجاة والماء مدى ظنّ من الجهات الأربع؟ «هنا، قال سعيد في نفسه، لا شاطئ قريباً، ولا تنفع سباحة مهما كانت قوة العضلات. هنا الهلاك. أنت لست في نهر، ضفتان على جانبيه، ووالدك على «غيز» من خشب يندفع مع التيار، إلى البحر. هنا محيط، وليس للريّس عبدوش، الذي قطع بك الحبل، أن يشك في غرقك وغرقه على السواء. أنت تواجه إعصاراً لأول مرة، أنت تعرف المحيط لأول مرة، رجولتك، شجاعتك، مهارتك، أعصابك، قلبك، روحك، كلها في الامتحان الصعب، ولئن خرجت سالماً، ووصلت اليابسة سالماً، عليك أن تقبّل الأرض، تقول لها: «يا أمنّا الأرض! ليس من أمانٍ لآدمي إلاّ وهو يقف على أديمك بثبات.»

الموت، في هذه الحال، خير مصير مرتجى لمن ابتلي بشقاء الإبحار في قلب الضباب، والريح، والبلل، والبرد الشديد، والمحيط الهادر، المستعدّة قروشه وحيتانه لنهش الأجسام وسحق عظامها بأضراس لا تكسر. لكن الموت، قبل الغرق، لا يأتي. العدم قبل الهولة، لا يكون، والمصير المنتظر، في لجّة المحيط، يبعث الرعدة في قلب الجبّار نفسه. إن وحشة المحيط، والشعور بوجود البحّار في منطقة مجهولة، والنهاية

المرعبة للجّة الفاغرة فمها، هي الانعكاسات الأكثر إيلاماً لمخلوق يدرك أن أمنيته في النجاة هي في النائي البعيد، في الماء المترامي، الذي لا ساحل له.

المحرقة ليست أتوناً فقط، المحنة نار، البلوى نار، المحيط نار. هنا الإنسان، لا الحديد، يصهر، سعيد قطعة حديد في نار المحيط.. الإعصار لم يعد ضباباً، موجاً، بل هو ريح نفاثة محملة بالماء، وجهه، وهو في المراقبة، قطعة لحم وعظم تتلقى صفعة ريح مائية لا نهاية لها. العينان عميتا. الثياب قطن تشرّب بالماء، يعصر ما فيه على الجسد المقرقف، المنقوع نقعاً كاملاً. وليس الماء، البرد، الريح، وحدها البلوى، منظر الإعصار، هديره، جهمته، هي البلوى، هل عرفت ما هو الإعصار يا سعيد؟ اللقمة لم تعد بعرق الجبين، اللقمة بالإعصار. من أجل أن تأخذ أجرك عليك أن تستخلصه من الإعصار، من هذا الغول الاسطوري، المالئ الدنيا زئيراً، يخلع القلب من حولك.. وسعيد يتجلّد. لكي تكون بحّاراً لابدّ أن تتعمّد في البحر. المحيط هو البحر، وما خلافه، من ماء منبسط، ليس إلاّ بركة للسباحة. اليوم مرّ بك القبطان ورازك بعينين سابرتين. سيّد حدّثه عن البحّارة العرب. أنت بحّار عربي، ولو لم تكن كذلك، وإلى أي بلد انتميت، فأنت بحّار وحسب، وبهذه الصفة، في هذه الساعات الجهنمية، أنت زميل لكل بحّارة العالم، مثلهم تعاني الشقاء، ومثلهم تعمل أجيراً، ومثلهم تواجه الموت، بينما أصحاب

الشركات الملاحية يشربون الخمر، وينعمون بالدعة والدفء، ويداعبون أفخاذ النساء، ويفترعونهنّ على أسرّة وثيرة.

ظلّت «كاسل» تمضي كسهم يخترق الضباب والعباب.. «السرعة مفتوحة» قال ارتورا. الإعصار، من وراء، حطّم كل قياس للسرعة المفتوحة. إنه يدفع الباخرة دفعاً مجنوناً، وكلما وثب ليطويها بين جناحيه الأسودين، اشرأبت على غرائب الموج ومضت في سباق معه، تسبقه، لأنها لا تستطيع أن تدعه يسبقها، ما دامت في التيّار، وما دام قبطانها قد وضعها معه لا ضدّه، وبعد ذلك سلّم أمره للمحيط، وجلس ينتظر مصيراً تخطّه يد الاقدار.

يومان ظلاّ على هذه الحال وفي اليوم الثالث انحرف الاعصار. طفق يرحل صوب الهدوء تاركاً المحيط وشأنه، بعد أن بلغ ما أراد من تحطيم وتدمير للشواطئ التي مرّ عليها. وفي نشوة بالغة، نشوة من النصر، أعطى ارتورا تعليمات جديدة: «دوران ١٨٠ درجة، باتجاه قناة بناما» كذلك أبرق للشركة: «نجت كاسل!» وغيّر من وضع الإشارات الخشبية على الخريطة، وسمح لنفسه بأن ينام، لأول مرة، منذ ثمان واربعين ساعة.

لكنه، حين أفاق، وتفقّد الباخرة، وجد الخسائر المادية طفيفة، وثمّة إصابة بشرية: البحّار نيقول في حالة الخطر.

كان هذا يعمل على السطح ، وكان مصاباً ، في الماضي ، بذات الجنب ، وقد انتكس لكثرة البلل والبرد ، ووقع تحت وطأة حمى تجاوزت حرارتها ٤١ درجة. الممرّض، على الباخرة ، قام بالاسعافات الأوليّة. اعطى المريض عقاراً مخفضاً للحرارة . أعطي بعض الحقن ، وضعت كمادات مثلوجة على رأسه دون فائدة. أبرقت الباخرة بالنبأ: «لدينا بحّار في حالة الخطر » جاءت التوجيهات « اقصدوا أقرب ميناء ». حين قرأ القبطان البرقية ضرب على رأسه: اذهبوا إلى الجحيم. بيننا وبين أقرب مرفأ مسيرة ثلاثة أيام ، ولا بد من الاستعانة بأيّما طبيب على ظهر أيّة باخرة تمخر عباب المحيط . لكن أجوبة النجدة خيّبت الآمال بدورها ، فالسفن تباعدت جداً بسبب الإعصار ، ولا سبيل للمعالجة إلاّ ما اتخذ من اسعافات أوليّة.

كان ارتورا ، بفعل رومانتيكيته المفرطة ، يعتبر غرق أو موت بحّار من طاقمه فجيعة حقيقية. قيمة الإنسان لديه ، فوق اعتبارات عالم العمل الذي يمر بحادث كهذا بغير اكتراث. هو نفسه. أثناء المقاومة ، فقد رفاقا وأصدقاء كثيرين. الأمر ، هنا يختلف ، كانت ثمة معركة حربية. كان الموت منجلاً يحصد وكانوا جميعاً منذورين له ، ولا وقت لديهم للحزن ، كانوا يدفنون القتلى بالجملة أو المفرد ، ويهيلون التراب ويطلقون الرصاص تحيّة وداع لرفاق السلاح. أما هنا ، على ظهر الباخرة ، فإن فقد الإنسان يساوي إنساناً

تاماً، لا جندياً في المعركة. الإعصار كان قميناً بأن يغرق الباخرة ومن عليها، وكانت تلك معركة، لكن موت إنسان، بعد النجاة، مأساة ذات مذاق كئيب جداً. ارتورا، كقبطان، وبرومانتيكيته المعهودة، يعتبر نفسه أباً للجميع، وإن كان بين البحّارة، وخاصة ميكانيكيين، من هو أكبر منه. ولأنه أب، والبحّار ابن، فقد كان الموت الذي يحوم فوق غرفة المريض وفي فضائها، سحابة خريف، ورقة صفراء، نعوة سوداء على جدار، ومن جرّاء الجزع الذي أظهره بحّارة شبان، لم يسبق لهم أن رأوا الموت على هذه الصورة البشعة، فإن الوجوم ساد الجو كلّه، وقضى ارتورا وقته بين غرفة القيادة وغرفة المريض، وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي مات نيقول.. مات غريباً، بعيداً، في قلب المحيط، والقبطان الحزين، أوقف إذاعة الموسيقى، وعثر أحد البحّارة على نغم حزين فناب عن اللحن الجنائزي، وتحت سماء مضبّة، وبقايا إعصار خضّ المحيط، وفوق مياه داكنة، هائجة ما تزال، وبكل ما تركه الإعصار من دمار وفوضى على ظهر الباخرة، سجي نيقول على طاولتين جيء بهما من المطعم، وأشعلت شمعة فوق رأسه، بعد أن ألبس البدلة التي جاء بها إلى الباخرة وارتدى القبطان بزّته الرسمية، ذات الشرائط الثلاث على الكتفين والكمين، واعتمر قبعته البحرية، وحذا نوابه والموسترومور والبحّارة حذوه، وقرع ناقوس في الباخرة، وأحضر بحّار ميكانيكي

كهل الكتاب المقدس، وهكذا، وسط صفّين من حرس الشرف، قرأ البحّار انجيل يوحنا، وأنشد «مبارك أنت يا رب علّمني حقوقك» ثم «من التراب خلقنا وإلى التراب نعود» وتقدم ارتورا فأغمض عيني نيقول، وألقى كلمة قصيرة ختمها بقصيدة تتحدث عن البحّارة بعنوان «وداع»[1].

أحب حبّ البحّارة،
يقبلون ويرحلون،
يتركون وعداً،
ثم أبداً لا يعودون.
في كل ميناء أم تنتظر..
والبحّارة يقبلون ويرحلون،
يضاجعون الموت في ليلة من الليالي،
على فراش البحر.

ثم أطلقت الباخرة «كاسل» ثلاث صفرات، وقال ارتورا: آمين! وانتهت مراسم الجناز، فتقدّم البحّارة ورفعوا جثمان نيقول ثم أدخلوه في كيس مشمع، ربطوا به كتلة من حديد، ومن فوق حاجز الباخرة ألقوه في اليمّ، ورسم بعضهم الصليب على صدورهم، وعاد كل إلى عمله.

تلك الليلة لم ينم سعيد، شرب، فكّر، شرب أكثر،

---

(١) القصيدة لبابلونيرودا.

أصغى إلى عمر وسيّد، لكنه، حين أصبح وحيداً في قمرته، ظلّ طيف نيقول يلازمه. تذكّر وجهه الطفولي، وشعره الأشقر، ولثغة الراء، والقوام الفارع، وتذكر صفرة الموت، وساعات الاحتضار، والمحنة، وليلة الإعصار، وأدرك حقيقة الموت وبشاعته. «من التراب خلقنا وإلى التراب نعود»، وتخيّل الجثة تسقط مسحوبة بكتلة الحديد إلى الأعماق، وقال في نفسه «يا للقبر الرهيب!».

القبطان ارتورا أناب عنه الملازم برود روموس في القيادة، فتح كتاب الصلاة، أحضر زجاجة ويسكي، قفل باب غرفته محذّراً الجميع من إقلاق راحته. في هذا الوقت كان عمر في المحرس، وكل من ليس له عمل من البحّارة قصد «البار» يغرق أحزانه في الشراب، وذهب سيّد الى البحّار الميكانيكي العجوز، يتحدثان عن الإعصار، ونيقول، والبلاد البعيدة، وعجائب البحر التي لا تنتهي. كان الميكانيكي إنكليزياً يدعى جيمس، وكانت لديه كتب كثيرة قرأها في أسفاره الطويلة، وحفظ كثيراً مما فيها. كان يريد، في الجو المقبض الذي خلّفه الموت، أن يسمع حكاية عن بحّارة الشرق، وعرائس الماء، والشهرزادات، وكل تلك الأشياء المثيرة التي في حكايات سعيد. لكن هذا لم يتكلم. الليلة، فقط، استشعر حاجة إلى الشراب. سيّد الذي لا يشرب، رغب الليلة، في أن يشرب. أمل في أول الليل، أن يستدعيه ارتورا، لكن هذا كان يقيم احتفاله الخاص، ولا

أحد يدري كيف، وإن كان سيّد، في ذاته، قدّر أنه يسكر ويصلي ويبكي، وكان هذا التقدير، هذا التصّور، مبنياً على معرفته بأطوار ارتورا الغريبة، ابن عامل الخرّاطة في تورنتو، المقاوم في الحرب العالمية، البحّار، القبطان، السكّير، المجنون، ولكن الرائع في شجاعته ومهارته معاً. لم يستدعه الليلة. اللاهورية والساري لم يكن لهما موضع في ذاته الليلة. ما كان خائفاً من الموت، ولا خاف الإعصار، لكنّه كان حزيناً لأن الموت، بعد النجاة، جاء على تلك الصورة البشعة، وقال سيّد، الذي وحده ظلّ متماسكاً عصياً على الجزع: «إنّما نحن جميعاً أحياء أموات، وإنّما هذه ميتة رخيصة.. والمعنى الوحيد لها أنها كانت في كفاح مع البحر.. نيقول الآن في القيعان السحيقة، نهبة لوحوش البحر، بينما السادة مالكو «كاسل» في وليمة ما، في أحد المطاعم أو الفنادق الفاخرة، وربما كانوا، بما جمعوه من ملح أجسادنا، يقامرون بألوف الليرات، أو يبذلونها في عقود ماسيّة على أعناق عشيقاتهم، في قصور فاخرة، إلى جانبيها، في حي البحّارة العتيق في أثينا، أكواخ الذين يواجهون أهوال المحيطات مثلنا».

طلب من العجوز جيمس أن يقرأ له شيئاً، أن يحدّثه عن البحر، عن أسرار البحر، عن هذا العالم المائي الذي يشيب منه البحّار، يهرم، يعجز، يموت، دون أن يلم بها، وعلى غير توقع اقترح جيمس كأساً من البراندي: «ما رأيك،

يا صديقي، بقليل من هذا الشراب الرائع » قال سيّد: «كدت، أنا نفسي، ألتمس منك جرعة» فقام جيمس إلى صندوقه، وأخرج زجاجة لم يبق فيها سوى النصف. وسكب قدحين، وقال: «بصحتك. يا زميل، وليكن الشر بعيداً عنك، ولتعد إلى أسرتك سالماً». بادله سيّد النخب والتمنيات، واستزاده، جرعة أخرى وظلاّ يشربان حتى أتيا على الزجاجة، وعندئذ انحلّت عقد لسانيهما، فأثنى الميكانيكي على أجهزة الباخرة:

- انظر، لقد صمدت بعد كل شيء..

قال سيّد:

- ما كانت لتصمد لولا أن خفّ الضغط عليها...

قال جيمس:

- اللعنة على التيّار، والأرصاد الجوية، وأبناء القحبة، رؤساء الموانئ.. أنا أقول إن محركاتي عملت جيداً.

- لكننا لم نكن ضدّ التيّار..

ضرب جيمس على رأسه وهو أقرب الى السكر:

- إلى جهنم بكل التيارات وكل المحيطات.. أنا أقول لك.. لم يتم جملته لأن فواقاً اعتراه...

قال سيّد:

- ارتورا كان ماهراً...

- هذا الساقط ليس إلاّ ابن زانية.. سأقول له هذا في وجهه..

قال سيّد:

- قد يكون ابن زانية.. لكنه قبطان ماهر.. انقذ «كاسل» يا جيمس..

- الذي أنقذها محرّكاتي... تصوّر لو أنها تعطّلت!

- لو حدث ذلك لكان غريباً.. ويبقى أن في الباخرة عدة محرّكات..

- أنا اتحدث عن المحرّك الرئيسي، الذي أشرف عليه بنفسي..

- لو تعطّل محرّكك كانت الباخرة تستمر في الاندفاع يا جيمس.. حسب الخطة التي وضعها ارتورا..

قاطعه:

- اللعنة على ارتورا وخطته.. اسمع يا سيّد.. (لفظها برطانة) أنا ولدت في البحر، ومن يدري.. ربما، ذات يوم، أُلقى من فوق حاجز في كيس مثقل بكتلة حديدية مثل نيقول.. لو شئت لكنت قبطاناً.. افهم ما أقول: جيمس، لو كان ديكاً لا ميكانيكياً، كان قبطاناً من زمن بعيد.. لكنني آثرت دخول معهد الميكانيك.. تخصصت في المحرّكات البحرية.. والدي قبلي كان ميكانيكياً بحرياً.. الفضل، في نجاة «كاسل» يعود إلى المحرّكات..».

كان سيّد قد امتلأ إعجاباً بارتورا.. الذين نحبهم نعجب بكل تصرفاتهم. سيّد يحب ارتورا.. نديمه،

وارتورا يصطفي سيّد من بين كل البحارة. وفي نشوة البراندي، وجد سيّد أن من واجبه أن يصرخ، لا أن يقول همساً، أن ارتورا أمهر بحّار في المحيطات. لذلك عزّ عليه أن يجحف حقه على هذه الصورة، فناكد جيمس ولم يستسلم:

- أنت يا صديقي، يا جيمس، لا تدعني أُكمل كلامي.. هذا ليس من الأصول.. الحوار أخذ وعطاء..

- وماذا تريد أن تقول؟.. أنا لا أريد أن أسمع باسم ابن الكلب ارتورا هذا.. لقد نصب لي يوماً حلقة على ظهر الباخرة.. لو كنت شاباً؟ حسناً! هذا الطاووس صفعني مرتين أمام البحّارة.. ومن أجل أي شيء؟ لأن جرذاً دخل بين أسلاك المحرّك.

- مهما يكن، قال سيّد، يظلّ ارتورا رئيساً..

- رئيس من؟ اذهب الى الجحيم أنت أيضاً يا سيّد.. ليكن رئيسك وحدك.. ليكن قبطاناً على الجميع، أمّا جيمس فلا رئيس له.. جيمس سيترك العمل ما أن تعود كاسل إلى أثينا.. يكفي.. بلغت سن التقاعد.. وداعاً للبحر.. سأعيش مع عجوزي بقية عمري..

- هذا لا يمنع أن أرتورا سيظل رئيسك يا جيمس حتى نترك الباخرة.. في هذه الحال كن على علاقة طيبة معه.

- أنا لا علاقة لي إلاّ بمحرّكاتي..

- هذا جيد.. وسأعترف أن محركاتك عملت بصورة

رائعة.. لكن خطة القبطان ارتورا أنقذت «كاسل..» تصوّر ماذا كان يحدث لو لم نغيّر اتجاهنا، ولو لم نذهب مع الإعصار.؟

قال جيمس:

- اسمع يا سيّد.، هل لديك هوية شخصية..؟
- بطاقة الباخرة..
- حسناً، أعطني بطاقتك.. أرجوك.. وها هي بطاقتي..

كان جيمس يكبر سيّد بعشر سنوات على الأقل. عندئذ تراخت عضلات عيني جيمس من السكر وقال جاداً:

- تهانينا... أكبرك بعشر سنوات وتجادلني.. ليأتِ ارتورا، هذا الثعلب، ببطاقته.. إذا كان أكبر مني فسأضرب له سلاماً.. (قالها وتهيّأ مؤدياً سلاماً بحرياً أصولياً).

وحين طفق جيمس يهتاج قرر سيّد في نفسه ألاّ فائدة من محاورته. تركه يهوم وانسحب إلى غرفته. مرّ، في طريقه على غرفة القبطان. توقف أمامها، تساءل: «ماذا يفعل ارتورا الآن؟ نام؟ ما زال يسكر؟ هل يمكن أن يطلبني بعد هذا الوقت؟» ولم يعن بجواب أسئلته، بل دمدم، وهو في طريقه إلى غرفته، باغنية «عطشان يا صبايا دلّوني على السبيل»، ثم غنّى: «يا عزيز روحي» ونام نوماً طويلاً عميقاً حتى الصباح.

قضوا الأيام التالية في عمل متواصل لإصلاح ما تلف من سطح الباخرة، ومن حواجزها، وترتيب الأشياء التي

انقلبت أو تدحرجت في قمراتها وعنابرها، وكانت «كاسل» تمخر المحيط بغير حوادث الآن، والبحّارة الفرحون بنجاتهم من الإعصار، يكتبون، في أوقات فراغهم، رسائل إلى ذويهم، ويشربون، ويقامرون، ويحسّون في تطاول الأيام، أنهم في تيه مائي، وأن الوصول إلى البر، ورؤية اليابسة، والاختلاط بالناس، بعد هذا الانقطاع، بعد هذا التوحّد والرعب، أمنية عزيزة، وأن المرأة، هذا الكائن الذي تخلو منه حياتهم، هذا المعبود روحاً وجسماً، مشتهاة الآن، ولو وصلوا إليها، لاقتتلوا حتى الموت من أجل أن يفوز كل واحد منهم بها.

قبل بلوغ قناة بناما بيوم، وعندما حسب الجميع أن موضوع الشجار الذي نشب على الباخرة قد نسي في غمرة المحنة، وأن الإعصار ألهى ارتورا عنه، وأن النجاة كانت عفواً فرض نفسه على الموقف كله، في هذا الوقت قام أحد معاوني ارتورا بالتحقيق، ولشد ما كانت دهشة سيّد كبيرة حين بلغه، من ارتورا نفسه، أن الحلقة ستنصب بعد الظهر، وأن سعيد سيلقى جزاءه، وأنه الوحيد الذي سيكون في الحلقة، بينما اللذان تسبّبا في الشجار، سيحجز عليهما، ويمنعان من مغادرة الباخرة في أول مرفأ تصله.

حاول سيّد التدخل. تشفّع. قال إن سعيد بحّار جديد، وإنه خارج الخلاف، وكل ما فعله أنه حاول الفصل بين المتشاجرين، وقد تلقّى جرحاً في جبينه جراء ذلك، غير أن

ارتورا، الذي يريد انضباطاً كاملاً على باخرته، كان قد اعتزم أن يلقن سعيد درساً جزاء تدخله، وما فعله بالبحّارة. ربما، في اللاشعور، أراد أن يختبر بحّاراً عربياً، لم يُغضِ حين حدّق فيه رائزاً. كان، من حيث لا يدري، يرى في صورة سعيد عبهرة، وكان لا يريد أن يظل عبهرة.. أن يقول لسيّد، بغير كلام، انظر ماذا فعلت بابن العاهرة الذي استخلص «قطر الندى».

وفي اجتماع الغداء التقى الثلاثة: سيّد وسعيد وعمر، كان من رأي الاثنين الأخيرين أن يتضامنوا، ثلاثتهم، ويتمرّدوا على القبطان، غير أن سيّد كان مخالفاً، لا لأنه يخاف العواقب، بل لأن المعركة، لو صارت، لا فائدة منها، وأن سلطة القبطان، بحسب خبرته، هي سلطة قانون على ظهر الباخرة، وأنه قادر على تقديمهم، موقوفين، إلى المحاكمة في أول ميناء. الأفضل إذا لم يتدخل بحّارة آخرون، أن يواجه سعيد القبطان ارتورا رأساً لرأس، كما تقضي تقاليد الشرف البحري المهووس بها ارتورا. وقد وافق سعيد على هذا الرأى، وقيل له إن ارتورا، لو انهزم، فسيأمر بجلده علانيـة، فأجاب: «لا أبالي» وقيل له إن ارتورا من الملاكمين المشهورين، فأجاب: «دعوني له»، وقال في نفسه: «أنا ابن صالح حزّوم أيضاً.» وبعد الظهر، عُقدت الحلقة، وقال ارتورا: «إن البحار سعيد ارتكب ذنباً يعاقب عليه قانون البحر، حين يقع ما وقع على ظهر باخرة في عرض

المحيط، وأنه هو، القبطان، سينفّذ العقوبة، ولا أحد يتدخل، لأن تدخل الآخرين منافٍ للشرف البحري».
انتهت الكلمة. وقال ارتورا، بل صرخ: «سعيد تعال إلى هنا». تقدّم سعيد. سأله القبطان عن طريق سيّد المترجم: «هل هذه اول مرة تنزل فيها البحر؟»

قال سعيد:

- أنا ولدت في البحر..

كان صوته قوياً، حازماً. وقد حاول سيّد أن يتصرف بالترجمة، لكن ارتورا أمره:

- ترجم حرفياً!

وحين فهم ارتورا ما قال سيّد، أجاب:

- معنى هذا أن الأسباب المخفّفة لا تنطبق عليك.

قال سعيد:

- لا أريدها ولو انطبقت..

- هكذا! دمدم ارتورا. أنت إذن لست إلاّ ابن زانية.

قال سعيد:

- مثلك تماماً..

وكان جواب ارتورا سوطاً موجعاً أحرق جسد سعيد الذي تعرّى إلاّ من قميص خفيف حسبما تقضي أصول حلقة القبطان ارتورا.

صرخ متألماً:

- ليس هكذا يقضي الشرف.. أنت في يدك سوط وأنا أعزل..

ترجم سيّد، فانداح شعور بالاستحسان لدى البحّارة، عندئذ ألقى ارتورا السوط من يده وقال له:

- اقترب!

وعاجله بلكمة في بطنه، تلوّى سعيد اثرها وترنّح حتى كاد يسقط. وقال البحّارة في نفوسهم: «قضي عليه» لكن سعيد تماسك، واندفع صوب القبطان والتحم به. أبطل فاعلية اللكمات بلف زنده وراء رقبته، وبكل ما أوتي من قوة نطحه برأسه، وسدد ضربة شديدة من قدميه في حوض ارتورا، الذي صرخ من ألم عنيف في خصيتيه.. ودون أن يدع له مجالاً، أمسك به من وسطه وعنقه، ورفعه فوقه.. ثم.. يا للمفاجأة! أنزله دون أن يضرب به وجه الأرض. كانت هذه حركة بارعة. كان سيعد ابن ميناء.. كان قد خاض معارك كثيرة لكنه، إبقاء على كرامة القبطان، لم يشأ أن يهينه أمام بحّارته. تركه يضربه، لم يرد على الصفعات التي وجهها إليه، وانكفأ القبطان، عنه، وهو واقف جامد، وانتهت الحلقة لهذا اليوم، وقد فهم الجميع أن الفائز فيها هو سعيد، برغم كل ما تلقاه من ضربات، وأن ارتورا نال نصيبه من الإهانة.

وقال جيمس لسيّد وهما يغادران السطح:

- أرأيت الى قبطانك العزيز؟. إنه وغد وابن زنى..
- بما يتعلق بحلقة اليوم أوافقك تماماً..

قال جيمس:

- هذه آخر حلقة تشهدها «كاسل».. ارتورا لن يقيم «سركه» بعد اليوم.
- وسعيد لن يبقى على هذه الباخرة.. هل رأيت الشر في عيني القبطان وهو يغادر السطح؟
- رأيت كل شيء.. لست أعمى ولا غبياً، أخطأ صاحبك بما فعل.. كان عليه أن يضرب به الأرض.
- أنا آسف لما حصل.. لو قبل ارتورا رجائي..

قال جيمس نزقاً:

- من الخير أنه لم يقبل.. كان يجب أن يحدث ما حدث.. هذا درس لابن الفقمة..
- لكن سعيد لن ينجو من الانتقام.. ارتورا سيوقع به في أول فرصة..
- وماذا يهم؟ صاح جيمس، ليمصّ إبهام قدمه هذا النذل!.
- لكنه سيجعل سعيد يعض أصابعه ندماً..
- وعندئذ يعرف الجميع أي قوّاد هو.. بودي أن أضعه في كيس مشمع، وأربط كرة حديدية به.. ثم اني.. اسمع، ما رأيك يا صديقي بكأس من البراندي.. لديّ زجاجة فاخرة..
- ليس الليلة.. أنت تعرف أنني لا أشرب إلاّ نادراً..
- ولكنني أرغب في احتفال صغير بهذه المناسبة.. إنني سعيد أكثر مما تتصور.. هيّا.. أرجوك يا صديقي، عملي

يبدأ غداً صباحاً، ولديّ وقت صغير للتسلية..

كان سعيد، في هذا الوقت، منطرحاً على فراشه.. انسحب من السطح دون أيّة كلمة. لقد ارتاح لأنه في اللحظة المناسبة ضبط أعصابه ولم يقتل القبطان، إلاّ أن هذا كلّفه جهداً نفسياً، وعلى فراشه الشبيه بأرجوحة كان جسده يئنّ من وقع اللكمات التي كالها له ارتورا. لقد حدث معه كما يحدث في الافلام التي رآها. هو أيضاً جُلد. ما نقص هو ربطه على عمود كما كان يفعل السادة البيض مع عبيدهم المتمردين. ارتورا أيضاً أبيض، قبطان، سيّد. صحيح أنه لا يملك الباخرة، لكنه نائب عن مالكيها. البحّار، في آخر الأمر، ليس إلاّ أجيراً، ليس إلاّ عبداً، وبعد كل التغير الذي صار، يستطيع القبطان مالك الباخرة السيّد فيها، أن يجلده كما في أيام زمان.. إن قاسم على حق، وسيّد على حق.. وأفكار الفروسية عن حياة البحر لا أثر لها في الواقع.. انتهى عهد الفروسية. هذا زمن العبودية. زمن السادة والأجراء والظلم واحد في كل مكان.. وضده ينبغي أن يقوم نضال مشترك فيه كل عبيد الأرض..» أجل هذا ما يجب.. ما لقيته اليوم علّمني أكثر من كل مواعظ الآخرين.. والدي، دون مواعظ، فهم كل الحقيقة، وناضل لأجلها..».

ارتورا لم يقرأ الليلة في كتابه المقدس، كان يداري مزاجه العكر بالسكر. طلب إضبارة سعيد وقرأها كلها..

فوجئ أن سعيد ليس بحاراً متمرناً، وأنه عمل على المراكب. وأنه ابن بحار أيضاً، وقد ولد في مرسين، على شاطئ البحر، وكل هذه المعلومات قدّمها عمر للشركة، وعلى أساسها وافقت على استخدام سعيد. نهض وسار في الغرفة ذهاباً وإياباً. كان مغضباً، حاقداً. وفكّر أن طرد سعيد، لأي سبب يخترعه، قمين أن يحرمه من الشهادة التي على البحّار أن يحصل عليها حين يترك الباخرة، كان قادراً على إيذائه. وفكّر في الطريقة الملائمة لذلك. خطر له أن ينزله مخفوراً في أول مرفأ، وأن يبرق إلى الشركة شاكياً من سوء تصرّفه ومن شجاره مع البحّارة، لكنه تذكر أن سعيد كان قادراً أن يضرب به الأرض فلم يفعل، هذه نقطة جيّدة له، لكنه تحداه عندما وقف جامداً، صامداً أمامه، ولم يشأ أن يردّ ضرباته، وهذا موقف فيه من الازدراء ما لا يستطيع ارتورا تقبّله، لا بصفته قبطاناً فقط، بل كرجل يعتدّ برجولته بغير اقتصاد.

وفي قمرة الميكانيكي جيمس، كانت زجاجة الكونياك قد انتصفت. شرب منها سيّد قدحاً وبعض القدح، وما تبقّى كرعه جيمس وهو يتلمظ ويشتم ارتورا، ويقول لسيّد:

- هذا النغل لا يفهم بالبحر.. لا تصدق ادعاءاته. خطته في السير مع الإعصار معروفة لكل قبطان. ابن الفقمة هذا لم يخترع جديداً.. لم يجترح أعجوبة..

قال سيّد:

- لا أحد يعرف كل شيء عن البحر.. إن القبطان ليس عالماً بحرياً بعد كل شيء.

- هِمْ.. أنت لا تفعل سوى الدفاع عنه.. ابن الساقطة هذا.. أنا ميكانيكي وأفهم بالبحر أكثر منه.. هذه المعلومات لم آت بها من بيت أبي فقط، قرأتها (وخبط على مجموعة من الكتب فوق طاولة صغيرة) في هذه الكتب.. قل حفظتها.. إنني ميكانيكي، هذا صحيح، لكن أوقاتي، في سفري الطويل، لم أُضعها سدى..

تهيّأ لسيّد أن صاحبه قد سكر، وأنه يهرف.. ويثرثر على هواه، وفي محاولة لإثارته قال له:

- يا صديقي جيمس.. إذا كنت عالماً بحرياً كما تدّعي، فلماذا لا تؤلف كتاباً عن البحر..؟

- هذا ما سوف أفعله عندما أتقاعد.. اسمع.. أقول لك إنني أفهم في البحر أكثر من هذا الكركدن ارتورا فصدّق.. كل شيء مكتوب هنا في صدري.. ويكفي، لكي تعرف الفرق بيننا، أن تسأل هذا الغبي سؤالاً واحداً: «كم متراً مكعباً من الماء في البحر؟».

دهش سيّد. سأله:

- وهل تعرف أنت؟

- أعرف ولكنني لن أقول.. قبل كل شيء، إنني أشعر بانسجام مع هذا البراندي.. إسمح لي إذن أن آخذ قدحاً آخر.. قدحاً صغيراً.. أنا مسرور معك.. نحن، يا

صاحبي، لسنا إلاّ عقربين صغيرين..

قالها وافرغ الكأس في جوفه، ثم وضعها على الطاولة بحركة مسرحية، وقال، كمن يتحدّث عن نظرية رياضية ثابتة:

- أجل نحن لسنا إلاّ عقربين..

أضاف دون أن تفوته الدهشة التي ارتسمت على وجه سيّد:

- لا تصدّق ما جاء في سفر التكوين.. أصلنا من عقرب لا من طين.. قد يكون أبونا العقرب من طين، هذا ممكن، لكن نحن، البشر، من نسل عقرب صغير، زحف من الماء الى اليابسة قبل مئات ملايين السنين.. وإذا شئت الدقة قبل ٤٢٥ مليون سنة..

ازدادت دهشة سيّد، قال:

- كيف عرفت هذا؟

- لا تسألني.. أنا لا أريح مؤخرتي على مقعد وثير مثل ابن القحبة قبطانك.. إنني أقرأ، أبحث، أجمع المعلومات من الكتب والناس.. أنت تحكي حكايات عن البحر، هذا جيد.. لكنني لا أريد أن أصدّق أنك تسلّي بحكاياتك ابن القملة ارتورا.. هذا لا يليق.. تستطيع أن تأتي إليّ، أنا أقدّر حكاياتك.. إنما لا أكتبها، ولا أسمح لك أن تكتب ما أقوله عن البحر.. دعنا نلعب لعبة شريفة..

نسمع فقط.. أما سرقة المعلومات فهذا عيب.. دع أوراقك في جيبك..

- هل تراني أمسك أوراقاً؟
- ربما خطر لك أن تفعل.. هذا ما لا أوافق عليه.. لا تزعل مني.. أنت إذا كتبتها، ستنقلها إلى ابن الفقمة.. وهذا يجعله يتشوّف أكثر مما يفعل الآن..

قال سيّد:

- اسمع يا جيمس.. أنا لن أنقل شيئاً للقبطان.. وهو لا يطلب ما لدينا من حكايات أو معلومات.. إنه، كما يبدو، غير معني بها.. تستطيع إذن، أن تتكلم بصراحة.. أن تقول ما تريد، وتحتفظ لنفسك بما تريد.. الأمر سيّان لدي.. أنا لن أكتب كتاباً في المستقبل..
- هذا خطأ، إسمح لي، هذا خطأ.. كل من يستطيع أن يكتب كتاباً عليه أن يفعل.. وبذلك تمتلئ الدنيا بالكتب كما تمتلئ بالأطفال.. أليس هذا جميلاً؟.
- بغير شك. ولكنني لن أضع كتاباً عن البحر.. اطمئن.. قلتَ انك تعرف كم يحتوي البحر من الماء.. فهل تقول ذلك، ولو بصورة تقريبية..
- أقولها على شرط.. أن يبقى سراً.. البحر، يا صديقي الطيب هو الذي يشكّل سطح الأرض بخلاف ما هو شائع.. أعني الماء هو كرتنا واليابسة ليست إلاّ بقعاً

صغيرة من هذه الكرة.. وفي البحر ١٤٢٥ مليون كيلو متر مكعّب من الماء..

- من الذي قاسه؟

- إلى الجحيم بهذا السؤال.. أنا أقول لك رقماً صحيحاً.. الماء، يا صديقي، كان في الأصل، أي عند بدء الخليقة، أقلّ ملوحة، وكلما زاد عمقه قلت وتباعدت صور الحياة فيه، لأن الشمس لا تصل إلى تلك الأعماق البحرية.. ولكن البحر كريم، يهدي الأرض من حين لآخر مساحات جديدة من اليابسة..

- لكنك تمزح حين تقول إن أبانا الأول هو العقرب.. أليس كذلك يا جيمس؟

- أنا لا أمزح في المسائل العلمية.. العقرب أول حيوان بحري زحف إلى اليابسة وكان ذلك في العهد السيلوري.. وبقي على اليابسة، وتناسل، ونحن من نسله..

- والحيوانات الأخرى..؟ لماذا لم تخرج الى اليابسة؟ القرد، مثلاً، أين كان؟

- في الجحيم.. أنا أقول لك العقرب، وهذا يعني العقرب.. وأنا سأثبت ذلك في كتابي، مخالفاً كل النظريات القديمة..

قال سيّد:

- أنا أهتم بالحيوانات البحرية.. هل صحيح أن هناك في الأعماق، توجد حيوانات بمثل ما توجد على اليابسة.؟

- حيوانات مثل ارتورا غير موجودة..
- لندع ارتورا يا جيمس.. أنا أسألك جادّاً.. انس ارتورا قليلاً، لأجل خاطري..
- حسناً لنقذف به إلى الجحيم.. هل يرضيك هذا..؟ في البحر، يا سيّد، أفعى، أو قل ثعبان، طوله ٢٧٠ متراً..
- هذا فظيع..
- أجل! أجل! وهناك سحالى بحرية مخيفة، وتنينات، وأشباح طائرة، والأوزة والسمكة الهلامية، وحيوانات صغيرة مضيئة، والحوت الذي يتغذى ستة أشهر ويصوم مثلها في المحيط المتجمد الشمالي، والسمك النجمي، وخوخ البحر، وزنبق البحر، والاسفنجات، والمحاور، وقنفذ البحر الذي توجد حول فمه أجزاء عظمية قاسية كالمبارد، يستطيع أن يقضم بها قطعاً من الصخور، مع الطحالب المتشبثة بها، ويسمى هذا القنفذ الحيوان الدنيء، وخيار البحر، وأسماك شراعية تبلغ سرعتها ٨٠ كيلومتراً في الساعة، وهناك عشرون ألف نوع من السمك، مثل السمكة الشمسية، والصندوقية، والذهبية، والأفعى، وأبو الشص، والقناديل، والعذراء، والفراشة، والضفدع، والاخطبوط، والقرش، وسمك الشيطان، والعجول، وأصناف كثيرة.. لا أذكرها..

دهش سيّد، اكتشف أن ما يقوله هذا البحّار عن دراساته صحيح. لقد قرأ كثيراً، وسمع كثيراً، وصارت

له من المعلومات والخبرات ما ليس لأي بحّار آخر، ومع ذلك جلده القبطان ارتورا. لم يحترم فيه خبرته ولا شيخوخته، وهذا فظيع! من حقه إذن أن يحقد على هذا النحو، لكن ماذا يفيد الحقد إذا لم يثمر.؟ ما الفائدة من علم لا يكون مساعفاً في سبيل الخلاص من الظلم.؟ الآن، يا سيّد، تبدو دُورياً أمام هذا الباشق، أنت لم تستطع أن تعرف، على طول أسفارك، ما يعرف، ولن يكون لك أن تضع كتاباً مثله، كما لم يكن لك، في وطنك، أن تناضل كما الآخرين. شأنك أن تفعل شيئاً بسيطاً، لكنه أفضل من لا شيء، وهذا عزاؤك في غربتك القسرية هذه. إن ما يحزنك، ليس أن هذا البحّار الكهل قد جلد، ولكن أن يقتله السكر على هذا النحو البطيء..

قال سيّد:

- أنا ما كنت أصدق أنك على هذه الخبرة.. وهذه المعارف.. الآن، اطمئن إلى أنك ستضع كتاباً، وسيكون هذا الكتاب عملاً رائعاً.. اسمح لي يا جيمس، أن أهنئك، من حقك أن تسخر من القبطان، ولكن هل يفترض في القبطان أن يكون عالماً بحرياً،؟ عندنا، الريّاس، نعدّهم مهرة إذا عرفوا اتجاه الريح، وعلامات النوء والصحو، وبعض المعارف الاولية...

بكى جيمس.. ربما كان ذلك من السكر، أو من التأثر..

لكنه، حين وجد بحّاراً زميلاً، يفهمه، يقدره، قال بصوت متهدج:

أنا لست بروتستنتينياً متزمتاً (وبعد أن رسم شارة الصليب أضاف) أستطيع أن أسامح ارتورا على ما فعله بي، لكن أن تأتي أنت، يا صديقي، وتمدح مهارته، هو الذي لا يعرف الموجة السابعة، فهذا ما يغيظني حقاً.. اعذرني إذا شربت قليلاً أيضاً.. قبطانك هذا جاهل.. وقد يكون درس في معهد بحري، لكنني أقول إنه جاهل! تصوّر أنه يخلط في مسألة المد والجزر.. قال لي يوماً، ونحن نقف على حاجز السفينة، الرياح هي التي تحرّك البحر.. هذا عدم المؤاخذة، حيونة.. قلت له: «أيها القبطان، الريح لا تحرّك سوى الطبقات العليا من البحر.. أما الأعماق فيحرّكها المد والجزر». نعم يا صديقي، المد والجزر يحرّكان المحيط كله، بل الأرض والهواء أيضاً.. في الكتب القديمة كانوا يقولون إن ظاهرتي المد والجزر تمثلان عملية تنفُّس الكرة الأرضية.. لا.. هذا ليس من العلم في شيء.. المد والجزر يحدثان نتيجة الجذب من القمر والشمس.. قلت هذا لارتورا فاحزر بماذا أجاب؟ قال: «هذه من المبادئ الأولية بالنسبة للبحّار» اغتظت منه... رغبت، أمام بعض البحّارة، أن اكشف جهله، أن أكسر أنفه، فسألته: «أي الموجات هي الأخطر؟». تعرف بماذا أجاب؟: «التي

تكون أعلى من سواها..» لا.. الموجة الجديرة بالحذر هي الموجة السابعة..

تدّخل سيّد متسائلاً:

- وما هي الموجة السابعة هذه؟..

- هِمْ.. أنت تسأل أكثر مما ينبغي.. أنا لن أقلع عيني باصبعي، فأعطيك، في ليلة واحدة، كل ما تعبت السنين في جمعه..

لكنه، بعد قليل، نسي تحفُّظه وشرح المسألة ببساطة:

- هل زعلت يا صديقي؟. الموجة السابعة، هي التي تأتي في المؤخرة.. هل تعزف على آلة موسيقية؟ حفظت الصولفاج يوماً؟ لا.. إذن من الصعب أن أشرح لك.. النغم يبدأ من الأدنى إلى الأعلى.. يتصاعد في اتساقه الهرموني. لكن النغمة الأخيرة، التي تندغم فيها كل النغمات السابقة، هي التي تعطي التأثير الأقوى.. تجعلك تهتف إعجاباً في سرّك..

قال سيّد:

- أفهم ما تقول.. عندنا، بعد التقسيم على العود، تأتي القفلة التي نقول معها: آه!. يكون النغم قد تصاعد إلى درجة تحس معها أنه يسحب قلبك من ضلوعك.

- طيّب! طيّب! أنا أجهل الموسيقى الشرقية.. عمَّ كنّا نتحدث؟

- عن الموجة السابعة..

- نعم.. هذا صحيح.. الموج يتتابع.. تندغم الموجة بالأخرى، كأنها تردفها، وفي هذا الاندغام والتتابع، تصبح مؤخرة الموجة، وهي ما تسمى بالموجة السابعة، هي الأخطر، لأنها تكون أسرع من مقدمتها إذ تلحق بها وترفعها على هيئة قمة حادة، تتحطم على ما تصادفه وتتحول إلى رذاذ..

قال سعيد:

- هذا صحيح جداً.. أنا كنت بحّاراً في الإسكندرية.. لاحظت ذلك..

- وهل لاحظت، أو رأيت أمواجاً تقتلع المنارات؟

- لم يحدث أن رأيت ذلك..

- وهل تعرف ما هو أصل الحصى؟.

- يسرني أن أعرف..

- إنه قطع صخور، تحتك ببعضها بفعل الموج، فتتدور وتنقذف على الشاطئ..

- وماذا أيضاً؟ حدِّثني، أرجوك، عن عجائب البحر..

- السمكة التي رأسها بشري، وذيلها سمكة..

- عندنا يقولون لها عروس البحر.. لكننا نظنها من خيالات البحّارة والصيادين..

- هل رأيت واحدة يوماً..؟

- لم يصدف ذلك.. ربما تخيلت أنني رأيت..

- أنا أيضاً لم أر... لكن هذه قصة أخرى.. أخطر ما يخدع

البحّار هو الطيف.. على اليابسة يقال له السراب، هذا تعرفه طبعاً..

- أعرفه.. ولكن يا جيمس.. ما هو أعجب شيء في السمك؟

- إنه دون رموش..

هتف سيّد:

- يا لدقة ملاحظتك!.

- وهل تعرف أن هناك كائنات بحرية مزوّدة بما يشبه الحفارات، وبها تستطيع أن تثقب أصداف المحاور لتأكل المحارة داخلها؟ لولا هذه الآفة لتكاثر المحار وصار اللؤلؤ مثل رمل الشاطئ.. إنما المحار غير سهل أيضاً، إنه من أذكى الحيوانات البحرية، وله بين ٣٠- ٤٠ عيناً وبعضه، ويدعى المحار اللزيق، ينجو بدفن نفسه بالطمي في قاع البحر.. أما خيار البحر فإنه، عند الخطر، يقذف أحشاءه خارج جسمه، فيخدع مهاجمه ثم تنبت له أمعاء جديدة.. وهناك، بخلاف ما هو شائع ذكر بحري يحمل ويلد كالأنثى.. هذا السمك يدعى أبو زمارة، والذكر منه يحضن البيض في كيس بمعدته، وسمكة القد تضع حوالي ٥ ملايين بيضة في السنة، بينما تضع المحارة ٥٠٠ مليون بيضة.. والخلاصة، يا صديقي، لولا أن الأسماك تأكل بعضها لتكاثرت حتى طاف البحر أسماكاً على اليابسة.

حوالي منتصف الليل، كان جيمس قد فقد الوعي من شدّة السكر.. لم يعد لسانه يطاوعه في النطق، وكان سيّد يحاول إيقافه عن الكلام، وحين لم يجد بداً من النهوض، إشفاقاً على الميكانيكي الكهل، كان آخر ما قاله هذا وهو يقف مترنحاً ليودعه: «ولا كلمة لابن القحبة ارتورا.. أليس كذلك يا صديقي؟» وعده سيّد، لكن جيمس ظلّ يشتم ارتورا.. ثم ارتمى على فراشه، دون أن يطفئ الضوء..

ولقد أضطر سيّد، بعد قليل، أن يشتم أيضاً، ولكن في سرّه.. كانت الجدران، بين قمرات البحّارة، من الرقة بحيث لا تعزل الصوت، وعندما وضع سيّد رأسه على وسادته، جاءه صوت صراخ غنج من القمرة المجاورة.. أنصت بشيء من الإثارة.. كان بحّاران يتلاوطان.. وكان الكلام واضحاً تقريباً وأحدهما يتأوه والآخر يزجره لكي يتحمّل قليلاً.. بينما الآخر يطالبه بسرعة الخلاص.. وسمع مصمصة القبل، وصوتاً يقول: «احبك، اشتهيك» ثم يأمر: «تحرّك قليلاً، قليلاً، أكثر.. أكثر..» واشتد الهز.. ثم همد كل شيء.. وأطلق سيّد سباباً مقذعاً، ونهض إلى دورة المياه..

- ٤ -

لم يوفق سيّد إلى مؤالفة عمر. كان يلتقيه، يحادثه، لكن حواراً فكرياً لم يدر بينهما، إذ كان عمر صموتاً، أو راغباً عن الحوار، في المسائل التي تؤهله لفهم أيّة حقيقة عن الكون. ولقد سأله سيّد ذات يوم:

- ألا تحن إلى الوطن؟
- بلى، من لا يشتاق وطنه.؟
- بعض الناس يألف الوضع الذي هو فيه.. ينسى الذين تركهم وراءه..
- لست من هؤلاء.. أرسل بعض النقود إلى أهلي، وادخر الباقي للزواج وبناء بيت..
- هذا جيد، قال سيّد، إنما وحده لا يكفي..
- ماذا عليّ عدا أسرتي؟
- الناس..
- وماذا أفعل للناس؟
- أن يكونوا في حال أفضل..
- هذا متوقّف على اجتهاد كل منهم..
- والوطن.؟ اليس من المهم أن يكون متطوراً؟.. ألا رأي

لك فيما يجري، هناك؟

- تقريباً لا.. فرنسا رحلت، وهذا جيّد..
- ومن يحكم الآن؟
- رجال الكتلة الوطنية.. ولكن لماذا تسأل؟ أراك معنياً بقضايا نحن بعيدون عنها.. بحكم عملنا على الأقل!
- هكذا.. أحب لتجربة الاستقلال أن تكون ناجحة عندكم.
- وماذا ينقصها؟
- تظن أن المطامع من حول سورية انتهت؟ ثم هناك البلاد العربية، ألا تهمك هذه البلاد؟ مصر مثلاً..
- لم أفكر بكل هذا.. ألا تعرف أغنية عبدالوهاب: «مطرح ما يجي بعيني النوم، أنام وانا مرتاح البال؟»
- بلى.. سمعتها..

توقف الحوار عند هذا الحد. لامبالاة عمر أثارت أسف سيّد.. لكن موقفاً هامشياً من الحياة لم يكن بدعاً في كل مكان. ثمة شباب من هذا النوع.. إنهم لم يعانوا بعد. نظّار! ستعلمهم الأيام أن يعيشوها بجد أكبر. قال في نفسه. «هذا النوع من الشباب كثير، خاصة بعد الحرب العالمية.. لا موجب للحكم بقسوة.. لو وعى الجميع ظروفهم لانتهت متاعب العالم. عمر منصرف إلى الشرب والقمار.. عليّ أن أساعده.. أفضل شيء ألاّ أقطع معه. نحن هنا أسرة واحدة. أسرة عربية على أرض أجنبية.

التقصير من سعيد. كان في مقدوره أن يتحدث إليه، ما داما صديقين، عن أشياء كثيرة، ينبغي في البدء، أن يكون هناك ما هو جدير بالموقف المشترك. قبل حلقة ارتورا وقف عمر إلى جانب سعيد.. تضامن معه، هذه نقطة جيدة.. نقطة انطلاق إلى أحاديث مقبلة.».

سعيد ضحك حين أفضى إليه سيّد بالحوار الذي دار بينه وبين عمر. «لا فائدة» قال «هذا التيس غير قابل لأن يكون بشراً من النوع الذي تبحث عنه.» قال سيّد: «لست من رأيك.. الذنب ذنبنا.. ينبغي ان نكثر من الاحتكاك به». أجاب سعيد: «هذا حديد بارد يا صاحبي.. عبثاً تصنع منه أداة صالحة.. وفِّر مطرقتك لحديدة قابلة لأن تكون منجلاً أو فأساً». قال سيّد «لا شيء اسمه حديد بارد.. حين تكون ثمة نار، يكون هناك حديد حام.. وبالمناسبة الحديدة الحامية التي اسمها ارتورا يسأل عنك، قال لي.. هل تأدب صاحبك الآن؟».

- وبماذا أجبته؟
- قلت عنك كلاماً طيباً..
- حدثته عن طاعتي؟
- حدثته عن والدك.. قلت له إنه كان من المقاومين ضدّ فرنسا، وأنه أيام الأزمة والجوع نزل إلى الباخرة الجانحة لمساعدة البحّارة، وأنه فُقد.. ومن المرجح أنه غرق، لكن

سعيد لا يصدق.. يقول محال أن يغرق والدي.. وأنك تبحث عنه، وهذا واحد من أسباب عملك في البحر..

- وبماذا علّق على كلامك هذا؟

- لم يقل شيئاً.. أصغى جيداً.. حين يصغي جيداً يكون قد إهتم.. أعرفه جيداً.. ثم إنني حدثته عنك أيضاً، ورويت له حادث غرق ذلك المركب، وتنافسك مع الريّس عبدوش لأجل تلك المرأة.. ما اسمها؟

- كاترين الحلوة..

- نعم، نعم. وقلت إن الريّس قطع بك الحبل، في محاولة لإغراقك..

- جعلت مني بطلاً..

- أردت أن يعرف أن البحّارة العرب ليسوا فتيان ميناء يؤجرون أقفيتهم..

- يا صديقي العزيز.. لا عدمتك..

- قل يا رفيقي.. نحن رفاق قضية.. أليس كذلك.؟

- ولكنك تمنحني ثقة لا أستحقها، ثقة لم يمنحني مثلها قاسم..

- اشتقت إلى هذا النداء يا سعيد.. خمسة عشر عاماً وأنا بعيد.. خمسة عشر عاماً لم أقل لأحد يا رفيقي..

ومع أن سعيد لم يفهم تماماً قيمة النداء، على الوجهة التي كان يقصدها سيّد، إلاّ أنه تأثّر، وجد يده بيد سيّد، وشعّت من عيون أربع فرحة جزلة، وقال في نفسه «ها أنا أجد

أخاً.. ما كنت أظن أن هذا سيحدث!».

في المساء حدث ما لم يكن متوقعاً. في رومانتيكية حياة ثائرة، لقبطان قادر وحده على أن يتصرف بجنون كهذا، كان ارتورا وسعيد يشربان الأنخاب، قال له، عن طريق سيّد: «اسمع يا سائيد، أن تكون معي الآن، هذا لا يمنع أن أقيم لك حلقة جديدة غداً.. أنا لست فاشياً قذراً. لقد اشتركت في المقاومة ضد الفاشية.» قالها بتشديد وأبهة. شرب عقب هذه العبارة جرعة طيبة من كأسه وأضاف: «أنا بحّار قبل أن أكون قبطاناً.. لكن البحّارة يحتاجون إلى ريّس.. هل هذا مفهوم؟ كل جماعة تحتاج إلى قائد.. أنا حملت السلاح وأعرف الأصول. دون رأس تكون هناك الفوضى.. لكن هذا الرأس، ونقر بسبابته على رأسه، لا يخلو من عواطف إنسانية.. المهم.. قال لي سيّد إنك كنت تعمل على المراكب، وإنك عملت مع ريّس كنت تنافسه على حب زوجته، وإن هذه الزوجة كانت تعشق رؤساء المراكب وتقتلهم.. وهذه حكاية مثيرة.. حدثني إذن، عن كل ما وقع لك.. دعني أعرف الشرق، من خلال ما جرى لك.. هذا يبهجني.. أنا لا أهتم بحيوانات البحر مثل الميكانيكي جيمس. ليذهب إلى سوق الشراميط ويصبح قواداً هذا الحقير.. أنا أهتم بالناس.. بالحكايات، بالنساء.. وبهذا (وأشار الى كأسه).. فمن تكون تلك المرأة الجميلة التي تقتل القباطنة الذين يتزوجونها؟».

قال سعيد في نفسه: «يحسبني سندباداً هذا العرص.. لقد فعلها سيّد.. صوّر له الحادثة وكأنها قصة أسطورية من الشرق.» وقال سيّد: «القبطان ارتورا عفا عنك نهائياً يا سعيد.. صف له رحلاتك البحرية.. عملك مع الريّس زيدان خلال الحرب.. حدثه عن كاترين الحلوة.. ألم تكن عشيقة والدك يوماً؟».

شرب سعيد وتحدث. شرب سيّد وترجم. شرب ارتورا وانتشى.. استوقفه، أكثر ما استوقفه، كلام سعيد عن فخذ كاترين.. عن شبقها وعنفوانها، وعن وجودها في أثينا.. وفي نفحة أريحية دافقة أطلق هذا الوعد:

- حين نعود إلى أثينا.. سأساعدك في البحث عن... ماذا يقولون عندكم عن المرأة التي قصت شعر شمشون؟

لم يفهم سعيد. لكن سيّد أجاب:

- دليلة، يا سيدي القبطان..

ضحك ارتورا واستعاد الاسم، مقطعاً مقطعاً، وقال:

- إذا عثرنا عليها سأتزوجها.. اعذرني يا سعيد.. سأتزوجها.. أتعرف لماذا؟ أريد أن أكون من ضحاياها.. أنا لا أصدق أن أمرأة تقتل رجلاً.. ولست، كما ينبغي أن تعرف، أخاف السكين ولا المسدس.

- كاترين تقتل بالحب، قال سعيد..

- آه! هكذا.. زدتني رغبة.. أنا أبحث عن امرأة تقتلني حباً.. اسمع.. تظن أن هناك امرأة تستطيع قتلي شهوة

أو حباً؟ أنت لا تعرف القبطان ارتورا.

- وأنت، اسمح لي، لا تعرف كاترين الحلوة..

قهقه ارتورا وهو يملأ كأسه وقال:

- أنا لا أعرف كاترين الحلوة بالذات، هذا صحيح، لكنني أعرف كثيراً من نساء العالم.. أتخوّفني من شهرزادكم هذه؟

- هذه، أولاً ليست شهرزاد.. لا تعرف أي حكاية..

- بماذا هي قوية إذن؟

- لا أدري.. لكنها قوية.. ربما كانت من جنّيات البحر..

- حسناً، صاح ارتورا، هذا جميل.. أن تكون من جنيات البحر فمعنى هذا أنها تستحق تعب البحث عنها.. سأجعلها تندم لأنها خرجت إلى البر..

تذكر سعيد قصته مع عزيزة.. زعم، مرة، أنه سيسحقها.. كانت النتيجة مؤلمة.. ارتورا مغرور لا أكثر.. وهو لن يتحداه.. ليبحث عن كاترين الحلوة.. هذا مفيد.. لكنه ليس أكثر رجولة من أزواجها الذين علّقت رؤوسهم فوق عتبتها..

- هل يعرف سيدي القبطان أثينا جيداً؟

- أعرفها مثل روما..

- وتعرف بحّارتها.؟

- ليس كلهم.. لكنني سأهتدي إلى زوج صاحبتك إذا كان قبطاناً أو مرشداً للسفن..

- إذا عثرت عليها فسأكون ممتنّاً لك.

قال ارتورا في غير مداراة:

- إذا عثرت عليها فستكون لي.. إنني لست قواداً حتى أهديك هذه القحبة بعد العثور عليها..

قال سعيد في نفسه: «بدأ يسكر ابن العاهرة..»

وقال له سيّد: «دعه يا سعيد.. إنه لا يعني ما يقوله، لكنه صاحب لسان سليط كما ترى» لكن سعيد أجاب وقد ركبه روح الشر:

- كاترين الحلوة ليست قحبة.. وهي حبيبتي، ومن بلدي، وكانت يوماً عشيقة والدي.

صرخ ارتورا:

- سأئيد.. أنا لم آتِ بك لأسمع إلى عوائك.. انتبه..

قال سعيد ممعناً في التحدي:

- ما دمنا نشرب.. فلا بأس أن ننسى أنك قبطان وأنني بحّار.. والدي.. قاطعه ارتورا:

- إلى الجحيم بوالدك يا سعيد.. حدّثني عنه سيّد..

- الكلام وحده لا يكفي.. والدي قاتل الأتراك لأجل كاترين الحلوة هذه..

- أنت تخاطب إيطالياً لا تركياً.. إيطالياً اشترك في المقاومة..

- وأنت تخاطب عربياً أيضاً.. عربياً سجن ثلاث سنوات لأنه وقف ضدّ فرنسا..

تدخل سيّد محاولاً تغيير الحديث.. اقترح أن ينسحبا لأن سعيد بدأ يسكر. كان يكذب، معتقداً أن الانصراف خير وسيلة لتجنب معركة بين ديكين سقي كل منهما كمية من المهيجات.. لكن ارتورا الذي فتح زجاجة ويسكي جديدة، وأصر على أن يملأ قدح سعيد «حسب ما يقضي شرب المنادمة بين بحّارين» رفع كأسه فجأة على شرف سعيد الذي قاوم فرنسا وقال:

- دعني أقل لك، يا سعيد، إن العناد في البحر، لا يفيد.. قد لا أنصب لك حلقة أخرى..

قال سعيد وقد ركبه شيطان أحمر:

- انصب حلقتك إذا شئت..

لم يترجم سيِّد العبارة.. كذب مرة أخرى.

قال ارتورا:

- ولن أسجنك.. لكنك ستنزل من هذه الباخرة في أول مرفأ.. عندئذ تذهب أنت ووالدك الى..

وقف سيّد وقال:

- اسمح لنا سيدي القبطان، أن ننصرف. سعيد شرب أكثر مما يجب..

- أُلاحظ ذلك. كنت أحسبه اكثر مقاومة للشراب دَعْهُ يذهب ويفكِّر بقحبته. أما أنت فستبقى...

- كما تريد (وملتفتاً إلى سعيد) القبطان يقول: انصرف الآن..

غادر سعيد غرفة القبطان وقد ارتدى قناع إبليس.. أدرك كل شيء.. شتم في سرّه، اتجه رأساً إلى البار، فلم يجد بائع المشروبات.. فكّر عندئذ أن يذهب ويقتحم الغرفة على القبطان.. ركبته روح المشاكسة.. لكنه، في ضغط ناجح على أعصابه، ذهب إلى قمرة سيّد وانتظره.. وبعد قليل نام في سريره.. وأغفى بعمق..

لم تصادف الباخرة أيّة أنواء أو متاعب بحرية حتى قناة بناما. كان المرور بالقناة عملية في غاية الروعة، لا من حيث انفتاح السدود، والعبور على الطوفان المائي فقط، بل من حيث كثرة البواخر، الراسية على طرفي القناة بانتظار العبور في اتجاهين متعاكسين. ومن هناك أبحرت «كاسل» إلى كولومبيا، البيرو، الاكوادور، تشيلي.

خلال ذلك لم يلتق سعيد بالقبطان ارتورا. لعل هذا نسي تهديده بإنزاله من الباخرة في أول مرفأ. ولعله أرجأ طرده إلى أثينا، وكان سيّد يقص على سعيد، خلال المرور ببلدان امريكا اللاتينية، عن نضال شعوب هذه القارة، وعن موقفها في الحرب العالمية الثانية، كما كان يردد، بشيء من التوكيد، أن الحركات الثورية، هنا، متأصلة، برغم أن حكومات مثل الأرجنتين وغيرها كانت، في عواطفها، أقرب إلى ألمانيا الهتلرية.

- الميل إلى النازية هنا، كان نوعاً من الانتقام الضمني من

أميركا الشمالية. نحن أيضاً، في مصر، مال كثيرون منّا إلى ألمانيا، كرهاً بالإنكليز..

- لكن المانيا بعيدة..

- لا بأس، ليست المسافات هي المهمة. الأفكار، مثل بعض قطعان السمك، تهاجر.. كان ذلك في أول الحرب، عندما كان هتلر يجتاح اوروبا بلداً بعد آخر.. ثم تغيّر الوضع.. لكن النازية لم تمت بموت هتلر.. هنا أيضاً، اميركا تبنَّتها.. احتضنت أيتام الهتلرية.. صيّرتهم عملاء أميركيين.. وفي مونتفديو حدثت دراما بحرية مثيرة.. الأسطول البريطاني طارد بارجة ألمانية. كانت هذه البارجة، نسيت اسمها، تغرق السفن التجارية في المحيط، تقطع الخطوط البحرية. لم تكن أميركا قد دخلت الحرب بعد، وحين اكتشف الأسطول البريطاني البارجة الألمانية طاردها، وشدد الحصار عليها.. هذه الحادثة رواها لي الميكانيكي جيمس، كان، آنذاك، يخدم في الأسطول، قال إن قبطان البارجة الألمانية كان بحّاراً ماهراً. دوّخ القيادة البحرية الإنكليزية، فلما اكتشف مكانه، ولم يجد القبطان الألماني سبيلاً إلى النجاة، التجأ إلى مونتفيديو، طالباً اللجوء فيها باسم الحياد.. لا تصدّق هذه الكلمة. لا يوجد محايد في الدنيا. الشيطان وحده يمكن أن يقف على جدار دون أن يميل إلى إحدى الجهتين.. سلطات مونتفيديو كانت تميل الى ألمانيا، وحين دخلت البارجة

الألمانية إلى مياهها الإقليمية، أسرع السفير البريطاني إلى مقابلة رئيس الوزراء، طالباً إصدار أمر إلى قبطان البارجة بالخروج من المياه الإقليمية. أتدري ماذا حدث؟ هنا قامت معركة ديبلوماسية بين الجانبين الألماني والإنكليزي ولما اشتد الضغط على سلطات مونتفيديو، تواطأت مع الألمان.. سمحت للبارجة الألمانية بإنزال بحّارتها، وبقي القبطان وحده على ظهرها، وعندئذ فجّر البارجة رافضاً الاستسلام..

- يا للشجاعة! هتف سعيد..

قال سيّد:

- نعم.. الشجاعة ليست حكراً على طرف واحد.. بين النازيين وُجد شجعان أيضاً..

-ألا يشبه القبطان الألماني قبطاننا ارتورا؟

- من يدري.. كلاهما بارع ومغامر.. كان خليقاً بارتورا أن يفعل الشيء نفسه..

- لكنه لم يخدم في الأسطول الحربي..

- لو خدم لكان من المبرزين أيضاً.. ارتورا ليس بحّاراً عادياً.

- أنت تعطيه أكثر مما يستحق..

- ربما.. لكن الرجال الشجعان أمثاله خليقون بالأعمال الخارقة..

- بودّي لو أعرف إلى أين يذهب.. حين نرسو في المرافئ..

- دعه وشأنه.. إن له صديقات فيها.. جيمس وصفه بهذه الكلمات: داعر من الدرجة الاولى!

- لو نلتقي يوماً في مقهى، خمّارة، مبغى.. عندئذ كنت أصفّي حسابنا القديم..

ساق سيّد، بكلمات حاسمة، هذه الملاحظة:

- برغم كل ما بذلت من جهود معك.. ما زلت أخرق أحياناً. أيّ حساب هذا يا سعيد؟ هل ارتورا عدوّنا؟

- لكنه أهانني..

- نحن لا نعمل لردّ الإهانات الصغيرة، ولا الفردية.. قضيتنا أكبر من ذلك..

- وكرامتنا..؟

- ما لها كرامتنا؟

- ألا ندافع عنها؟

- من قال ذلك؟ ولكن، ما معنى الكرامة؟ ومن الذي يهين كرامتنا؟ فكّر أنت.. كرامتنا يهينها الذين يحتلون بلادنا، الذين يأكلون أتعابنا.. الشركة الملاحية، هي التي تهين كرامتنا، وستقول: ارتورا هو وجهها في الباخرة، وهذا صحيح.. وأنت تحدّيته، قاومته، رددت عن كرامتك.. وهنا المسألة صغيرة، فردية، وقد تنتج عن استفزاز، أعداؤنا يستفزوننا كل يوم، غير أن هذا لا يوصلنا إلى أي شيء.. تريد أن تردّ عن كرامتك؟ نظّم إضراباً لأجل تحسين ظروف العمل، زيادة الأجور، منع

الجلد على الباخرة.. أما أن تنافس ارتورا على امرأة.. فهذا كلام فارغ..

- ولكن هذا يحتاج إلى وقت طويل..
- وليكن.. لا تركض وراء النصر الفردي الصغير.. اسمع ما أقوله لك..
- في هذه أختلف معك..
- أعرف.. اختلفت مع قاسم أيضاً كما قلت.. أنت سريع الغضب، قليل الصبر..
- كلكم تقولون الشيء نفسه.. والدي لم يفعل كما تفعلون..
- والدك غير ملوم.. كان فرداً.. ولم يتيسّر له أن يملك الوعي الكافي..
- طيِّب.. أنا سأتعارك مع ارتورا.. وأنت نظِّم الإضراب على الباخرة، أو في أي مرفأ تعمل فيه..
- هذه أفكار غير ناضجة..
- اللعنة على الأفكار الناضجة إذا كانت على حساب كرامتي..
- لا بأس! لا بأس!.. نحن من الشرق، ولن نستطيع أن نخرج من جلودنا بين يوم وليلة.. (وبعد وقفة) حسبت انك ستؤثّر على عمر، وأجد الآن أن عمر أثرَّ فيك.. أنت فتوة أكثر منك مناضل..

مرة أخرى استاء سعيد. «هذا السيّد رجل لا يفهم.. يقول لي: رفيقي، ثم يفلقني بنصائحه.. إذا تحّرش بي

القبطان ارتورا فلن أسكت.. أنا لا أخاف السجن، ولا أخاف آكل المعكرونة هذا».

رست الباخرة في مرفأ فالياريسون في تشيلي، كان سيّد في نوبة حراسة، فنزل سعيد وعمر، وقصدا أول خمّارة، وقاما بنزهة طويلة في شوارع المدينة. بعد ذلك دخلا مقهى في مركزها، وتناولا قهوتها على الرصيف. فجأة هبطت فتاة من سيارة شفروليه. كانت ترتدي بنطلوناً فوق جزمة طويلة الساق، وتلبس بلوزاً أسود، وعلى عينيها نظارتان سوداوان. توجهت إلى المقهى، راقتعدت كرسياً واضعة رجلاً على رجل.

لكز عمر صديقه قائلاً:

- انظر.. هذا هو الجمال الإسباني..

قال سعيد:

- تبدو متكبِّرة كأنها ابنة حاكم المدينة نفسه.
- هي جميلة وتعرف أنها جميلة.. انظر إلى بياض هذا العنق..
- ما أظنها صيداً هيّناً..
- لنرقبها.. وحين تسير نتبعها.. تأمَّل شموخ صدرها..
- لو رفعت نظارتيها.. أراهن على أن لها عيوناً جميلة..
- أظنها تنتظر أحداً.. راقبها كيف تتلّفت..

نهض سعيد مدفوعاً برغبة في أن يمر بها عن قرب، لكن

ضجة، في هذه اللحظة، علت في الشارع المحاذي للرصيف. اجتمع رجال ونشروا لافتة.. كان المشهد خاطفاً، لكن بحّارة وعمّالاً، انضموا إلى الرجال وهتف أحدهم ولوّح بقبضته في الهواء.. وفي هذه اللحظة شحّطت عجلات سيارة، ونزل منها جنود، وحدث اشتباك بالأيدي.. كان بضعة فتيان قد أقبلوا من الاتجاه المعاكس.. وصاح رجل على الرصيف «الفاشيست» وعندئذ أزّ رصاص من اتجاهات مختلفة، ونزلت الفتاة يتبعها شباب كانوا جلوساً على الطاولات من حولها وشهروا مسدساتهم وهي تتقدّمهم. حدث كل شيء كومض البرق. سقطت جثث في الشارع. سال الدم، لكن المظاهرة تقدّمت، والفتاة هتفت بالإسبانية كلاماً ردده الذين وراءها. وأقبل خيّالة تسبقهم وقع السنابك، وفي أيديهم سياط، واندفعت الخيول تجبه المتظاهرين، تدوسهم.. وعلا الصراخ، مختلطاً بدوي الرصاص. واتسع نطاق المعركة، لكن عمر وسعيد كانا قد ركضا مع الراكضين في زقاق فرعي، ومن هناك اتجها الى الميناء، وصعدا الباخرة لاهثين من التعب والرعب.

كان الحادث، بالشكل الذي وقع فيه، مثيراً غاية الإثارة بالنسبة لسعيد. كل ما استطاع أن يعرفه أن فتاة قادت مظاهرة. وأن الفاشيست هاجموها والسلطة، بخيّالتها، تصدّت لها، وأن هناك جرحى وربما قتلى أيضاً. وقال سيّد معلقاً:

- في هذه البلاد كثيراً ما يحدث هذا.. إنهم رفاقنا..
قال سعيد:
- تقول رفاقنا وأنت لا تعرف بماذا يطالبون..؟
- يكفي أنهم ضد الفاشيست..
- لكن الفتاة كما يبدو، ليست عاملة..
- ربما كانت طالبة جامعية..
- أنا لم أر شيئاً من هذا قبل الآن..
- في المستقبل سترى.. المعركة تشمل العالم كله، وهذا جزء منها..
- في بلادنا، لا يحدث مثل هذا.
- بلى حدث ويحدث.. ألم ترَ مظاهرة في حياتك.؟
- مظاهرة مسلّحة؟ وتقودها فتاة؟ ما أظن هذا سيحدث عندنا.
- لا تستبعد شيئاً.. المرأة العربية لا دور لها الآن، لكنها ستنهض.. من قال إن الحريم لن يزول..؟
قال عمر:
- المرأة لم تخلق لهذا..
فأشعل سيّد سيكارة وسأل:
- ولماذا خلقت إذن؟
- للبيت..
- حين تتعلّم وتعمل.. ستجد طريقها إلى خارج البيت أيضاً..

- مستحيل!
- لا شيء مستحيل..
- ويسمحون لها؟
تأمله سيّد ملياً وقال بغير اكتراث:
- لا أحد يطلب السماح من أحد في مثل هذه الأمور.. إنها تحدث لأنه لا بدّ أن تحدث..
- عندئذ تكون القيامة قد دنت..
- هذا ما نرجوه.. نحن بحاجة إلى قيامة يا صديقي.

★ ★ ★

في المساء، اقترح سعيد الذهاب إلى مقهى الرصيف ذاك، لمعرفة ما كانت نتيجة المعركة. عمر كانت لديه نوبة حراسة، سيّد اعتذر لأنه تواعد مع الميكانيكي جيمس على تناول «جرعة» من البراندي بمناسبة «عيد ميلادي» كما قال جيمس. سعيد أصرّ على الذهاب إلى المقهى، وقد شاقه ما رأى حتى تمنّى لو اشترك فيه، قال في نفسه: «سيّد يقول إن المعركة واحدة، وإنها تشمل العالم كله» طيّب، هي معركتي إذن، وإلى جانب تلك الفتاة، يمكن أن أمضي إلى الموت عن طيب خاطر. إنما الكفاح مع السلاح. قاسم لو كان مسلحاً ما استطاع أعداؤه القبض عليه، وزملاؤه العمّال كانوا اقتصّوا من الجناة، أنا أفهم بهذه اللغة وحدها. هذه لغتي، هذه لغة والدي من قبلي، وذات يوم، لو حدث ما قال

سيّد، واشتركت المرأة مع الرجال، في هذه الحال يكون الحماس أكبر.. في المدرسة، قالوا لنا إن النساء العربيات كنّ يخرجن إلى المعارك، ينشدن الشعر ويحرّضن على القتال.. آه لو أرى تلك التشيلية مرة أخرى.. كنت أنحني أمامها. هذه تستحق أن ينحني الرجل أمامها.. أما ارتورا..».

جمع كل ما معه من نقود.. قد يلتقي برفيق تشيلي.. «كيف نتفاهم؟ لا يهم.. أحفظ كلمات إنكليزية. أنا لا أحمل شارة حمراء وراء ياقة سترتي مثل بنيوتي.. لكنني سأقول ما يخطر على بالي... أفهمه أنني ضدّ الفاشيست ولو بالإشارة.. نتعارف، نسكر، أقيم وليمة صغيرة، ولو حدث أن جاءت تلك الفتاة، أيّة فتاة سأجعلها وليمة كبرى. أنا لن أكون نذلاً مثل ارتورا.. سأحترم أي فتاة هي من صفّنا.. يا ربي.. كم في العالم من بلاد، وكم في تلك البلاد من رفاق.. جيش لا أول له ولا آخر.. الآن رأيت وصدقت ما قاله سيّد.. لكن سؤالاً ما زال يعذبني: «ما داموا بهذه الكثرة، فماذا ينتظرون؟»

جلس إلى الطاولة نفسها التي كانت تجلس إليها الفتاة. اعتبر ذلك علامة على التضامن. طلب زجاجة بيرة. طلب ثانية. دخّن، تلفّت حواليه، طال انتظاره. لكن آثار الذين يرغب في رؤيتهم لم تظهر أبداً، وحين بدأ ندل المقهى يضعون الكراسي فوق الطاولات، أدرك أن المقهى سيقفل.. دفع حسابه وسار في شوارع المدينة الساحلية. كان عنوان

المرفأ واسم الباخرة، وبطاقته البحرية في جيبه الداخلي، وهو في عطلة، وليس لأحد أن يحاسبه مهما أطال السهر، تساءل: «أين أذهب؟» الجهل باللغة التي يتكلمها أهل البلد مصيبة، لكن المصيبة، حتى في حال كهذه، قد تنقلب إلى غنيمة، ذلك أن الجهل باللغة، يعطي المرء هوية محددة: غريب! وبهذه الصفة فإنه قادر على التصرف الحرّ، والطرف الآخر قادر أيضاً على تصرف حرّ مماثل معه. مشى يستعرض الواجهات، يحملق في المعروضات، يرى إلى المارة، يبحث بعينين نهمتين عن إنسان يكون معه إلى جانبه، يبادله حديثاً ما. أخيراً استوقفه ملهى للعروض العارية. قال في نفسه: «ههنا أجد بعض التسلية. تلك المرأة، التي وطئتها عند نزولي من الباخرة، لم تشأ أن تتعرى. كانت في عجلة من أمرها». ذكرته بامرأة بغي، في فيلم إيطالي، أظهرها وهي تعطي جسدها المأجور لرجل عابر، وبينما هو يركبها، محاولاً عبثاً أن يقضي وطره في جوّ من الألفة الإنسانية، كانت هي، من جهتها تحبك الصوف بسيخين ثخينين من البلاستيك. لقد أعطته نصفها التحتي، وانصرفت في نصفها الفوقي، إلى شأن لا علاقة له بما تمارس من جنس. هو أيضاً في بعض الحالات، قادر أن يحتفظ بفكرة سامية في رأسه، بينما منطقة حوضه مشغولة بعمل داعر لا صلة له بالسموّ.

قطع تذكرة دخل. كان الملهى عادياً. تنتشر طاولات صغيرة، مربعة، في جوّه الضيق الموبوء بما لا يدري من

لهاثات قذرة. وكان العرض من قسمين. تظهر فيه النساء عاريات، وفي وضع الجماع مع الرجال، لكن التركيز كان يجري، بصورة واضحة على مؤخرات النسوة العاريات حتى قال في نفسه: «هذا الجوّ الملعون، أعدّ خصيصاً لأمثالي من البحّارة» ومن غرابة أن الإقبال كان كبيراً. ولم يبق مكان فارغ سوى الطاولة التي يجلس اليها، مما دفع برجل وامرأة يتكلمان الإنكليزية، إلى الاستئذان بالجلوس إلى مائدته. ما كانا في الشباب، ولا في الكهولة أيضاً. ضمن أن المرأة في الأربعين. وأن الرجل يكبرها قليلاً، ومع أن الضوء الخافت لم يساعده على تبيّن وجهيهما جيداً، إلاّ أن جلوسهما إلى طاولته كان نعمة في ذاتها. انتفت وحشته. صار المكان إلى الأنس أقرب. وفي جوّ من الأريحية العربية طلب لهما قدحين من الويسكي، وفي الاستراحة بين الفصلين، قام نوع من التعارف الأولي بينهما، كانت المرأة تدعى روزا والزوج انطونيو، وفي مقابلة غير متوقعة، ونادراً ما تحدث في البلاد التي تجوّل فيها، طلب الزوج كمية إضافية من الويسكي، وحين استؤنف البرنامج الاستعراضي العاري، تجرأت المرأة على الإمساك بيد سعيد من تحت الطاولة. كانت يدها حارّة. وفيها رجفة خفيفة، وفي أصابعها عقد، برغم أن القسم الظاهر من جسدها يعد بمفاتن جسم بضّ رخص.

إلى هنا كان كل شيء طبيعياً. تلامس اليدين كان بفعل الإثارة المتولدة عن العرض، امرأة ورجل يتجاوران. يريان

حركات عارية، حررت نفسيهما من طابع الحشمة. لكن روزا تمادت. خاف سعيد أن ينتبه الزوج، لكن هذا كان مأخوذاً بما يرى، منصرفاً عن رقابة ما يجري بين زوجه والرجل الغريب، أو متغاضياً عنه. وفي نهاية البرنامج، دفع سعيد الحساب كله، فأصرّ الزوجان، بدعوة حماسية ملحاحة، على ذهابه معهما. تردّد سعيد في البدء، فكّر في ما وراء هذه الدعوة. لم يكن يحمل إلاّ مقداراً صغيراً من النقود. لم يكن صاحب مركز أو جاه. ثم ليس في جيبه، هو البحّار الغريب، دفتر شيكات. إذن، ما هو الشيء الذي يخاف عليه؟ «حسناً!» وافق على الذهاب، وجلس في سيارتهما الصغيرة، على المقعد الخلفي، مدفوعاً بروح المغامرة إلى اكتشاف ما وراء هذه الصحبة الجديدة.

كان الليل قد انتصف. درجت السيارة في شوارع عديدة. قطعت مسافة بعيدة. هتف سعيد في داخله: «ماذا لو كانت عملية خطف؟» وأجاب ساخراً على الفور: «لعلهما يطلبان، مقابل إطلاقي، فدية من القبطان ارتورا». وفي ضاحية المدينة، كما قدّر من غابة صغيرة، توقّفت السيارة أمام بيت من طابق واحد، دخلوا إليه عبر مجاز محاط بشجيرات وزهور. كان البيت أنيقاً، تبدو عليه نظامية منزل لا أولاد فيه. كل شيء في مكانه، على الرفوف والطرابيزات، وحتى الأواني الزجاجية، كنماذج لأفضل التحف، وضعت بشكل انتفى منه الخوف على سقوطها

نتيجة يد عابثة. ومنذ دخول البيت، أشارت السيدة إلى خوان في الصالون، وضغطت زراً فانسابت الموسيقى، وكانت الويسكي، مع الثلج، جاهزة بعد قليل، وكلّ الجو قد تهيأ لمواصلة الشرب.

عجز سعيد عن تفسير وليمة ارتجالية كهذه. صحيح أنها وليمة بالمعنى المجازي، وليس فيها مدعوون أو موائد، غير أن إقبال الزوجة عليه، وابتساماتها المتلاحقة، وعدم تحفُّظها جعله يشك في نظافة السهرة رأساً، قال في نفسه: «ليت عمر معي. سيّد لا خير فيه ولا يصلح لمغامرة كهذه، لو كان موجوداً لأفسد عليّ ليلتي. إنه كيّس. حلو الحديث، لكن مجرد وجوده، يضفي على الجلسة طابع الرصانة، حتى ليحسب الجالس معه أنه مع والده.» قال الزوج، وهو يرفع كأسه: «شن. شن..» وشربوا بغير كلام سوى بعض الإشارات، مصحوبة بكلمات انكليزية تعذّر على سعيد أن يفهمها. رفعت روزا كأسها بجرأة، دقت كأسي جليسيها بقوة، ضحكت، شاركت في الغناء المنبعث من المسجِّل، مظهرة غنجاً ظاهراً، مشجعاً، لكن سعيد ظلّ متردداً، لا عن عفّة. بل عن حيرة أمام زوجٍ امرأته تخرج عن المألوف في التصرّف مع رجل غريب، رجل شرقي للشرف عنده معيار يختلف. غير أن الزوج، انطونيو، غاب قليلاً، وعاد بثياب النوم واضعاً كفه على خده إشارة إلى اعتزامه الرقاد.

«قوّاد» قال سعيد بغير صوت. خطر له أن ثمة ابتزازاً،

يقضي الليل في هذا البيت، وفي الصباح يدفع الأجر. إنها طريقة في اصطياد الزبائن، وقد ينتظر الزوج حتى تصبح زوجه عارية في السرير مع الرجل الذي جاءا به، وعندئذ يهدده، ويرغمه على الدفع اتّقاء للفضيحة. احتار في تعليل سلوك الزوجين، رفّت على وجهه ظلال حيرته، فيما كانت روزا تشرب، تسقيه، تغني، تخلع بحركة نزقة كنزتها وتلقي بها جانباً، كاشفة عن صدر جميل، وكتفين مكلثمين وساعدين مثيرين جداً.. ثم قاما إلى الفراش.

وفي الصباح كان سعيد قد وصل إلى حالة التلف. أحس أن ليلته الحمراء قد حلّت أوصاله. كانت روزا تطلب وتطلب إلى الصباح. وكان زوجها يرى من ثقب في الجدار، يسمع، ويمارس لذته الشاذّة حتى درجة الانتشاء. وفي الليلة التالية تكرّر ما حدث. جاء انطونيو وروزا إلى المرفأ، وانتظرا على الرصيف حيث ترسو الباخرة «كاسل»، وإلى هناك وافاهما سعيد وعمر، وبعد الشراب تناوبا عليها إلى الصباح، حيث خرجا شلوين محطّمين، وقرّرا ألاّ يعودا أبداً، لكن روزا جاءت اليهما، وفي غرفة عمر، في الباخرة كاسل، مارست الحب مع عدة بحّارة، ولما فرغت منهم سألت:

- ألم يبق أحد؟

- لم يبق سوى الطباخ..

وقالت بغلمة مَرَضية:

- إيتوني به..

وكان ما طلبت، ولم يمتنع عليها من الموجودين على ظهر الباخرة سوى سيّد والقبطان ارتورا، الأول لأنه رفض أن يشارك، كما قال، في هذه القاذورة، والقبطان لأن أحداً لم يجرؤ أن يخبره بما يجري على باخرته.. وفي الصباح الباكر أبحرت كاسل باتجاه العودة، عبر المحيط، إلى أوروبا فاليونان، وهناك نزل منها بحّاران: سيّد وسعيد، سيّد لأن الإنكليز جلوا عن مصر، وصار في وسعه العودة، وسعيد لأن القبطان ارتورا، بعد أن دعاه إلى غرفته، وشرب نخبه كما يقضي «الشرف البحري»، نصحه بأن يرحل ويعمل على باخرة أخرى.

* * *

خمس عشرة سنة مضت وسعيد يبحر من مرفأ إلى آخر. عمل، بعد «كاسل»، على الباخرة صوفيا كولوتروني، حمولتها ٣٥ ألف طن، عابرة قارّات، انطلقت من رأس الرجاء الصالح إلى بحر الهند، ورست في سنغافورة، مركز تموين السفن، ومنها إلى بومباي، وهناك كان جمع من البائعين والبغايا ينتظر، فما أن رست الباخرة حتى أُلقيت حبال في رأسها كلاليب، على حاجزها، وتسلق البائعون والبغايا، والكل يعرض بضاعته.

كان سعيد قد رأى أشياء كثيرة، تعلّم أشياء كثيرة، وظلّت كلمات سيّد عند الوداع، في ذاكرته: «امض في

الطريق التي أوصاك والدك بالسير فيها، كن بحّاراً ومناضلاً.. وحاول ما استطعت أن تلجم نفاد صبرك. لا تسرف في إهدار فتوّتك، ولا تشاكل أمثال روزا، بل حاول أن تكون أخاً لتلك التي رأيتها تتزعم المظاهرة في مرفأ فالياريسون.. وإلى اللقاء».

- ٥ -

« خذ حذرك ، أيها المسافر ، من أحزان الطريق ».

خذ حذرك ، يا سعيد ، من أشجان ليلة وداع البحر ، والذكريات.

أنت أردتها هكذا ، تياراً مضنياً ، تتشرّد فيه ، بين حصى الشاطئ وأنقاض الأيام.

وأنت ، بين خيام الصحب الذين هجرت ، وقصر السيدة الذي تستقبل ، ترعف من الداخل ، ضياء أبيض يسيل ، كما دموع صخرة جبلية شجواً مؤلماً.

وعلى صفحة البحر ، حيث أسّس نور القمر ، موطناً متطاولاً من شعاع فضي يتكسر مع الموج ، اقرأ سطوراً غير مرئية من سواك ، لأنها سطورك ، قدرك ، وسيرة عمرك الغارب.

وفي هذه الليلة ، كما في كل ليلة ، اسأل نجوم السماء.

وغداً نهاراً ، كما في كل نهار ، اسأل طيور البحر.

اسألها عن ذلك الوالد الذي اختفى ، والذي ما زلت تبحث عنه ، وعن كاترين الحلوة ، التي أحببت ، والتي

أضعت، وعن رفيقة النضال في المرفأ البعيد، التي سارت في مقدمة المظاهرة، غير مبالية بالسيوف أو سنابك الخيل.

و« امض يا رفيقي » كما قال سيّد الإسكندراني، وهو يعانقك، عناقاً كان آخر العهد، وتابع حكايتك، أيها البحّار، فصلاً فصلاً، ففي الليل متّسع، وفي الحجر صمت، وفي جدران الماء كوى، هي مدافن للأسرار، وعيون عميقة المحاجر لكاهنات الماء.

إن الطيف، في المدى المترامي، هو قاعدة الإبهام التي يتبعها البحّارة، وإلى البقعة المبهمة، للزرقة الرصاصية، ترحل عيون الذين جرحتهم، دون شفاء، عرائس البحر. لم تظهر عروسك الليلة، ولن تظهر في الليلة المقبلة، ولا التي بعدها أو بعدها. ولن يتوقف البياض الذي ينف في رأس أشعلته الأسفار.

لقد اعتدت، وأنت في متاهة المحيطات، أن تشهد مآتم زملاء البحر، وأن تشارك بيديك المرتجفتين حزناً بإلقاء جثث الموتى منهم، ثم تبدأ، من جديد، نوبة حراسة، على ظهر عابرة محيط، تطلق صفاراتها تحية وداع للذين أودعتهم القاعات السحيقة..

لا فائدة من مخادعة النفس: « من ولد في البحر مات فيه ». أنت تعرف هذه الحقيقة، وتخافها، وتهرب منها، لكنك، بقدميك المسحورتين، تمشي إليها.

دع قدميك، إذن، تقودانك، في خبطك المتشرّد، على الخط الفاصل بين الماء واليابسة، ودع ذكرياتك تنثال، ففي الصدر متسع لكل الدموع التي تفيض فلا تصعد إلى العينين.

★ ★ ★

في أثينا المدينة التي عرف سعيد خمارتها، مباغيها، شوارعها القذرة، بأكثر مما عرف آثارها، قاعاتها، مراكزها الرئيسية، كان البحث عن اللذة، عن الضياع، عن ارتواء الجسد، لا ينفصل عن البحث عما هو مساوٍ: الاب، صالح حزوم، والمرأة: كاترين الحلوة. كان ما أن تلقي الباخرة، بين سفرتين، مراسيها، حتى يهبط منها، ويلوب منقباً، سائلاً، محدقاً، لعلّ ذاك الذي غاب يتبّدى له، أو لعلّ خبراً منه يجيء، أو بحّاراً يقول إنه رآه، أو سمع به، أو لعلّ كاترين تظهر، أو زوجها يلوح في مكان ما.

ولقد فقد بموت قاسم وفراق سيّد، رفيقين حبيبين، لم يستطع كل الذين يحملون أفكارهما أن يعوّضوه عنهما. وفي السنوات الأولى كانت الرسائل بينه وبين أهله لا تنقطع، ومنها، ومن زياراته إلى اللاذقية، كان يعرف، ويشهد زواج هذه الاخت، استقلال ذلك الأخ، ويرى إلى العائلة تصغر، حتى لم يبق منها سوى الأم، وهذه في سنوات الإبحار الأخيرة ماتت، وزواجه كان عقيماً، فلم ينجب، بسبب ما أصابه من أمراض جنسية خلال تجواله الطويل، وانتهى به

الأمر الى الطلاق.. هكذا فرغ بيت الأسرة وظلّ مغلقاً فيما هو يبحر حاملاً أساه في نفسه.

أخيراً ترك البحر، قال له، بعد خمسة عشر عاما: «وداعاً!» غادر عالم الماء إلى اليابسة، عاد إلى بيت أسرته، في حي الكاملية، على التخم المطل على المرفأ وهو يقدّر مما سمع، أن أشياء كثيرة تغيّرت في الوطن.

وحين توقفت السيارة أمام بيته العائلي في الأرض المرتفعة التي تطل على المستودعات، نقد السائق أجرته، حمل حقيبته وأشياءه القليلة واتجه إلى البيت. هو يعرف أنه لا أحد فيه، أخته التي كانت تسكنه حين كانت أمه مريضة، غادرته إلى بيتها الزوجي، بذلك خلا البيت تماماً، لا من الناس فقط، بل من الأثاث القليل الذي كان فيه أيضاً. كل من أخوته أخذ ما اعتقد أنه يخصّه من الميراث.. ما تقاسموا وليس ثمة ما يستحق القسمة. سكت بعضهم عن بعض في الحصول على بعض الأغراض، كأنما الأمر تم بالتراضي، وبغير اتفاق مسبق، ما بقي في البيت كان خرباً، عتيقاً، لا نفع فيه. سرير وفراش في غرفة، خزانة مخلّعة، صورة العائلة الحائلة، على جدار غرفة أخرى، بعض الكراسي من القش، دولاب ثياب ذو ثلاثة أدراج فوقها مرآة، وفي المطبخ بضعة صحون، ركوة قهوة، ودست نحاسي أسود من الخارج له أذنان، لم يعد يُستعمل، وغرفة صغيرة كانت للمؤونة انهار

سقفها ولم يعد أحد يلجها خوفاً، حاجز زجاجي بين الغرف الثلاث المتجاورة باستطالة، تحطّم بعض زجاجه ولم يصلحه أحد، بلاط حجري في الفسحة السماوية نمت بينها الأعشاب، دالية شائهة، شجرة درّاق في مسكبة حجرية، والسلّم الحجري المتآكل الموصل إلى السطح.

بحث عن المفتاح المنسي في جيوبه، كان هو الآخر مرمياً مهجوراً في إحداها. فتح الباب ودخل، ألقى بحمله في أرض الدار، لم يستقبله أحد. ما رحّب به مرحّب، صمت. برودة. رطوبة. عنكبوت. غبار. أوساخ، وثلاث عوارض خشبية متكسرة، سمحت للألواح الخشبية فوقها بأن تتدلى، ويتساقط منها التراب والحصى في ما وراء الحاجز الزجاجي. احتار بأمره، يدخل المجاز؟ يدفع الباب الزجاجي الذي لم يبق منه قائماً سوى الإطار؟ يخشى القرف، يقعد فوق حقيبته وهي وحدها نظيفة؟ يدور في البيت بحثاً عن مكان آمن من الدلف، من السقوط، من الريح الباردة التي تهبّ من ناحية البحر؟ يذهب الى المطبخ فيعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة؟ أين القهوة؟ أين السكر؟ أين الكهرباء؟ أين الماء الذي مضى زمن ولم تفتح صنابيره؟ قال في نفسه: «يا للخرابة! يا للمقبرة! لو أرسلت لهم أنني عائد، أما كان تبرّع أحدهم فنظّف البيت قليلاً؟ الحق عليّ، لم أخبر أحداً. حسبوني ضعت كوالدي. يئسوا من عودتي. وصاحب البيت لم يطالب به. أصحابه ورثة، وفي تركيا، لا

يستطيعون بيع البيت، ولم يطالبوا به أصلاً. تركوه ينهار على مهل كرجل عجوز يشيخ، وذات يوم يغور في حفرة فتتساوى من فوقه الأرض. هذا هو المصير المنتظر لهذا المنزل، وهو لا يريد، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً.. عليه أن يتقبّل الواقع، أن ينتقي غرفة سقفها لا ينذر بالسقوط، وينقل السرير إليها، وكذلك الخزانة، حيث يضع حوائجه. وينام إلى أن يبتّ في أمر سكناه، وعمله، وحياته المقبلة.

حزن، حزن، حزن، كل شيء يبعث على الحزن، على الأسى، كل شيء صامت، يطل من مكانه، في السقف، في الجدران، في الزوايا، في أرضية البيت، حاملاً الاكتئاب، بارداً كرأس أفعى، محدقاً بلامبالاة مأتمية. قال في نفسه: «تفرّقت العائلة واأسفاه» لم يبق منها سوى صورة مغبرّة، معنكبة، يبدو فيها والده ووالدته جالسين والأولاد من حولها. هذا هو حين كان صغيراً. الملامح تغيّرت. العتّ أكل الصورة، ثقبها في أكثر من موضع. كانت صورة شمسية. التقطها مصور عجوز، شاخت بدورها مثل كل شيء، ولولا الإطار والزجاج لسقطت وتفتّتت. كان والده يلبس سروالاً بحرياً وطربوشاً، واضعاً يديه على ركبتيه، منتصف الجذع، متيبساً، والأم، في مثل وضعه، متخشّبة، ولولا الذاكرة ما عرف لمن هذه الصورة البالية.

«طيّب، قال في نفسه، هذا هو بيتي، هذا هو بيت الأسرة، وأنا الابن الوحيد، المتشرد الذي رجع بعد غياب،

وترك البيت له وحده، يبتّ في امره حين يعود، عليّ، الآن، أن أشرع بإعداد غرفة للنوم.. بعد ذلك أخرج الى السوق، أشتري خبزاً وجبناً وبناً وسكراً. اشتري زجاجة عرق أيضاً. هذا البيت المهجور ميت. الحياة فارقته منذ زمن بعيد. عليّ أن أبعثها فيه من جديد. غداً أو بعده تترتّب الامور. سيأتي إخوتي وأخواتي لزيارتي. لو سمعوا، هذه اللحظة بعودتي، لتراكضوا إليّ. إنما أنا في المساء، ومن غير المجدي أن أذهب إلى أحد منهم. أتدبر أمري الليلة، وفي الصباح ألقاهم».

بدأ من السرير. رفع الفراش والغطاء، نفض الغبار عنهما، أصلح من حال الوسادة، مسح القوائم الحديدية، وضّب أغراضه في الخزانة، بحث عن مكنسة فوجد واحدة عتيقة، مقرمطة، كنس الأرض، فتح النوافذ، أشعل الضوء. نظر إلى صورته في المرآة، لاحظ أنه هو أيضاً صار عتيقاً، مرّ الزمن على شعره ووجهه وعنقه. سمرته ذاتها. عيونه السود ذاتها. قامته الطويلة. لباسه البحري. كل ما يجعله متميزاً قادماً من سفر بعيد، وسيغدو، غداً في الميناء، في المقاهي، في الحانات، وهناك يرى، يسمع، يتحاور، يفهم الأشياء التي تغيّرت، والتي قد تستغلق عليه بسبب تغيّرها.

أول ما لفته، حين خرج الى السوق، أن الارض التي أمام البيت، وكانت بوراً، في يوم بعيد، أصبحت بناية كبيرة، ذات مخازن من كل جوانبها. قدّر أن تكون هذه

عنابر إضافية للمرفأ، كذلك قامت حوالي البيت بعض البنايات. الشجرة الضخمة لم تتغير. العصافير تتخذها مأوى، وهي تلجأ إليها وتتزاحم على غصونها مزقزقة في أعلى الحي. عند تصالب الشوارع، قام بناء كبير للبريد والبرق، رأى أيضاً، لافتة، لم يقرأ ما فيها، لكنه وجد، أمام السراي، عدة لافتات أيضاً، وكلها تحية للنضال، ورفض للاستعمار، وإسقاط للمشاريع.. كانت هذه أشياء جديدة. وقد اغتبط لأن ما كان يقوله قاسم سراً قد أصبح علناً، مما جعله يتساءل: «هل تحقّق ذلك النضال الطويل الذي ذهب قاسم ضحيته وكيف تحقق؟ ومن حققه؟».

ابتاع حاجاته وعاد. وجد فحماً في كيس ورقيّ من أكياس الأسمنت، أشعل شيئاً منه في منقل صنع لنفسه فنجاناً من القهوة. جلس على حافة السرير. أشعل سيكارة. ترشّف القهوة وشرب السيكارة على مهل. فكّر في الميناء. في البحر، في كاترين الحلوة، وبعد تردّد، كأنه يخشى ذكرياته، انعطف نحو أبيه وأمه، الأم ماتت، لم يودعها، لم يكن إلى جانبها، لكنها ماتت. كما يموت الجميع، وسيموت الجميع، ماتت، لكن الميت الحي هو والده. قال في نفسه: «إذن انقطع الرجاء؟» تذكر أن أحداً من أهله لم يأت على ذكر هذا الأب في رسالته إليه. نسوه؟ تأكدوا من موته؟ جاءهم خبر عن غرقه؟ كاترين الحلوة كتبت إليهم حوله؟ أم أن المسألة كلها إهمال؟ هو لم ينس. لم يهمل. ذلك تواطؤ. محال

أن يتواطأ، محال أن ينسى والده، أن يهمله، ومحال، أيضاً، أن يقتنع أنه مات. غداً سيسأل في الميناء، في المقاهي، في الخمّارات، سيسأل من بقي من قدماء البحّارة وسيسأل عن كاترين أيضاً. سيتفقد شؤون الميناء والبحر. والده وكاترين والبحر. هذا هو الثالوث الذي شغله وسيظل يشغله. قد تكون هناك مفاجأة، قد يسمع أن كاترين عادت، يكفي أن تعود لتصنع له بهجة. لقاؤها وحده يمكن أن يجعل استقراره في المدينة أكثر إمكانية. سيطلب عملاً بغير شك. يبحث عنه في المرفأ أولاً، إنه ابن المرفأ. لكن المرفأ كما أفادت رسائل الأهل إليه، تبدّل، تأمّم، تغيرت الأوضاع فيه، وهو بصفته صديقاً لمن عملوا على تغيير الأوضاع سيكون مقبولاً في المرفأ.

كان في ما ابتاعه من السوق قليل من «البسطرمة» حين فتح غلافها الورقي هتف في نفسه: «اشتقنا والله!» كانت هناك طاولة في المطبخ، بلّل خرقة ومسحها. حملها إلى غرفته، وضعها قرب السرير، فرش عليها جريدة، أتى بكأس وماء، بسط الخبز والجبن، مزج الخمرة كما أيام زمان.. راح يشرب، شاعراً، برغم كآبة الجوّ، أنه في بيته. انتهت غربته. سيعمل في البحر، لكنه لن يغادر المرفأ، سينضم إلى نقابة العمّال فيه. سيروي، في مقهى الميناء لمن بقوا أحياء ممن يعرفهم، عن مغامرة السفر الطويل، النقابة سترحب به، لعله يجد بين قادتها، أعضائها على الأقل،

أولئك المناضلين القدامى، الذين أقسموا امام جثمان قاسم على مواصلة طريقه. «حسناً، هذا هو طريقه. مشوا فيه جيداً. وصلوا إلى الحكم. صار الحكم لهم، أليسوا هم الخميرة؟ وسيّد كيف أحواله الآن؟ لا بدّ أن يكون مسؤولاً هو الآخر. إنه من المناضلين القدامى في مصر. لقد تعذّب.. وصل إلى حبل المشنقة.. الإنكليز كانوا محتلين. كان هو ضدّ الاحتلال. كان ضدّ أرباب العمل والإقطاع. الآن رحل الإنكليز، صار الحكم اشتراكياً كما يقولون، وهو، لهذا، سيكون من أعمدة الحكم الاشتراكي. المثوبة على قدر العمل. سيّد عمل، ناضل، ضحّى، تشرّد.. وإذن فهو يبني الآن، في الظروف الجديدة، ما كان يحلم به في الظروف القديمة.. إذا لم أجد عملاً في اللاذقية فسأذهب إلى الاسكندرية، هناك ألقى سيّد، أكون إلى جانبه، قال لي نحن رفاق، ناداني، حين ودّعني، «يا رفيق» علّمني أن المعركة واحدة، وأن النضال واحد، ومن مرفأ اللاذقية، إلى الاسكندرية إلى مرفأ فراياريسون في تشيلي، إلى مرفأ شنغهاي في الصين، إلى مرفأ اوسكا في اليابان، إلى أوديسا، أثينا، إلى مرسيليا، النضال واحد، والعمّال وحدة، وكل الذين يريدون لوطنهم الخير إخوة..».

سكر حتى انداحت الرؤى بهيجة لعينيه. عتب، أولاً، على نفسه لأنه تأخر في العودة، كان يجب أن يترك البحر منذ سمع أن الحياة تغيّرت في بلده. قد يكون إسهامه في

هذا التغيير بسيطاً، أو لا يذكر أبداً باعتباره لم يتجاوز الأمنية، وظلّ في حدود معرفة المناضلين، ورغبته بالنضال مثلهم، لكنه، على الأقل، دفع ثلاث سنوات من عمره ثمناً للجلاء.. إنه، كما سيّد في مصر، ناضل، بمقدار ما أتاحت له الظروف، ضدّ المحتلين. فرنسا سجنته. هذا جيد. يمكن أن يتباهى بذلك. ما خيّب رجاء والده على كل حال. أبحر وناضل، مهما ضؤل حظه من النجاح، فإنه حاول ونجح. منذ الآن ينبغي أن يعتبر نفسه من العهد الجديد، من حماته وبناته. الأفق أمامه، مفتوح، هو مستعدّ أن يعمل في أية جهة يختارونها له، يقاتل على أيّة جبهة. يموت إذا اقتضى الأمر، لكنه يريد أن يتم كل شيء بسرعة، لهذا سيبدأ صباحاً اكتشاف كل شيء، دراسة كل القضايا، فهم الأمور، استيعابها، وسيكون جيداً وممكناً أيضاً، أن يعمل في البحر، يكون بحاراً، مدنياً، أو عسكرياً، سيقدم خبرته للوطن. خمسة عشر عاماً تجوّل على ظهر السفن، حول العالم، صار قبطاناً لا ريّساً فقط. يقود سفينة لا مركباً فحسب. بلاده سيكون لها أسطول، ستحتاج إلى خبرة أبنائها البحّارة. عمله في البحر كان بمثابة دراسة وتمرين. شهادته من البواخر التي عمل عليها، في حقيبته. سيقدمها إلى المسؤولين في الميناء. يقول لهم: «أنا مستعد لخدمة الوطن، لوضع كل خبرتي تحت تصرفكم» ليطلع النهار فقط، عندئذ سيستقبل يوماً كله نشاط. يذهب الى إخوته وأخواته. يزورهم في

بيوتهم، يقصد الميناء. ينحدر إليها من طريق معصرة بيت نصري. سيتوقف عند هذه المعصرة. هنا كان بيته القديم. في الكهف سكن مع عائلته.. سيقوم بجولة في المنطقة. يرى إلى الكهوف واحداً واحداً. ينحدر إلى البحر، في منطقة المرفأ. يقف على الصخور، يتأمل الحوض، السفن، الشاطئ الرقراق، ويتلفت إلى وراء، أجل هذا ما يجب. يفعل مثله في الأيام الخوالي، لعلّه يرى الصبي الأسود. أين الصبي الأسود الآن؟ عاد إلى افريقيا؟ يقاتل في افريقيا؟ ضدّ من؟ لا شك أنه يفعل، ينتقم لشقاء طفولته. لقد استيقظ على دقات الزمن.. كان يسمع، كل ليلة، ساعة السراي، كان الزمن يدق دقاته ويمضي، وكان هو، الصبي المتشرد، الخادم، النائم على الدرج، يستعجل الزمن يقول له: «امض» وها قد مضى.. الصبي الأسود صار، الآن، رجلاً، وقد تعلم، على هذه الصخور، على درجات السلم الحجرية، أن يبحث عن حقه في أن يكون كسواه، طفلاً وشاباً، وأن يتعلم، وينام على فراش، لا على درج حجري، بينما سيّدته تمتاح لذّتها من أعماق جسدها الشهواني. «حسناً أيها الطفل الأسود، أيها الصبي الأسود، يا شجرة سوداء في غابة طفولة شقية، جاء أوان الإنتقام. احمل السلاح يا فتاي، من العجز ألاّ تحمل السلاح يا فتاي، ولكن اعرف، أولاً، من أنت، ولمن أنت، وضدّ من تقاوم، وفي أي صف تقف، وضدّ أي جهة تطلق. ولن يعيبك أنك لم تتعلم كل شيء في مدرسة. الأزقة مدرسة،

الشواطئ مدرسة، النوم على أدراج الأسياد، والنقمة تنبت برعماً في الصدر، مدرسة أيضاً، وفي الحياة معلِّمون جيّدون، يعلمون مجاناً، تطوعوا لأن يعلموا مجاناً. وحتى لو دفعوا، هم ثمن تعليمهم، يظلّ التكريس بالدعوة إلى النهوض دأبهم، ويظل إيقاظ الناس شاغلهم، ويهبون، بلا مقابل، نوراً للعيون وقمصاناً حمراً للظهور التي حفرت السياط عليها خطوطاً ذات ندوب. أنت أيضاً أيها الفتى الأسود، سيكون لك أصدقاء بينهم قاسم، وسيّد، ومن لا أدري، وهؤلاء سيقولون لك أشياء عجيبة، غريبة، وكلمات لم تسمع بها من قبل، لكنها لطيفة. صعبة ولطيفة. كن في صفّ هؤلاء يا بني، فصفُّهم كبير كبير، يمتد من أول الدنيا إلى آخرها، وفي كل مكان تجد لهم أثراً وحضوراً، وحباً، وأخوة، ومشاركة، ومؤاساة، وستتدرب على أيديهم وتتمرّس من خلالهم، وتعرف من تحب، ولماذا تحب، ومن تكره، ولماذا تكره، وعلى من تحقد، وكيف تحوّل حقدك إلى عمل. إنما احذر، فهؤلاء يبحثون عنك، وأنت تبحث عنهم، لكن اللقاء بهم قد لا يكون سهلاً، ولا سريعاً، وقد تدهشك منهم أفكار لم تألفها، فأنت، في سواد جلدك، تحسب أن بياض الجلد عدوّك، هؤلاء سيقولون لك: «لا، عدوك سيدك، أبيض كان أم أسود، وصديقك رفيقك أبيض كان أم أسود، وأن البدء يكون ضدّ الاجنبي، لا بصفته أجنبياً بل بصفته محتلاً، وضدّ هذا المحتل، وجّه رأس حربتك.. وبعده ضدّ

من يستغلك وضدّ من يظلمك، حتى تبلغ الاستقلال، والعدل، وجماعية الحياة، عملاً وملكاً. إنني، يا فتاي الأسود، قد سمعت كل هذا، بأقوال مختلفة، وصيغ ملونة، وعبارات متنوعة، لكن المضمون هو هذا، وقد ردده بحّارة قدامى، مناضلون، عليّ، بلغات كثيرة، وحركات كثيرة، واحتجت الى ربع عمري حتى فهمته ووعيته.. ولم يبق إلاّ أن أعمل به، وقد أوصاني والدي قبلهم جميعاً، أن أعمل به، وسأحاول.. إنما علتي قلّة صبري، فكن أنت صبوراً، وكن أنت جلوداً، ولعلنا نلتقي يوماً..».

وقال سعيد في نفسه: «آه! لقد اشتط بي الخيال. خرجت عن الموضوع الأساسي. ابتعدت عن الفكرة.. ترى بماذا كنت افكر؟ وإلى أين وصلت، سأشرب كأساً أخرى. هذا مفيد. ما أظن الزجاجة تكفي. عملاق مثلي لا تكفيه ولا دمجانة.. هه، هه.. تذكرت.. كنت أنوي المرور على الكهوف في طريقي إلى الميناء والتعريج على الشاطئ الصخري قبالتها والتلفّت، لعلي أجد الصبي الأسود، أو لعلي أجد عزيزة التي كان رسولها إليّ. لقد ضاعت عزيزة أيضاً. فقدتها كما فقدت كاترين، وقاسم وسيّد. والقبطان ارتورا، وقبل هؤلاء جميعاً والدي: «الأرض بساط وانت بتطوي» هكذا غنى عبدالوهاب للبابور.. لكن القطار الحقيقي هو الزمن، وواحداً بعد آخر يطوينا، يفرّقنا، يباعد بيننا.. غير أن هذا «القطار» لن يطوي والدي، لن يطوي هذا

الرجل، بل رجل الرجال، لن يطويه أبداً.. لن يطويه.. وحتى وهو شيخ، وهو يتوكأ على عصا، وهو يدبّ محدودب الظهر، سيعود كما ذهب، سيظهر كما غاب.. ليس من السهل أن يغرق صالح حزوم ولا أن يضيع ولا أن يموت.. إنه لا يموت.. أنا واثق أنه لم يمت بعد..».

الظهر! استيقظ سعيد ظهراً، حسب نفسه في باخرة. أحس بتأرجح باخرة. لقد ألف ذلك، أحبه، لكنه لا يسمع هديراً، ولا ارتطاماً للموج ولا عصفاً للريح.. إنه في سرير عتيق، تحت غطاء عتيق، وقربه طاولة عتيقة.. عليها كأس.. وزجاجة فارغة، وبقايا بسطرمة ولبنة وزيتون وخبز.. وفي رأسه صداع، والتهاويل اختفت.. الرؤى البهيجة الحماسية، تلاشت، والأفكار اللعينة، من كل نوع، لم يعد يذكر منها شيئاً.. وعليه أن ينهض، لكنه لا يريد النهوض.

تمطّى. فرك صدغيه. تقلّب في فراشه. استعاد صور الأمس: كيف وصل، كيف دخل، كيف وجد البيت، والكآبة التي استولت عليه، والجو المقبري لبيت متهدّم، فارغ، مهجور، خيّم، وتكاثف، ضباباً غشي نفسه إلى أن سكر ونام. لم ير أحلاماً. لم تعذبه الكوابيس. غرق وأغرق نفسه في السكر، نام كالأموات. هنيئاً للأموات.. يناموم ثم لا شيء. ينامون ولا يستيقظون، لكنه هو، سعيد حزوم، العائد بعد غربة خمسة عشر عاماً. استيقظ، ومثل الأمس،

ألفى نفسه مكفناً بقماش أسود، حتى ليحتاج إلى هبّة من سريره ومن شعوره، ومن كل الألوان الرمادية التي تحيط به.

الماء. الماء البارد. ليس سواه في هذا البيت. سفّة[١] من كزبراء يابسة، مسحوقة، كانت دواء للخمار، لكن الملح، ههنا، مفقود، فأين يجد الكزبراء؟ أبقى رأسه تحت صنبور الماء حتى استشعر البرودة تخترق قشرة الرأس إلى الدماغ. صار الماء، الآن، أحب شيء إليه. السنوات الطوال في البحر، جعلت منه حيواناً مائياً. مؤسف أنه لا يستطيع أن يسكب الماء على نفسه، وهو في كامل ثيابه. هكذا يستعيد ليالي العواصف، حين نوبات الحراسة تحت المطر ورذاذ البحر، لكم سيعاني في عيشه على اليابسة بعد اليوم!

ارتدى الثياب نفسها التي عاد بها. ترك كل شيء كما كان البارحة. هو يحفظ في صندوق تحفه، ثياب والده القديمة. ارتداها يوماً مباهاة وتحدياً. من يباهي الآن؟ من يتحدّى؟ ثياب البحر، بكل ما لحق بها خلال السفر، كافية، فالمهم أن يخرج، ويرى، ويسمع، ويسترجع بعض ما كان، وبعض من يعرف.

انحدر إلى الميناء من طريق مستودع التبغ. وجد كل شيء كما كان. سوى أن مشرباً بحرياً يحمل اسم «القطة

---

(١) سف الشيء: القى مسحوقه في فمه، كما تقول العامة.

السوداء » قد افتتح على الرصيف المقابل لمستودع التبغ. قال في نفسه: « هذا ما كان ينقص مرفأنا. إنه أول علامات التغيير، لا بأس أن أبدأ به، ففي جوّه أعيش أجواء بحرية فقدتها. » لكنه استوحش ما أن دخله. كان « البار » فارغاً، وصاحبه يجلس إلى طاولة قرب النافذة، ويتأمل البحر. ألقى التحية، وتفرّس في صاحب الحانة، محاولاً تذكر هذا الوجه، لم يعرّفه بنفسه. ما وجد حاجة لذلك. الخمّار لم يعرفه. لم يكترث حتى لدخوله. وبتكاسل، نهض وأتاه بزجاجة بيرة مبردة. كانت الحانة كما يبدو من همود الأشياء، في طريق الإفلاس، فالمرفأ الجديد، لم يبلغ أن يبدّل الحياة الأجتماعية في المدينة القديمة..

كانت وسط الخمّارة طاولة كبيرة، عليها باخرة بحجم ضخم، مزينة بالأنوار الكهربائية كأنها في البحر، وفي ليلة رأس السنة. نهض سعيد، بعد أن عبّ الزجاجة وطلب أخرى، فطاف حول الباخرة، وأعجب بمهارة صانعها، ونقر بإصبعه على خشبها ليتبين صلابته. سأل:

- هل صانع هذه الباخرة اروادي؟

قال الخمّار:

- احسب ذلك.. لكنني لا أعرف اسمه.. (أضاف:) إنها كبيرة ورائعة، اليس كذلك؟ لن تجد لها مثيلاً في اللاذقية كلها، وفي أرواد أيضاً.

رجع سعيد إلى طاولته، شرب نصف زجاجة البيرة دفعة واحدة، ومن الزجاجة مباشرة كما يفعل البحّارة. ظلّ واقفاً. ثم التفت الى الباخرة وراح يحدّق فيها وسأل:

- هل هي للبيع؟

قال الخمّار ضجراً:

- هي من أثاث هذا البار في الأصل.. هل تتصور باراً بحرياً دون أشياء بحرية؟ إنني أبيعها مع «البار» كله..

- أريدها وحدها!

- لا أبيع..

- أدفع لك ثمناً جيداً..

قام الخمّار ودار حول الباخرة. رمقها بحب، بشغف كما ينظر رجل الى امرأة. وأطرق مفكراً..

قال سعيد:

- إذا كنت تحرص عليها فبعها لي.. إنني بحّار كما ترى.. وسأعتني بها جيداً. يمكنك أن تأتي إليّ وتراها حين ترغب..

- لكن «البار».. فكّر أنت.. كيف يصبح جوّه دونها..؟

- أفهم! أفهم! قال سعيد.. ألم تكن بحّاراً أنت أيضاً؟

- بلى كنت.. تغرّبت كثيراً.. جمعت بعض المال وعدت.. اعتزمت، وأنا مسافر، أن أكون إلى جوار البحر، أن أفتح باراً للبحّارة.. ولكن تأمل.. نفذت فكرتي ولم ينجح المشروع..

- أرى كل شيء.. أنا أيضاً فكرت بمشروع كهذا.. لكنني، الآن، غيّرت رأيي.. سأفتح باراً.. في بيتي.. سيكون باراً خاصاً، فأنا أعيش وحيداً. وأحب أن تكون هذه الباخرة، إذا قررت بيعها، من نصيبي.

قال الخمّار مساوماً:

- كم تدفع بها؟
- وأنت كم تطلب بها؟

ساد الصمت هنيهة، فكّر الخمّار: ولماذا لا أبيع هذا البار جزءاً جزءاً؟ الأفضل لي أن أعمل بقالاً.. البقالة في مدينتنا أكثر رواجاً.. عندما فتحت هذا البار كنت خيالياً أكثر مما يجب.. أردت نقل جوّ مرسيليا إلى اللاذقية».

قال:

- قبلت بيع هذه الباخرة لسببين: أولهما أن المحل على وشك الإفلاس كما ترى، وثانيهما أنت بحّار، وستعرف قيمة باخرة كهذه ما دمت بحّاراً.. ادفع ٥٠٠ ليرة وخذها..

طلب سعيد زجاجة بيرة ثالثة. رقّ قلبه لزميله. أخذه إشفاق عليه. كان المبلغ كبيراً آنذاك. كانت الليرة، في أواخر الستينات، تساوي قيمتها.. ومع ذلك قرر سعيد دفع المبلغ، وعدم المساومة.. رفض استغلال أزمة زميل له.

بعد أيام كان قد فرغ من زيارة إخوته واستقبالهم انصرف لترتيب منزله، لكن الانهيارت، في صفوف الغرف

والمطبخ وغرفة المؤونة أقنعته ألاّ فائدة، وما عرفه من أمور الميناء والمدينة أقنعه، أيضاً ألاّ فائدة، فاكتفى بشراء قاعدة لباخرته، وجاء بخطاط كتب على جانبيها اسم: «كاترين الحلوة» بخط كبير، ووسط الغرفة التي ينام فيها، قبالة سريره تماماً رست الباخرة على القاعدة، موصولة بالتيار الكهربائي، حيث راح يشعلها في الليل، ويسهر، متأملاً كل قطعة فيها، مناجياً باخرته، كاترينه، كأنها حقيقة لا شكّ فيها، كأنها باخرة وامرأة في آن.

ويوماً بعد يوم، كانت المدينة، في التغيرات التي طرأت عليها، تسدّ دروبها في وجهه.. نقابة عمّال الميناء، قابلت طلبه للعمل في المرفأ ببرود، لم يعرف أحداً من أعضاء مجلسها التنفيذي. لم يقابل رئيسها ولا مرة. وقال له عامل قديم، تذكّره: «اشرح في عريضتك انك كنت تعمل في المرفأ قبل كذا سنة، وأنك، في ذلك الزمن، ناضلت لإنشاء النقابة، ووقفت ضد فرنسا، وسجنت، وأنك بحّار ابن بحّار، ومن حقك أن تعمل في الميناء». فعل سعيد كل ذلك، قابل بعض المسؤولين في النقابة. ذكر لهم الظروف القديمة الشاقة، لكن الذين قابلهم، لم يظهروا أيّة حماسة. بدا سعيد وحكايته عن الماضي كشيئين قديمين، وأن ما يقوله موضع شك ويحتاج إلى إثبات، وأنهم لا يجهلون ذلك الماضي فقط، بل يضعونه جانباً. ويحتاجون في الظروف الجديدة الى مواصفات جديدة: شهادة حسن سلوك، لا حكم عليه، موافقة جهات

مختصة، وقبول إحدى الفرق العاملة في الميناء أن تضمّه إليها، أو عليه أن يعمل محاصصة.

وقال علي البحّار: صاحب الخمّارة، وهو يصغي إلى قصته: «لا تتعب يا سعيد.. مررت قبلك الطريق نفسها. سألوني الأسئلة ذاتها. طلبوا مني كل ما طلبوه منك من أوراق، وفي النهاية ضاعت المعاملة.. »قال سعيد محتداً: «ولكن هذا لا يجوز.. نحن نقابيّون قبلهم.. هذه ليست معاملة عامل لعامل.».

قصد بعد ذلك رئيس الميناء، قدم له الشهادات البحرية التي يحملها. القى رئيس الميناء نظرة على الشهادات وقال:

- هذه تحتاج إلى ترجمة عند ترجمان محلّف، وإلى تصديق..

ترجم سعيد الشهادات. صدّقها حسب الأصول، وقدّمها مع طلب للعمل في البحر، مشفوعاً بالعبارة التقليدية: «ولكم الامر سيدي». ومن جديد، خرج من مديرية الميناء بورقة عليها بيان بالأوراق الثبوتية المطلوبة، وقدّم الاوراق الثبوتية، لكن دون جدوى.

ستة شهور تصرمت وسعيد عاطل عن العمل. في النهار يدور في الشوارع. يغشى الحانات، يجلس في المقاهي، يسمع قصصاً كثيرة، وفي الليل يعود الى وكره الخرب، الى بيته المتهدم، وسؤال يعذبه: «هل أنا قليل الحظ، أم أن الأمور على غير ما يرام». وقال له الخمار علي، الذي صار بقالاً

الآن،وهما يسكران قبالة «كاترين الحلوة»: «ما أظن المسألة تتعلق بالحظ.. هناك خطأ ما، في مكان ما. ولا بدّ من إصلاحه: «ومن يصلحه؟» «تسألني أنا..؟ لو كنت فهلوياً ما تركت البحر وعدت.. أنا رجل على نيّاتي.. لكن الناس، حين كنت خمّاراً، كانوا يقولون هذا..».

البطالة خلال الشهور الستة، التهمت اكثر ما ادخر سعيد، فقال في نفسه: «سيّد، قبل أن نفترق، أعطاني عنوانه. لم يكن عنوانه هو، كان عنواناً يوصل إليه.. كنت أحسب أنه صار مسؤولاً في مصر. هذا ما دفعني للكتابة إليه. إذا كان لي أن أنفذ وصية والدي، في أن أكون بحّاراً ومناضلاً، فالنضال، الى جانب سيّد، يحلو كما كان الإبحار إلى جانبه، يحلو أيضاً.. كتبت إليه، كتبت ثانية.. لم أتلق جواباً. ما هم.. سيّد مشغول بأمور الدولة، قلت في نفسي، كتبت إليه مرة ثالثة، لا جواب.. وأخيراً، وصل خبر منه، وصل بحّار من عنده، من اسكندرية. سأل عني في الميناء، في المقاهي، وكذلك في الخمّارات. وأخيراً اهتدى إلى بيتي.. جاء إلى هنا.. كان شاباً اسمر، مليحاً، ربع القامة، في إحدى عينيه حول خفيف. سلّم، قال إنه يحمل إليّ إمارة.. ما هي؟ القبطان ارتورا.. سيّد اعطاه اسم القبطان، كي أثق به، واعلم أنه آت من عنده. تشرفنا.. أهلاً بالأخ. بالزميل، يا رائحة سيّد.. كيف حاله الآن؟ ماذا يعمل؟ بأيّة مسؤولية ينهض؟ سألت.. تدفقت بالأسئلة، جلسنا معاً

في بيتي، شربنا.. قلت للبحّار عبدالرحيم: «تكلم.. قل كل شيء..» وابتسم عبدالرحيم.. قال، بغير مقدمات «سيّد في السجن، وآخر مرة قابلته كانت قبل مجيئي إليك، وقبل ترحيله إلى سجن الواحات.. إنه يهديك السلام. يسأل عنك.. يقول لك لا بأس. كل شدة تزول.. اطمئن.. ناضل.. لا تَنْسَ ما قاله لك، ولا نصيحته الأخيرة إليك..» صعقت.. سيّد في السجن إذن؟ بدل أن يكون في ميدان التحرير، ينزل في سجن الواحات؟ قال عبدالرحيم: «هذا هو الواقع.. إنه سجين، ومعه سجناء آخرون.. قلت: «الذي أعرفه أن سيّد اشتراكي» قال:« هو كذلك، وكان مؤمناً بالاشتراكية طوال حياته. لكن الأمور تبدو مقلوبة» قلت: «هل وقف سيّد بعد عودته ضدّ الحركة الجديدة؟» قال: «كلا، كان معها..» سألت: «وإذن؟ كيف يكون معها ويسجن؟» قال: «هكذا.. لا يريدونه معها.» لم أفهم.. دائماً يستغلق عليّ الفهم.. وعبدالرحيم بحّار مثلي، لا يعرف أكثر مما أعرف، وهو أيضاً، لا يفهم، ويبحث عن فهم.. عدت أسأله: «ماذا تعمل؟» أجاب: «لا شيء.. جئت إلى هنا أبحث عن عمل.. لقد رفضت كل طلبات العمل التي تقدمت بها في الاسكندرية.. لم تمنحني الجهات المختصة موافقتها، مع أنني معها، مع الحركة، مع العهد، ضدّ فاروق، ضدّ حزب الوفد، ضدّ الرجعية، وضدّ بريطانيا قبل كل شيء، ومع العمّال، ومع بناء حركة عمّالية صحيحة، مع

بناء طبقة عمّالية واعية.. تؤيد الحكم الجديد، وتشارك في حلّ الصعاب معه..»

تحدثا تلك الليلة، إلى الصباح، شربا، تأملاّ الباخرة، وكاترين الحلوة، والحياة، ثم أقرض سعيد زميله بعض المال، وفي اليوم التالي سافر.. كان يحمل جوازاً وقد سافر إلى «بلاد بره» بانتظار الفرج في مصر.

ظلّ سعيد بعد هذا الحادث، ثلاثة ايام مضرباً عن الخروج من البيت. قال في نفسه: «الآن فهمت لماذا رفضوني أنا أيضاً.. لو كان والدي لرفضوه.. من الخير أنني لست في السجن مثل سيّد. عليّ أن أعرف كما قال قاسم، ان النضال بعد خروج فرنسا، يتخذ اتجاهاً آخر.. هذا ما حدث فعلاً.. ناضلنا حتى خرجت فرنسا، فجاء بعدها الإقطاع والبورجوازية.. راح الإقطاع.. صدر قانون الإصلاح الزراعي. صدر قرار تأميم المعامل، لكن المسألة ظلّت عالقة.. أين؟ لا أدري.. سقى الله أيام والدي، كانت الأمور بسيطة، واضحة: أنت ضدّ الاتراك؟ إذن أنت وطني، أنت ضدّ فرنسا؟ إذن أنت وطني! أنت مع فلسطين؟ إذن أنت وطني وعربي.. الآن تعقدت الأمور. تعقدت كثيراً.. مع من يجب أن يقف الإنسان؟ سيّد وقف مع الحكم الوطني في مصر، فرفض موقفه.. أنا عرضت خدماتي، فرفض عرضي.. ماذا عليّ أن أفعل؟ أبقى عاطلاً؟ ومن أين أعيش؟ أذهب ثانية للبحث عن والدي؟ ماذا تقولين يا

كاترين؟ نحن هنا وحدنا.. ونستطيع أن نتكلم بصوت خفيض.. بل نتكلم بلا صوت.. نتناجى.. آه أيتها الحبيبة، ما أقسى المناجاة من طرف واحد!

ذهب، في اليوم التالي، إلى الكازينو، مدفوعاً بفضول لا يقاوم، لرؤية الأشياء على الطبيعة.. كان محدثو النعمة في قلب الصالة، والملاكون القدامى في زاويتها. كانوا يجتمعون، في حلقات ضيقة، بعد أن أصبحوا جنرالات بغير جنود. أثرياء بغير ثروة. إقطاعيين دون أرض.. لكنهم كانوا يدارون أمورهم جيداً، وقد رآهم سعيد، على الوضع نفسه الذي كانوا عليه يوم دخل الكازينو لأول مرة بعد عودته. لقد دخلها، يومذاك، من باب الفضول أيضاً. فقد قيل له إنها صارت مفتوحة للجميع الآن. وفعلاً التقى فيها وجوهاً جديدة، سعيدة، تلعب، تشرب، ترقص، وتنفق بيسر. أما الوجوه القديمة فقد كشّت، تعنقدت، تقلّصت والتفّت على بعضها مثل أوراق خضراء عرّضتها لحرارة النار. تذكّر فوراً ذلك المرفأ في الشرق الأقصى، والفتاة، والجوهرات المخفّية وراء جدار مكلس، وقصة الخاتم الذي في إصبعه.. هناك لم يقطع الذين خسروا السلطة الأمل من ربحها مجدداً. هنا أيضاً لا يقطعون الأمل.. يختبئون في جلودهم.. ينتظرون الفرصة، أما الأملاك فقد دبروا أمرها. وزّعوها، منذ شموا رائحة الإصلاح، على أولادهم وأحفادهم، ومجوهراتهم طمروها، وأموالهم صارت في

الخارج.. هم وحدهم، بأجسادهم المتهدمة، بغيبوباتهم، بتجاعيدهم، بأيديهم المرتجفة، المتوكئة على عصي فضية القبضة، بقوا في المدينة. لقد نزع سلاحهم. السلطة، في إصدارها قوانين الإصلاح والتأميم، نزعت، كما حسبت، قوتهم المالية، وهذه كل سلاحهم. إذن لم يعد ثمة خطر منهم، ليجلسوا في الكازينو ما شاءوا، وليثرثروا ما طاب لهم. أما إذا ظهر منهم فعل، حركة، تجمُّع، فعندئذ يحاسبون على فعلتهم بقدر حجمها.

وكانت ثرثرة هؤلاء «المعزولين» «المجرّدين» من الأملاك، لا تنقطع. بعضهم ينتقد، بعضهم يشتم، بعضهم يعلن يأسه، والبعض الرابع يعلن:

- انتهى الأمر.. لا بدّ من الهجرة.. ما رأيك يا خليل بك؟

قال خليل ناهض، وكان ملاكاً وصاحب معمل سابقاً:

- لا رأي لي..
- كيف؟ كنت سيّد من تكلم بيننا.. أنت تحمل شهادة حقوق، وعملت ديبلوماسياً، وتعرف أكثر مما نعرف فلماذا لا تقول شيئاً؟.
- لأن أوان الكلام لم يأت بعد..
- لا أحد غريب بيننا كما تعرف..
- ليس هذا ما يحملني على السكوت.. لكن من عادتي ألاّ أشمّر بنطلوني قبل الوصول إلى النهر..
- ومتى تفعل ذلك.. متى تشمّره؟

- في الوقت المناسب..
- لن يأتي هذا الوقت.. فاتنا القطار..
- لن يأتي بالشكل السابق، ولن تعود أملاكنا بالصورة التي كنّا نملكها.. تغيّرت الظروف. العودة من الأبواب صارت مستحيلة.. لكن هناك نوافذ..
- نعود من النوافذ؟
- حين كنت ديبلوماسياً.. سألني أحد السفراء: أخرجتم فرنسا من الباب.. هذا واقع لا جدال فيه، ولكن من يمنعها من العودة من النوافذ؟

اسم فرنسا وحده أشاع الحمية في الجالسين. تحسّنت فيهم الدورة الدموية التي تخرّبت بحكم العمر، قال واحد منهم:
- هذا لن يكون.. فرنسا لن ترجع من الباب ولا من النافذة..

قال خليل ناهض، وقد استقام في كرسيه، وقبض على عصاه الفضية:

- فرنسا؟ لا.. ولكن هناك دول غيرها.. بريطانيا مثلاً..
- كيف؟ بأيّة صورة..؟
- لا تخافوا.. الصور كثيرة، والأشكال كثيرة.. والمشاريع موجودة دائماً..
- بريطانيا طردت من مصر كما طردت فرنسا من سوريا.. فاتتك دقة الملاحظة هذه المرة يا خليل بك..

قال خليل ناهض:

- وأميركا؟ من الخمسينات وهي تتحدث عن ملء الفراغ.

- تحتل سورية؟

- لا حاجة للاحتلال.. هذه موضة قديمة.. الاستعمار، بشكله القديم، إلى زوال.. هناك الاستعمار الجديد.. الاقتصادي والمصرفي..

- ونحن؟ نحن ماذا سيصير فينا؟ سأل صاحب معمل للصابون أمّمته السلطة.

- وكيف التعامل المصرفي بعد اليوم؟ جميع العمليات حصرت بالبنك المركزي. قال أرمني بدين، يدعى أرتين، كان صاحب مصرف خاص..

انكفأ خليل ناهض بظهره إلى مقعد الفوتيه، تكوّم حتى أصبح كرة لحمية آدمية، رافضاً أن يستجرّ، في مكان عام كهذا، إلى قول كل شيء، ثم هناك المصالح الخاصة، مشاريعه للمستقبل.. وهو لا يريد أن يكشفها لغيره، اكتفى بوضع عصاه عرضانياً على ركبتيه، وقال في نفسه: «يا لكم من أغبياء! التجار أكثر الناس غباء. حتى الملاك أوفر ذكاء من التاجر.. يريدون أن يستعيدوا كل شيء غداً.. هنا الغباوة.. الشغل يكون على الموجة الطويلة.. الوقوف في وجه التيار تيسنة.. ما زال التيار في أول اندفاعه.. في هذه الحال الصبر جميل.. جميل جداً..

عاد الأرمني صاحب المصرف يقول بتأكيد:

- أنا سأهاجر.. لا خبز لي بعد اليوم في سورية. كل ما سمعته كلام فارغ.. مع احترامي لكلام خليل بك.

تنهّد هذا. قال في نفسه: «أرتين بك ليس إلاّ ثوراً دون ذَنَب.. يهاجر..؟ حسناً يفعل.. هذه فكرة طيبة.. لكن إلى أين؟ «إلى مصر.. أقربائي في مصر هاجروا إلى فرنسا وسويسرا.. نحن لدينا بيروت.. لنا لبنان أدام الله جواره ونعمته» سأل:

- لماذا، يا مسيو آرتين، لا تفتح فرعاً لك في بيروت وتبقى أنت في اللاذقية، بانتظار الظروف؟ لك ابن شاب، أليس كذلك، القضية محلولة.. افتح مصرفاً صغيراً، دكان صرافة في البدء لابنك، وأقم أنت هنا، قلت لك الأحوال لن تستمر هكذا طويلاً..
- والقوانين؟
- لا قانون إلاّ وله تأويل، تفسير، لعبة ما تعطّله.. (قالها وتلفّت حواليه) وأضاف في ذاته: «ذهبنا بعيداً.. إذا لم أمسك لساني رحت في داهية»

قال أرتين:

- هذا معقول جانم[1] ابني في بيروت.. لدي هناك ما اشتغل به. بدأت الشغل أصلاً.. ولكن هنا.. أين المرابح

---

(١) جانم كلمة تركية تعني يا روحي.

التي كنت أحصل عليها من حسم الكمبيالات للتجار والمزارعين؟.. كنت ألعب بالذهب لعباً..

قال صاحب نكتة بينهم:

- العب الآن بالفضة يا أرتين..

وأكمل آخر:

- أو بالليرات السورية..

قال أرتين وقد راقته النكتة:

- أم الحصان «بشقة[1]».

ومال خليل ناهض إلى الكلام:

- كله واحد.. كل نقد يمكن تحويله إلى نقد آخر.. كل تجارة يمكن قلبها إلى تجارة أخرى.. خذوا المرفأ مثلاً.. ما رأيكم بالوكالات البحرية؟ هذه تلائم أبناءكم تماماً.. راح معمل الصابون؟ طيب.. ماذا يفيد البكاء عليه.. نفتح وكالة لإحدى شركات الصابون الخارجية.. كنّا صناعيين نصبح وكلاء.. أخذ الإصلاح الزراعي بعض أراضينا؟ نعتني بالباقي.. الباقي مروي وهو الأفضل.. أما أولادنا إذا أرادوا أن يصبحوا مزارعين كباراً، فيمكن أن يستأجروا الأراضي التي وزعت على الفلاحين..

شاع الرضى في الجميع. وقال أرتين الصرّاف:

- خوش[2] افوكاتو[3] أنت يا مسيو خليل.. أفكار حلوة،

(١) (٢) (٣) كلمات تركية وفرنسية تعني: غير، جيدّ، محامٍ

صحيحة..

لكن إقطاعياً شرهاً، أصلع، قصير الرقبة بينهم اعترض:

- الفلاحون، يا اخوان، لا يؤجرون أراضيهم!

قال خليل ناهض:

- من قال هذا؟ وماذا يفعل الفلاح بقطعة أرض سليخ؟ ثم هناك أملاك الدولة.. استأجروا واستصلحوا.. المسألة الزراعية معقدة أكثر مما تظنون.. تفتيت الأرض خطوة، لكنها تظلّ ناقصة.. تحتاج إلى خطوة أخرى.. إلى تعاونية زراعية كما يقول الاقتصاد.. تشغيل المعمل المؤمم سهل، إنشاء معمل جديد ممكن أيضاً لكن إدارة الانتاج، الخبرة، التسويق، القطاع الخاص موجود، وأنتم موجودون. اعملوا في تسويق الانتاج المؤمم.. هذا باب طيب للربح.. التجارة الداخلية حرّة.. فماذا يضيركم إذا انتج المعمل ووزّع التاجر؟

عاد الاقطاعي السابق الشره إلى الكلام:

- وماذا لو أنشأوا تعاونيات زراعية يا خليل بك؟ تكلم قليلاً عن المسألة الزراعية من فضلك. أفدنا من هذا الذي درسته.. ماذا تسميه؟

- الإقتصاد السياسي..

- ها... الاقتصاد الشيطاني.. دعونا من السياسة.. هل تقوم تعاونيات زراعية للفلاحين؟

- ولماذا أنت خائف..؟

- وأنت.. تريد أن تقول إنك مرتاح؟

- أنا أتفرج على اللعبة.. في أوربا كان يحلو لي أن أتفرج على «الروليت» اكثر مما ألعب بها.. حتى القراءة عن الروليت مسلية.. اللعنة على هذا الكازينو العتيق.. ما ضرّه، أيام العز، لو كان فيه روليت؟

قاطعه:

- لكنك تملّصت من الجواب على سؤالي: تصير تعاونيات زراعية أم لا؟

- وماذا يهمك أنت منها؟

- أريد أن اطمئن إلى أن الزراعة، الأرض، الإنتاج، سيعود إلينا..

- ليس بهذه السرعة.. قيام التعاونية الزراعية يحتاج إلى زمن طويل.. إلى خبرة طويلة.. إلى إقناع الفلاحين.. إلى مكننة الزراعة.. وهذا ليس سهلاً..

- أنت تسوى ذهباً يا خليل بك..

- من يسمعك يظن أن أيامنا ستعود..

قال خليل ناهض:

- ليس إلى هذا الحد.. كل شيء يتوقف على حسن التصرف.. إذا تصرفوا جيداً نجحوا..

- وعندئذ؟ تدور الدائرة علينا نهائياً..

- كلا.

- كيف؟ صاحوا بأكثر من صوت..

قال خليل ناهض:

- افترضوا أننا شجرة..

- نحن فعلاً شجرة.. نحن أشجار.. نحن أصحاب هذا البلد..

- فهمت.. فهمت.. هذا الكلام قولوه لغيري.. أنا أعرف من أنتم، وأعرف من أنا.. ومن هم أصحاب البلد الحقيقيون.. قلت لكم.. افترضوا أننا شجرة..

- وبعد؟

- ما فعلوه، حتى الآن، هو قطع غصون هذه الشجرة.. وأنتم تعرفون أن الغصون تفرّع من جديد، وتورق وتثمر..

- إن شاء الله.. إن شاء الله..

- لكن ليس على الصورة القديمة.. الغصون تحتاج إلى تطعيم هذه المرة..

- سأل الاقطاعي الشره:

- وإذا قطعوها من جديد؟

قال خليل ناهض:

- تفرّع من جديد..

- إذن لا خطر..

هزّ برأسه هزة العارف بالأمور وقال كمن يلفظ حكماً:

- بلى.. هناك خطر.. إذا اقتلعوا الشجرة من الجذور..

- يستطيعون؟

فكرّ وقال:

- هذا يتوقف على تطورات الأمور.. ما يلزمنا هو الصبر.. الصبر فقط..

فرغ سعيد من شرب زجاجة البيرة وهو يراقب كل ما حوله: أصحاب النعمة الجديدة، والذين زالت نعمتهم.. لقد امتلأ غيظاً مما رأى، فعاد إلى بيته وحاصر فيه. قال في نفسه: «الصبر يا سعيد، الصبر.. لديك بعض الزجاجات بعد، ولديك بسطرمه وزيتون ولبنه.. أنت تعيش على «النواشف» وهذه حال العزاب، والمطلقين، والذين لا أهل لهم.. فكّر، خلال هذا الوقت، ماذا ستعمل.. البحر في مدينتك، ليس لك، البحر ليس للشعب، أيضاً، وليس للمدينة، كان البحر للجميع، يوم كان الجميع، في المنشية، في البطرنة، في العصافيري، يتنزهون، يسبحون، يدخنون النراكيل، ويفترشون البسط على الصخور ومعهم طعامهم، الآن صار البحر بعيداً.. صار هناك، في الشاطئ الازرق.. أما أنا فلدي بحري، وباخرتي، وكاترييني.. ماذا تقولين يا كاترين؟ أين أنت الآن؟ ما هي قضيتك؟ أنا أيضاً كان لي قضية، والدي، وقاسم وسيّد، وعلي، والقبطان ارتورا، كل منهم له قضية.. بعضنا تعقدت قضيته، بعضنا ضاعت، وبعضنا أضاع حياته، أنا من هؤلاء الذين ضاعت حياتهم.. أنا منبوذ يا كاترين، مبعد، أعيش في وطني، ولكني أعيش في غربة.. هناك في المحيطات، لم أحس هذا الإحساس

المؤلم.. قال لي سيّد: «إننا من نسل عقرب مائي، كان أول حيوان زحف إلى اليابسة» لم أصدق. قرأت أننا من نسل قرد، قال سيّد: «القرد كان من نسل عقرب ثم تطوّر، ومنه تطوّرنا نحن.»

سألته: «ومن أخبرك بذلك؟ قال: «البحّار الانكليزي جيمس» قلت: «ومن أين عرف هذا الميكانيكي المشحم ذلك؟» قال سيّد: «اسكت يا سعيد.. لا تستهن بجيمس.. إنه عالم بحار» «نعيماً!.. عالم بحار ويشتغل ميكانيكي.. لا اصدّق»، «صدّق.. قال أيضاً إن في البحر وحوشاً مخيفة، وأشباحاً طائرة، وإن التيارات الجوفية قد تكون على عمق ألفين أو ثلاثة آلاف متر.. وإن في الأعماق شجر نخيل، وأسماكاً شراعية تبلغ سرعتها ٨٠ كيلومتراً في الساعة، وهناك سمك عيونه في أذياله، وأشياء غريبة نجهلها، ونحن، البحّارة والصيادين، وحتى علماء البحار، ما زلنا نعرف القليل عن البحر، نحن صيادون لأسماكه أكثر من أن نكون حاصدين لخيراته.. وإن الإنسان، في المستقبل، قد يتوصّل إلى فلاحة أرض البحر مثل اليابسة.. لكن ذلك لن يكون إلاّ عندما يبدأ غزو الإنسان للبحر» قلت لسيّد: «هذا الميكانيكي دجّال كبير.. يضحك عليك؟ عدم المؤاخذة، وأنت تصغي وتصدق.. بل أنت لا تصدّق، ولكنك مهووس بالمعرفة، بالحكايات، بالأخبار الغريبة.. اسأله، إذا أردت عن عرائس البحر، هل هي حقيقية؟» قال سيّد: «سألته..

أجابني: «لا أدري.. ربما.. بعضهم يؤكد وبعضهم ينفي».

فكّر سعيد في هذا الذي سمعه من سيّد وقال في نفسه: «ما دام جيمس يعرف كل هذه الأشياء عن البحر، فقد كان عليه أن يعرف حقيقة عرائس البحر أيضاً.. إنه لا يؤكد وجود هذه العرائس، مع أنني، أنا بالذات، كنت أراها يوم كنت شاباً.. هل كان ذلك وهماً..؟ هل خدعني بصري؟ وأنت يا كاترين، يا حلوتي إذا لم تكوني عروسة بحر، فما أنت؟ جنية، ساحرة، سحرتني وانتهى الأمر؟».

منذ ذلك اليوم، وبسبب الارهاق والتوتر النفسي، راح سعيد يتخيّل أنه مسحور، وأن كاترين هي التي سحرته، وأنه مريض بذلك، ومرضه سيقوده إلى الجنون...

وشيئاً فشيئاً تطوّرت أزمته النفسية، تعقّدت، تفرّعت، بعثت الخوف من الجنون في نفسه، فراح طوال أيامه، يتساءل: «ماذا أفعل؟ أعرض نفسي على طبيب؟ وماذا يفعل الطبيب؟ وماذا يقول الناس؟ مجنون؟»

الآن أدرك الخسارة في عدم الإنجاب.. لو كان له زوجة، ولد، لو كان والده إلى جانبه، لو لم تمت أمه.. اعتراه عصاب.. سيطرت فكرة الجنون عليه.. توسوس.. كبر وسواسه، تشعّب، صار وسواساً قهرياً.. كبته في نفسه.. ضاعف الكبت من حدّته، ضاعف البيت الخرب المهجور من وسواسه.. بكى! ويوماً بعد يوم جفاه النوم، وراح

يهزل، وتبرق عيناه بقلق غريب.. وعبثاً، طوال سنتين، استطاع الثبات في عمل.. فتح بقالية وأقفلها، عمل سائق تكسي وترك العمل، وأخيراً استبدّ به كره للجميع، لأخوته وأخواتـه.. لجيرانـه، لأهل الحي. للمينـاء، للمقاهي، للكازينو، وتصور أن عدم الموافقة على عمله في البحر يعود إلى سبب سياسي، وأنه مراقب لذلك، وأن عليه ألاّ يتكلم مع أحد.. تصوّر الجميع أعداءه، وتصوّر أن كاترين عدوته أيضاً، وأنها خانته، وفضلت ذلك اليوناني عليه.

وذات ليلة شرب حتى سكر، حتى انقلبت الباخرة إلى امرأة، إلى كاترين حقيقية أمامه، فانقض عليها، وراح يهوي بقبضته على أخشابها، حتى حطّمها، وعندئذ خيّل إليه أنه ارتكب جريمة، وأنهم سيقتلونه بسببها، وربما شنقوه.. وفقد عقله من الخوف، ففتح الباب وراح يركض في الشارع وهو يصيح: «لم أقتلها!. لم أقتلها!».

نقل سعيد، بعد هذا الانفجار النفسي، إلى مستشفى دير الصليب للأمراض العصبية. تمركزت أزمته حول الخوف. انقلب الوسواس القهري، إلى وسواس عدواني، صار يهاجم، يضرب، يحاول الاعتداء، حتى على أقرب الناس إليه، مدفوعـاً بشعور مَرَضي، يخيّـل إليـه معه، أن الآخرين يهاجمونه. وسيضربونه، ويعتدون عليه، ويودعونه السجن.

الطبيب خالد أشرف على علاجه، استمع إلى أخيه

الذي حمله إلى الدير. روى هذا حياة المريض، طفولته، شبابه، غربته، عودته، إقامته في البيت العائلي المهجور، إخفاقه في الحصول على عمل في المرفأ أو البحر، إدمانه الشرب، انقطاعه عن زيارة إخوته وأخواته، رغبته المحبطة في الإبحار ثانية، عزلته التامة التي أدّت به إلى الانفجار، محاولته تحطيم الباخرة التي تحمل اسم «كاترين الحلوة»، وجود امرأة حقيقيـة بهذا الاسم، كانت له بها علاقة، تزوجت وهاجرت إلى اليونان.

اكتفى الطبيب بهذه المعلومات الاولية، وأجّل فحصه، سريرياً وتحليلياً، إلى ما بعد زوال النوبة العصبية.. أعطاه بعض الحبوب المهدئة، وأقراصاً منومة، ووضعه في غرفة انفراديـة، ومنـع زيارته، إلى أن تبدأ النوبة بالزوال تدريجياً.. لم يقل ما هو نوع المرض. سأل فقط، عما إذا كان سعيد قد أصيب بأمراض جنسية وأهمها «الزهري»، واكتفى بتطمين أخيه بالشفاء، ما دامت الأزمة انفجرت انفجاراً.. ولم تأخذ شكلاً تدريجياً، ينم عن فقدان إحدى القوى العقلية.

بعد أيام زالت النوبة.. رجع سعيد هادئاً، واهناً. خجولاً، يتذكر ما مرّ معه، ويسأل: «من الذي أتى بي إلى هنا؟» قال له الطبيب كل شيء، وابتسم محاولاً إقامة علاقة من التعارف، والصداقة والثقة بينهما. كان أول ما طلبه سعيد أن يعود إلى البيت، قال له الطبيب:

- ليس الآن:.. سترجع ولكن ليس الآن.
- متى يا دكتور؟
- هذا متوقّف عليك.. إذا تذكرت جيداً، وقلت كل شيء بصراحة، ووثقت بي.. سأخرجك من الغرفة الانفرادية. أسمح لك بالاختلاط بالآخرين.. أنقلك إلى غرفة تشرف عليها الراهبات. أسمح لك بالقراءة، وباستقبال الزائرين.. لا تخف.. لست مريضاً عقلياً.. هذه مجرد أزمة.. تحتاج إلى بعض التحاليل للدم والبول.. وإلى قياس الضغط..
- تقول إن ما مر معي مجرد أزمة نفسية؟
- هذا رأيي الأولي.. استجابتك للدواء جيّدة.. نومك جيد.. ذاكرتك معافاة.. لا خلل أساسياً معطل، غداً نبدأ الجلسة الاولى.. نبدأها كصديقين.. تقول لي كل شيء.. لا تخفي عني شيئاً.. موافق؟

في الجلسة الاولى كانت النتائج إيجابية، سرد سعيد كل تاريخه الحياتي، منذ وعى الوجود إلى غرق والده، وبحثه عنه، وعلاقته الجنسية بكاترين الحلوة، التي كانت قبلاً عشيقة والده وسفره الطويل في البحر، وإصابته بالزهري.. وقد توقف الطبيب عند هذه الإصابة لكن الفحص أثبت أن الشفاء كان تاماً، بقيت عقدتان: شعور بالذنب، ترسّب في الاعماق، بسبب خيانته لوالده مع كاترين الحلوة، والمزج التام بين البحر وكاترين هذه، في

صورة واحدة.. كاترين هي البحر، والبحر هو كاترين، والباخرة كانت رمز الاثنين.. كتب الطبيب في تقريره ما يلي: «من عوامل الشفاء اللقاء بكاترين، أو العودة إلى البحر» وإلى أن يسافر في البحر ثانية، ضرورة الانتقال من المنزل العائلي المهجور».

بعد أسبوعين، كان سعيد في غرفة واحدة، في الطابق الأول المشرف على الحديقة، مع مريض آخر يدعى وليد ناهض. كان هذا خريج قسم الفلسفة، وقد أدمن على المهدئات، وكانت لجسمه قابلية التآلف السريع مع الدواء، حتى أنه اضطر خلال دراسته، إلى تناول أكثر أنواع الأدوية المهدئة، وما أن يعتاد الجسم دواء منها حتى يهرع إلى غيره، ثم زاد الكمية دون استشارة طبيب، وجاء اليوم الذي فقدت فيه المهدئات تأثيرها، وفقد وليد القدرة على الهدوء، على تمالك الجأش، على النوم، وحمله أهله إلى دير الصليب.. وكان، مصادفة، من اللاذقية أيضاً، وقال لهما الطبيب وقد جمعهما في مكتبه: «كلاكما في طريق الشفاء.. بل أنتما سليمان الآن، ولكن لا بأس بفترة نقاهة.. باب غرفتكما سيظل مفتوحاً. اخرجا، تنزها، تصرّفا بحرية كاملة.. أنتما من بلد واحد، ولكما ذكريات مشتركة، وحنين مشترك إلى البلد.. لنقم بتجربة.. اسكنا معاً، وسنرى النتيجة».

نجحت التجربة، زاد من نجاحها، ورسخه، أن سعيد ووليد كانا من أفكار متقاربة.. هكذا أصبحا، في فترة وجيزة، صديقين. كان وليد، على شغفه بالفلسفة، واطلاعه الواسع، عشوراً، محباً للحياة الاجتماعية، معنياً بالبحث الاجتماعي، وكان يقرأ الصحف كل يوم، يسمع الاخبار ويظهر اهتماماً كبيراً بما يجري في العالم، وخاصة في وطنه.. وببساطة سأله سعيد، برغبة في توثيق العلاقة معه:

هل أنت حزبي؟ أعني من السلطة؟

قال وليد:

- لست حزبياً بمعنى الانتساب.. أنا نصير.. صديق.. اشتراكي إذا اردت الحقيقة، من عائلة ميسورة..

قصّ عليه، بعد ذلك، كيف اشترك في المظاهرات ضدّ فرنسا، وكيف التقى المناضلين، وعرفهم وصادقهم، وقال إنه كان من لجنة الطلاب في تجهيز اللاذقية، قبل أن ينتقل إلى اليسوعية في بيروت، وبعدها إلى السوربون في فرنسا.. وقد تابع نشاطه، في القراءة والكتابة، لكن «أعصابي خانتني يا سعيد، جهازي العصبي سيّئ جداً.. في بطني مستودع للمهدئات، القلق والأرق يلازمانني.. إنني مريض ولست مريضاً.. عمي حملني إلى هذا المستشفى، فالطبيب خالد صديقه..»

ثم سأله فجأة:

- تعرف عمي خليل ناهض.. إنه من اللاذقية أيضاً، معروف ومشهور.. درس الحقوق، ولم يمارس المحاماة. محب للعلم. ملاك وصاحب معمل.. لكنه، الآن، يعيش على ذكريات الماضي، ويكتفي بحقن الذين صودرت املاكهم وأممت معاملهم بالتفاؤل.. بالأمل.. بالتأكيد على أن أشياءهم ستعود إليهم.

تذكر سعيد حلقة خليل ناهض في الكازينو، وما سمعه عن الأخطاء والسلبيات، عن التصرفات الطائشة، عن الرشوة والمحسوبية والويسكي.. عن بعض الحماقات الناجمة عن غنى محدث، وقال في نفسه: «متى ينتهي كل هذا؟ ومتى تصلح هذه الأمور؟»

ومضت في نفسه فكرة: «ما دام وليد من الاشتراكيين، من الذين يعرفون أكثر مني، فلماذا لا أسأله عن رأيه فيما يقوله عمه خليل ناهض هذا؟»

سأل:

- ما رأيك أنت يا أستاذ وليد؟ هل ما يقوله عمك عن عودة الأملاك إلى أصحابها صحيح.. تراها تعود إليهم؟

قال وليد:

- من يدري.. إذا لم يجر تصحيح الأمور، فإن الأخطاء تتطلب أثمانها.

- أنت متفق مع عمك إذن؟
- نحن الاثنين متفقان في المنطق الحقوقي.. في أهمية الفلسفة (عفواً أنا لا أريد أن أتفلسف) ومختلفان في قضية الاشتراكيّة، عمي غني، لكن والدي متوسط الحال، الفلسفة تقول: لا شيء يكون من عدم.. هذه فكرة صعبة؟ طيب لنبسطها.. حين تزرع نبتة زنبق، تعرف أنها ستعطيك شجيرة زنبق.. هذه لا تحتاج إلى شطارة.. عمي يقول لأصحابه: «السلطة تزرع عليّقاً، وستحصد عليّقاً أيضاً.» لم تفهم؟ أبسط المسألة أكثر.. عمي يقول.. السلطة قطعت غصون الشجرة.. أنت تعلم (ولكن هل كنت بستانياً يوماً)؟ لا؟ لا بأس.. قطع الغصون يقال له التقليم.. هذا لا يضر الشجرة بل يقويها.. تعود الشجرة، بعد ذلك، أقوى.. تعطي إنتاجاً أفضل.. من هنا تفاؤل عمي.. قطع غصون الشجرة يفيدها.. عندنا، في الإصلاح والتأميم، اكتفوا بقطع غصون الشجرة.. وهذه الشجرة ستفرّع من جديد.. فهمت؟ هذه ليست فلسفة.. الخلاصة: «إذا أردت ألاّ تفرّع الشجرة من جديد، عليك باقتلاعها». هذا هو رأي عمي..

- ولماذا لا يقتلعونها؟
- هه.. هذا سؤال جيد.. السؤال الجيد يعطي جواباً جيداً.. هذا معروف في مهنة الصحافة.. أنت سألت الآن

سؤالاً جيداً، وسأعطيك جواباً بالجودة نفسها: لا بدّ من الإصلاح، وبعده يمكن تجذير الأشياء، ولكن، يا صديقي، انظر! حان وقت أخذ الحبة المهدئة.. وأنت؟ ألا تأخذ حبوبك؟ هنا يعالجونني على قاعدة العدّ التنازلي.. ساشرح لك: كنت أتناول ثماني حبات مهدئة في اليوم.. أنقصها الطبيب، في الأسبوع الأول، إلى سبع في اليوم، ثم إلى ست، وهكذا.. الآن صرت آخذ حبة واحدة.. لكنها ضرورية.. إسمح لي أن أتناولها، ثم نعود إلى الحديث..

كان وليد ناهض نحيلاً، طويلاً، يتجمّع شعره الخرنوبي في مقدمة رأسه كشعر القبرة، وله، في خديه، شبه أخدودين لحميين، كأنما شاخ قبل الأوان.. وفي سمرته شيء ما جذاب، وبريق عينيه بريق مَرَضي، وهو يتكلم واقفاً، ويأتي بحركات كثيرة من يديه، فيتقدم من محدثه ويتراجع، يفكّر، يندفع، ينحني عليه، كأنه باشق ينقض، وذلك حين يريد أن ينطق بجملة حاسمة.. كان يقرأ وهو في المستشفى كثيراً، يخفي الكتب عن الطبيب. يبعث من يشتريها له، يطلبها من عمه، ويروح، بعد قراءتها يدور في الغرفة، مفكّراً، متكلّماً مع نفسه، بصوت غير مسموع. كانت حرب حزيران، وهزيمتها، وتعقد الأشياء، واختلاط الآراء، يزعجه جداً، يقول في نفسه: «إنهم يكذبون.. العرب لم يحاربوا في حزيران، وبعضهم لن يحارب لا في حزيران ولا بعده.. إذا

قويت حركة التحرر العربية ازداد التقدم الاجتماعي ، هذا خطر على الرجعية.. لذلك لا تريده، ومن أجله تهادن اسرائيل. تتواطأ مع أمريكا ، لكّنها تموّه نفسها ، تقول شيئاً وتعمل شيئاً آخر.. »

وذات ليلة، داس على كتاب كان يقرأه.. صاح مقهوراً: «كذب! هذا كذب! » كان الكتاب لأحد اساتذة الجامعة الاميركية ، يقول فيه: «نحن بحاجة إلى أمر واحد ، هو أن نتصالح مع أنفسنا حتى ندرك انفسنا » قال وليد في نفسه: «إلى الجحيم يا دكتور ، أنت وفلسفتك كلها ، وأمثالك كلهم.. إنك تكذب.. نحن لسنا على خصام مع أنفسنا.. نحن على انسجام كامل معها.. ما نحتاجه هو عدم الصلح مع النفس وليس العكس.. عدم الترهل ، والبلادة ، والحاجة إلى قهر شعور الاغتراب، إلى الاندماج الاجتماعي، الانتماء الوطني ، المشاركة في النضال.. الأمور ليست معقدة إلى الحد الذي تتصوره.. أنت تزيد في تعقيدها.. أنت وأمثالك تريدون تيئيس الناس.. إقناعهم أننا أمام قوة لا قدرة لنا على مواجهتها.. وأننا نتخبط.. لا.. لدينا بوصلتنا.. المناضلون الحقيقيون لديهم بوصلتهم.. السفن في البحر.. »

فتح سعيد عينيه وسأل:

– ماذا عن البحر يا أستاذ وليد..؟

انتبه هذا إلى أنه ليس وحيداً في الغرفة ، فاستدار إلى

سعيد وقال:

- كنت أفكر بصوت عال.. هذا كل شيء..

- ولكنك قلت: البحر!

- قلت إن السفن في البحر، تهتدي بالبوصلة.. أليس هذا صحيحاً؟

قال سعيد:

- هذا صحيح تماماً، السفينة، دون بوصلة، تضيع..

- إذن لماذا لا تتكلم؟.. كنت ساكتاً طوال الوقت.. ثم..

أطبق سعيد عينيه راغباً عن الحوار. لم تكن له قدرة، وهو تحت وطأة المهدئات، أن يجادل.. كان في الفترة الاولى لاجتماعهما في غرفة واحدة، يصغي ولا يتكلم.. كان النوم يغلب عليه ووليد يتكلم، وحين يفيض هذا في كلامه، وتشتد حماسته، ويوغل في تعابيره الغريبة على سعيد، كان يكتشف أنه يلقي خطبته على نفسه.. وهذا ما كان يزعجه حتى أنه اشتكى إلى الطبيب، طالباً تغيير زميله في الغرفة، لكن الطبيب، الذي كان يزور مريضه هذا، ويصغي إلى ابتكاراته الفكرية، واشتقاقاته التعبيرية، أفهم وليد أن وجود سعيد معه مفيد لكليهما، ذلك أن سعيد في طور الخدر الآن، ولا يزعج وليداً في شيء، ثم إنه بحاجة إلى المراقبة، وأن ملاحظات وليد، حول تصرفات سعيد، وأقواله، وحكاياته، مفيدة في العلاج، وكان بذلك يحاول الإيحاء إلى وليد أنه ليس مريضاً، وأنه يساعد في المعالجة، وهذا، من

وجهة علم النفس، الذي هو جزء من دراساته الفلسفية والاجتماعية، إسهام في مساعدة الطبيب على معالجة سعيد نفسه..

- لكنه لا يتكلم.. هذا الأبله، لا يفهم، ولا يتكلم.. وشأني معه، كمن ينفخ بالوناً مثقوباً..

- سيتغير الحال.. نحن نخفف الحبوب المسكنة القوية تدريجياً، وعندما تزول حالة الخدر، ستجد متعة كبيرة يا وليد في وجودك مع هذا المريض، إنه بحّار، وقد طاف الدنيا، وقطع المحيطات، ولديه حكايات وأخبار مسلية، وستفيدك في أبحاثك الاجتماعية.

إلاّ أن سعيد، رغم الحبوب المهدئة القوية، لم يكن غائباً كلياً. كان يرى، يسمع، يفهم، غير قادر على مباشرة الحوار بصورة نشطة.. كان يقول في نفسه: «أنا مثل الافعى الكبيرة التي رأيتها في حديقة الحيوان في الشرق الأقصى، كانت الأفعى تمد لسانها، تنضنض بنصلتيه، تفتح عينيها، لكنها كانت، بفعل المخدر، عاجزة عن الحركة، وهذا ما أتاح لي، أنا عدوّ الافاعي، قاتلها والمرتعد خوفاً منها، أن أراقبها بهدوء، أن أتلبث عند كل لون في جلدها المبرقع، وفي رأسها المفلطح، وذنبها وبطنها» كانت تلك لذّة مبهمة، فيها برودة وسخونة معاً، فيها اطمئنان تمازجه قشعريرة خوف لاأرادية يستشعرها سعيد، مثل حاله الآن. إنه يسمع

وليد ناهض، يسمعه جيداً، قال في نفسه: « هذا خلق ليكون ممثلاً لا فيلسوفاً » فتنته فيه الليونة في الجسد، كأنما هو من هواة الجمباز، ولأمر، ما، في ذاكرته بطيئة العرض، استعاد صورة الفتاة في المرفأ التشيلي.. كان وليد يلتهب بحمى الكلام على الأوضاع في البلاد العربية، على ظروف المجتمع العربي، على الشجرة التي لم تقتلع في البلاد العربية التقدمية، واكتفاء الحكام بتقليم غصونها.. وكان ينقلب من الضحك إلى الوجوم، وفي لفتاته الفجائية، شيء غير عادي، ذكّره بالقبطان ارتورا، فقال سعيد في نفسه: « مثل هؤلاء يجعلون الحياة ملونة وهم يتحدثون عنها.. أنا أفضل ارتورا المجنون على جيمس، الميكانيكي، وأفضل وليد المريض على أي سليم خارج هذا المستشفى ».

وكما وعد الطبيب، تناقص تدريجياً عدد الحبوب التي يتناولها سعيد، فصار شروده أقل، وتباعدت نوبات الصفن، وانفتحت، يوماً بعد يوم، شهيته للكلام، للحديث على والده، وكاترين، والبحر، والسفر الطويل، وشيئاً فشيئاً اكتشف وليد في زميله المريض «كنزاً من الحكايات العجيبة » الحكايات التي عرف، ببراعة الباحث الاجتماعي، أن يستخرجها ويستدرجها ويسعد بها سعادة كبرى. وراح سعيد، بانشراح المكبوت نفسياً، يروي كل شيء عن ماضيه. يتحدّث عنه بلذة، بمهارة، بحب، مستشعراً أنه ينفّس عن صدر مضغوط، عن ذكريات يريحه أن يقولها ويشرك

الآخرين فيها، ويرى إلى وقعها في نفوسهم.. ولزم وليد الصمت التام. وحتى عندما كان يُستثار، كان يعبّر عن استثارته بالحركة لا بالصوت، يقفز من مكانه، يذهب ويجيء، يضع يديه في جيبه، يتسمّر قبالة سعيد ويحدّق فيه بعينين يشع منهما ذكاء مدخول بشيء مبهم، تعبر عنه غرابة أطوار كالتي في القبطان ارتورا. وليد أيضاً، وبشكل بالغ، عنته قصة كاترين الحلوة العجيبة التي عنت ارتورا على الباخرة. سأل:

- أنت يا سعيد، كبحّار ابن بحّار، كإنسان سافر في كل المحيطات، تؤمن بشيء اسمه عروس البحر؟

قال سعيد:

- جيمس البحّار الذي يعرف كل شيء عن البحر، قال إنه لا يجزم بوجودها..

- هذا يجعلني أعيد النظر في كثير من معتقداتي عن كائنات الوجود..

- مثل ماذا؟

- مثل الخرافة والاسطورة وحكايات الصيادين..

- وما السبب، في ذلك؟

- لأن هناك عالماً ما زال مجهولاً، ستثبته الرياضيات..

لم يفهم سعيد ما قال زميله. لكنه لم يسأل.. خوف الجاهل أمام العالم كان يتملكه. هو. سعيد، لا يعرف، ولا يتطلع، إلى أكثر من الحياة المعاشة، بمفاهيمها البسيطة. وقد

بل بشكله الامبريالي، الاقتصادي والمصرفي والثقافي أيضاً.

يقول أشياء تبدو معقدة ألف مرة قياساً إلى أشياء صديقيه القديمين.

الشيء المشترك بينهما كان الموقف الوطني والاجتماعي. كان وليد يريد أن يبدو اشتراكياً متطرِّفاً، بسبب من جزعه البورجوازي.. ومثل سعيد كان قليل الصبر، يتمنى، ولو ضحّى بنفسه، أن تحدث الأشياء بسرعة، أن ينقلب العالم، أن يكتسح سيل طوفاني كل الحواجز المعوقة، وبعد ذلك، حين يجرف الماء الهادر معه كل بقايا الماضي، يصفو هذا الماء، يشف، يتلون، وتغدو الحياة حلوة، جميلة، زاهية، لهذا ارتفع قدر سعيد في نظره، حين علم منه أن والده ناضل ضدّ الاتراك، والفرنسيين، وأنه قاوم بالسلاح، في اسكندرونة. وفي سبيل إنقاذ البحّارة وعائلاتهم من الجوع غامر بحياته. لهذا قال وليد في نوبة خشوع، ونبرة احترام مسرحية:

- إنني أنحني أمام ذكرى والدك.. أنحني لا كما يفعل راهب بوذي، ينشد السلام السماوي، بل كما يفعل مناضل ينشد العدالة على الأرض.. هنا (وضرب وجه الكومودينة الموضوعة بين السريرين) على الأرض، لا في السماء، يجب أن نبحث عن العدل، ونعمل له، ونجده.. والخطوة الأولى هي الخلاص من الاستعمار، لا بشكله الكولونيالي،

حسب أن كلام قاسم، وبعده سيّد، غاية ما يمكن أن يسمع من غريب القول، لكن هذا، المريض الذي.درس الفلسفة،

فغر سعيد فاهه دهشة. صارت لديه كلمات كثيرة لا يفهمها ولا يسأل عنها، لأنه على ثقة أنه لن يفهمها أبداً. ما معنى إثبات العالم المجهول بالرياضيات،؟ وما هو الشكل الكولونيالي للاستعمار؟ وما هي الامبريالية الاقتصادية المصرفية الثقافية؟ «أرحني يا وليد، قال في نفسه.. تكلّم بالعربي، أنا لم أدخل الجامعة، ولا التجهيز، ولا قدرة لي على فهم الفلسفة.. أنا بحّار، كلّمني بلغة البحّارة، بلغة الريّاس، والزكرتية، وتوفيق الخمّار.. أو على الأقل بلغة قاسم وسيّد وعبد الرحيم الذي يحب الاشتراكية، ويهاجر من مصر لأنه يحبها».

قال وليد:

– تعرف ما هي المشكلة الآن؟

أجاب سعيد بكثير من الأدب:

– ما هي؟

– عدم الرجوع إلى وراء.. الاستيلاء على موقع أسهل من الحفاظ عليه.. هذه هي القاعدة.. لا بدّ من الحذر والانتباه.

– الحذر ممن؟

– من الرجعية، من الامبريالية والصهيونية.

قال سعيد في نفسه: «هذه كلمات جديدة أيضاً»

أضاف وليد:

- لا بدّ من إتمام الخطوة..

- كيف؟.

- بتعميق النضال.. بالفهم العلمي للنضال..

تساءل سعيد..: «الفهم العلمي؟» بدا محتاراً، وعندئذ انبرى وليد للإيضاح:

- الفهم العلمي يعني أن نسترشد بالنظرية العلمية..

- وكيف نفعل ذلك..؟

حدّق فيه وليد مشفقاً.. راغباً أن يشرح نفسه، لكن الكلمات الملائمة لفهم سعيد لا تطاوعه. وبعد تفكير قال:

- المسألة صعبة يا سعيد.. إذا أردت أن أشرح لك ما أقول أحتاج إلى وقت طويل.. طويل جداً.

- يعني هناك خطر؟ وعلى ماذا؟

- الخطر موجود.. ليس هنا المسألة.. القضية، بكلمات بسيطة، هي كالآتي: النجاح الكامل يتوقف على تطوّر حركة التحرر الوطني العربية، وتطوّر هذه الحركة مرتبط بتطوّر البروليتاريا العربية، التي هي، مثل حركة التحرر، في طور التكون..

وقال سعيد في نفسه: «هذه كلمة جديدة أيضاً.. البروليتاريا.. أين سمعت هذه الكلمة؟ ربما سمعتها من قاسم او سيّد.. سمعتها ولم أعرف معناها بالضبط، فهمت منها أنها تعني العمّال»

ثم قال بصوت مسموع محاولاً المشاركة، وإثبات أنه يفهم:

- لدينا الآن نقابات للعمّال.. أليس هذا جيداً.. قاسم مات وهو يناضل لأجل نقابة لعمّال المرفأ.

ارتفع منسوب الحماسة عند وليد. محدثه ليس كامل الغباء إذن. قال:

- برافو سعيد.. قبل جلاء فرنسا، كان الصراع بين العمّال والإقطاع والبورجوازية من جهة، وبين فرنسا من جهة ثانية.. وكانت الحركة العمّالية أساس هذا الصراع، كان لها مصلحة في جلاء المستعمر.... صراع التحرر الوطني صراع طبقي أيضاً.. فهمت؟

قال سعيد:

- ليس كثيراً.. اشرح لي بهدوء من فضلك..

توجّه وليد إلى النافذة وفتحها. هبّت منها نسمة باردة منعشة. كان يفكّر كيف يشرح نفسه لهذا الزميل العزيز الذي غرق والده لأجل البحّارة.

سأل:

- تعرف لماذا قتلوا قاسم؟
- خافوا من نشاطه بين عمّال وبحّارة المرفأ..؟
- نعم.. كانوا يريدونه معهم. في حزبهم.. حزب الكتلة الوطنية، يريدونه معهم ضد فرنسا ويخافونه. ولهذا قتلوه.. حسبوا حساب المستقبل.. حين تخرج فرنسا،

قالوا في سرّهم، نكون وحدنا في الميدان، واذا لم تخرج، وحكمنا بواسطتها، بالتواطؤ معها، لا تكون هناك قوة تحاسبنا وتفضحنا..

- وبعد..؟
- خرجت فرنسا فجاء الإقطاع إلى السلطة ومعه بورجوازية هجينة..

- ماذا تعني كلمة هجينة من فضلك؟
- تعني ليست كاملة، ليست أصيلة؟ ليست كما في أوربا مثلاً..
- ثم ماذا؟
- تحالفت البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة ضدّ الإقطاع والبورجوازية الكبيرة..

- هذا جيد!
- نعم جيد.. الإصلاح الزراعي، تأميم المعامل.. الأشياء الأخرى التي حدثت أو التي ستحدث..

- ثم ماذا؟
- ينبغي عدم الوقوف في منتصف الطريق..
- والنتيجة؟
- قرأت الأدبيات الاشتراكية؟
- لم أقرأ القصص البوليسية.. لكنني سمعت أشياء كثيرة عن النضال..

- أعـذرك لقلـة قراءتـك، لكنك، فيما يبدو لي، تفهم الأوليات، وهذا يكفي لبحّار مناضل..
- هذه كلمات طيبة جداً.. بودّي لو أفهم وأفهم.. لكن تعقيدات الأشياء، سرعة الأحداث.. كيف أقول؟
- اسمع إذن.. سورية معروفة بنضالها الوطني والثوري. لقد كانت أول بلد استقل، وأول بلد قامت فيها ثورة حاولت تغيير العلاقات الاجتماعية، أو أنها في الطريق إلى ذلك، ولهذا فإنهم لن يغفروا لها هذا.. إن صمودها في وجه الرجعية والاستعمار، وإسرائيل، يجلب لها عداءً شرساً، شرساً إلى أبعد الحدود..
- وما العمل؟
- العمل؟.. العمل..؟ لا أعرف تماماً.. على المناضلين أن يتّحدوا.. على القوى الوطنية أن تصبح كتلة واحدة..
- يا ليت يتم ذلك بسرعة!
- هـل تعرف بيـت شوقي المشهور: «وما نيل المطالب بالتمني؟»
- ومن هو شوقي؟
- ألم تسمع أغنية «يا جارة الوادي؟»
- طبعاً، وأحبها أيضاً.. شوقي هو الذي نظمها؟
- شوقي..

في هذه اللحظة دخل الطبيب. كان يعود وليد، كان مهتماً به جداً، ومنذ دخوله لاحظ أنه في حالة هياج،

واستنتج أنه كان يتحدث في أمور فكرية، نهاه عنها مؤقتاً. وكان سعيد قد أرهق نفسه بمتابعة ما يقوله وليد، فراح يتثاءب، وتبدو عليه أعراض اضطراب عصبي مفاجئ، وعندئذ أدرك الطبيب ضرورة نقل سعيد من الغرفة وحقنه فوراً بإبرة مهدئة، كي ينام ويتجنب الانتكاسة، وقال في نفسه: «لقد أخطأت.. وليد يحمل العاقل على الجنون» لكن هذا رجا الطبيب أن يبقيه معه، ووعد أن يبعده عن الأمور الجدية، وأن يمتنع، هو نفسه، عن التفكير بالفلسفة والقضايا الاجتماعية.

مضت أيام وكل شيء على ما يرام. تحدّث سعيد عن البحر، وما سمعه من سيّد عن مخلوقاته، وأسماكه، ووحوشه، وعن القبطان ارتورا، وروى قصة المرأة الشبقة، التي ضاجعت كل من في الباخرة، ولم ترض، وقال إنه، إذا ما شفي قريباً، سيعاود البحث عن أبيه..

قال وليد:

- لو لم يقع الحادث معك بالذات، وكان صالح حزوم والدك، لقلت إن قصته أسطورة ليس إلاّ..
- هذا غير ممكن..
- لماذا؟
- لأن والدي كان رجلاً طبيعياً.. بحّاراً معروف الأصل والفصل..

- وأين تراه ذهب؟
- لست أدري.. أنا من يسأل هذا السؤال..
- وماذا يقول الآخرون؟
- إنه غرق.. حتى أهلي باتوا على يقين أنه مات منذ زمن بعيد..
- وأنت؟
- أنا لا أصدق أن والدي يغرق أو يموت، ولهذا أبحث عنه..
-أرغب لو عاد، بالتعرّف عليه، أنا أقدّر المناضلين القدامى، هؤلاء الذين وضعوا الأساس..
- تراه، لو عاد، يفهم كل ما يجري هذه الأيام؟
- ما رأيك أنت؟..
- ما أظن.. أنا نفسي لا أفهم.. كانت الأمور، زمن والدي، واضحة.. اللعنة على كل هذا التعقيد!

ضحك وليد وهو يريح يديه في جيبي بنطاله ويدور في الغرفة. كان في ذاته، يعرف أن ثمة تعقيداً كثيراً، لكنه، كباحث اجتماعي، يرى الأمور السياسية واضحة كالأمور الاجتماعية، قال:

- تذكر ما قلته لك قبل أيام..؟ أنا لن أعيده عليك، انسه إذا شئت، لأنك ستسمعه كثيراً في المستقبل، إذا لم تكن قد سمعته أو قرأته في الصحف حتى الآن، المسألة هكذا: بريطانيا حاولت ، بعد الحرب العالمية الثانية، أن تحل

محل فرنسا، فشلت الدولتان معاً، فحلّت مكانهما، في المنطقة، أميركا، ليس بوجودها العسكري المباشر حتى الآن، بل عن طريق إسرائيل. إسرائيل يا سعيد، استعمار استيطاني توسّعي عدواني، ونحن، العرب، نقاومها، أي نقاوم أمريكا.. عدوتنا الكبرى والأساسية، هل فهمت؟

- تماماً..

- إذن المعركة صعبة.. صعبة وطويلة، بطول عمر الرجعية العربية التي تتواطأ مع أميركا.. أما إسرائيل التي تحتل فلسطين، وترغب في احتلال البلاد العربية، فهي عدوّنا المباشر، وقضية فلسطين قضية العرب المباشرة.. وما لم ننتصر هنا فلن ننتصر أبداً.. أما التعقيد الذي تلعنه فلن نبلغ شيئاً في لعنه. الأفضل محاولة فهمه.. مجتمعنا العربي في حالة صراع، في حالة انتقال، ولا بدّ من المواجهة والكفاح، وهذا الكفاح يحتاج إلى نَفَس طويل، إلى صبر، وهو ما أفتقده أنا...

قال سعيد معترفاً وقد أحس بدوار مفاجئ:

- وأنا أيضاً..

قال وليد..

- يقولون إن معركتنا بتحديث مجتمعنا. هذا صحيح، لكن التحديث لا يكون باستيراد المواد الاستهلاكية. أو التكنولوجيا، بل بالعلم، بالكفاح، بالتصنيع والمقاومة.

ابنِ معملا تخطُ خطوة باتجاه الحضارة. أقم تعاونية زراعية، تتقدم شبراً إلى الأمام، افتح جامعة، تحرز نقلة نحو المستقبل.. ولكن افعل كل ذلك وأنت تقاتل.. القتال أيضاً حضارة. حين يكون ضدّ الذين يريدون هدم الحضارة.. و

صاح سعيد، وقد توتّر فجأة:

- يكفي يا أستاذ وليد.. يكفي.. لم أعد أفهم شيئاً.. أحسّ بالاختناق.. أنت مثل كاترين الحلوة تريد قتلي.. أنت.. (وقفز عن السرير مهتاجاً، وكانت نوبة الانتكاسة واضحة هذه المرة..).

منذ ذلك اليوم، افترق المريضان. حزم الطبيب أمره. نقل سعيد إلى غرفة أخرى، وبعد أيام غادر وليد دير الصليب، ولم ير أحدهما الآخر، لكن سعيد، حين زالت النوبة، وأذن الطبيب بخروجه، كان يأمل أن يلتقي صديقه في اللاذقية، وهذا ما لم يحدث، فنصيحة الطبيب كانت: «العودة إلى البحر» وتنفيذاً لها عاد سعيد للعمل على ظهر باخرة عابرة للقارات..

دام ذلك سنتين، رجع بعدهما سعيد إلى الوطن، وعمل في المرفأ، لكن الطبيب، الذي ذهب لاستشارته، وإجراء بعض الفحوص لديه، نصحه بالابتعاد عن اللاذقية، فغادرها إلى دمشق، وهناك عمل منقذاً ومدرباً في أحد المسابح،

وفيه تعرّف إلى أصحابه الذين رافقوه اليوم إلى طرطوس، والذين، بعد العشاء، تركهم نياماً في خيامهم وراح يتشرّد على طول الشاطئ، قاصداً تلك السيّدة التي قالت له: «بيتي، على البحر، بيتك.. في الشتاء يقفر الشاطئ، نعود نحن المصطافين، إلى المدينة.. نخاف الريح والموج والعاصفة. تبقى البيوت فارغة، مهجورة، وتستطيع، أنت، أن تقيم.. أن تشعل المدفأة، وتجلب المعلبات، وزجاجات النبيذ، وتجاور البحر، وتتحداه كما تريد، أو تتعبده كما تريد أيضاً».

وعلى طول الشاطئ، من طرطوس إلى اللاذقية، ظلّ سعيد يسير. قرر أن يفعلها وفعلها، نام في بانياس ليلة، وفي جبلة ليلة، لكنه صمم على السير، ليقول للبحر كل شيء، وليسمع منه كل شيء، في أعقاب تلك المسابقة المجنونة مع الفتى تحت الماء، التي لم يخسرها، لكنه لم يربحها أيضاً، وخرج بعدها منهوك القوى، فانطرح كشلو على الرمل، مدركاً، لأول مرة، أنه انتهى كبحّار، وأنه لن يسابق بعد اليوم، ولن تظهر له عروس البحر أبداً.

- ٧ -

كان قصر السيدة من طابقين، على الشاطئ الشمالي الغربي للاذقية. ولم يكن قصراً حقيقياً، لكن سعيد، حباً بصاحبته، ومدفوعاً بما قرأ من قصص، سمّاه قصراً، وأطلق على صاحبته اسم «سيدة القصر» وحين بلغه أخيراً، وتسلّم مفتاحه من السيدة، استشعر سروراً غامراً، سروراً نابعاً من أنه سيكون على مقربة من البحر، وحيداً، راضياً، متأملاً المدى المائي، في عربدة الشتاء، دون أن يعكّر عليه أحد صفوه هذا، حتى ولا سيدة القصر نفسها، التي حاورها، وأقنعها أنه يرفض الزيارات، ويرغب أن يعيش على هواه.

أمضى اليوم الأول من حياته الجديدة باستكشاف المنطقة، وبمعاينة ما في القصر، وترتيب حياته فيه. وانسجاماً مع ميله إلى أن يكون بحّاراً، في ملبسه ومأكله وسلوكه جميعاً، رفض كل أسباب الراحة في الطابق العلوي.. اكتفى بالمدفأة الحطبية في الطابق الأرضي، والخمور، والمعلبات، ولم يبدّل طاقية الصوف، ولا سترة البحّار، ونقل المسجلة إلى طابقه، وابتاع شريطاً لفيروز، فيه

أغنيته الأثيرة: «يا ماريا يا مسوسحة القبطان والبحرية» وجاء بصنانير للصيد، وخيوط، ووضع في الزوايا قصبات ذات أشكال وأطوال مختلفة، وعرض تحتها ما يجمعه من أصداف يعثر عليها في تطوافه على طول الشاطئ، حيث يحاول، في أوقات فراغه، ثقبها ونظمها في خيوط، ليصنع منها قلادات يتركها ذكرى لمن بعده.

وفي الليالي الباردة، الماطرة، حين كانت الريح تنشد مواويلها المجنونة، يرافقها، ويمتزج بها، صفير حاد، لا تجيده إلاّ شبابة شاطئ مهجور، في تلك الليالي كان البحر، والظلمة، والعاصفة، أكثر من عوالم موضوعية، كائنة، من حواليه. كانت، وهو يضرم النار في المدفأة الحطبية، ويتركها تتأرّث، ناشرة اللهب، راسمة، في غبش الأمسيات المبكرة، ظلالاً على الجدران، تبدو شخصيات حقيقية، أبطالاً أحياء، يسامرونه، يتحدثون إليه، يسمعون منه، ومن فيروز، حكاية البنت السمراء، الطالعة من البحر. وعندما كان يصطاد، ويرمي سمكاته الفضيات على الأرض، قرب المدفأة، كان بريقها، تحت الوهج، يبدو أخاذاً، بما فيه من تماوج بين الماس والذهب.

أما في الاصائل، فكان يخرج إلى رأس رابية، داخلة في البحر، ويتأمل المنارة البعيدة، وهي تغمز، على استحياء، المساء المقبل، مرحبة بمقدمه، وكلما ذابت الألوان في الغسق،

كان يذكر ليالي السفر البعيد، والإبحار في قلب المحيطات ومراقبة الشمس الغاربة، وكلمات ذلك البحّار العتيق، الصدئ كياطر منسق، وهو يدمدم بأغنية بحرية، حزينة، تقول: «إننا، وسط العالم المائي، الذي لا حدّ له ولا قرار، لا نميّز بين المهد والمزود والتابوت، المصنوعة كلها من خشب واحد، كالمراكب الصغيرة والكبيرة التي هي بيوتنا وقبورنا معاً».

هذه الأغنية التي ترجموها له، وحفظها بكلماتها الانكليزية، كانت تعطي الجو من حوله هالة بحرية إضافية، وكان يحلو له، في بعض الأحيان، أن يغنيها، كما كان يفعل والبحّارة الآخرين، في حانات المرافئ البعيدة، وكان يتساءل، في كثير من الاشتياق للمعرفة، عن السبب الذي دفع السيدة لأن تنزله في قصرها. هو ليس بحارس، وهي تعرف هذه الحقيقة، وهي تعرف أنه كهل، ولن تأتيه في إحدى الليالي، كأميرة تهب نفسها تكرمة. إنها صديقة، وهو يقدّر صداقتها وقد قال لها، عند تسلّمه مفتاح قصرها:

- أما من خدمة؟
- أن تكون سعيداً.. وتبقى إلى جوار البحر..
- فقط؟

نظرت إليه نظرة غريبة. نظرة فيها كلمات لا تقال. أطرق على أثرها مفكّراً، ثم قال في نفسه: «إنه الاشفاق يا

سعيد.. الاشفاق لا أكثر.. مضى الشباب. مضى زمن البحّار الذي كنته يوماً. الآن، أنت كهل متقاعد، كهل على شاطئ مهجور.»

لكنه، بعد أن يشرب إلى درجة الانتشاء، كانت تعتاده روح الشباب، يوم كان البحر باحة مائية، من حولها مصابيح، وورود مائية، وعرائس بحر، وهو وحده عريس البحر، العريس الشجاع، الجالس على العرش، وعلى رأسه تاج، وصوته الهادر يدوي في القاعات السحيقة، والعرائس من حوله، في شعورهن زهور البحار البيضاء، يقبّلهن، يضاجعهن في الكهوف البحرية، على فراش من الأعشاب الطحلبية، ويصغي، بشبق مجنون إلى تأوهاتهن التي لم يسمعها إلاّ من كاترين الحلوة وحدها..

في تلك اللحظات كان يلعن نفسه. يلعنها ويحبّها، لقد تعذّبا معاً، هو الذي عذّب نفسه، ونفسه هي التي عذّبته. ما يدري كيف حدث ذلك، ومن كان المصيب ومن المخطئ، ولا كيف دارت به الأيام، وتصرّم العمر، واختلطت الأشياء، فلم يبلغ أن يكون بحّاراً يصنع الأعجوبة كوالده، ولا مناضلاً يصنع البطولة مثله.

كان يفكّر، يحلم، يحتضن الكون، يرغب لو أنه صيّاد بألف يد، وألف رجل، وألف عين، وله قدرة على صيد كل ما في البحر من سمك، وتوزيعه على الفقراء.. ولو أنه، فتى

بحر لا يغلب، كي يحارب كل ما في الدنيا من ظلم، وكل ما في الحياة من بؤس، ويجسّد الأحلام الوردية التي كانت تعيش في صدور قاسم، وسيّد، ووليد، وتلك الفتاة ذات الرداء الأسود، وعندئـذ تبتسم الأرض للبحر، ويبتسم البحر للأرض، وتنحل مشاكل البشرية.

قضى الشتاء كله في القصر، وفي الصيف عاد إلى دمشق، وعمل مدرّباً في المسبح كعادته، وفي الخريف، وعلى غير توقع، أرسلت إليه سيدة القصر تقول:

- تعال! بيتي بانتظارك..

رفض أول الأمر، لكن نداءً مجهولاً حثّه على التلبية.. وفي أيلول، كان في قصر السيدة من جديد، ومن جديد استأنف حياته التي ألفها، والتي كانت عزيزة عليه، معزّة البحر نفسه... وعاد السؤال القديم يراوده «ماذا تريد هذه السيدة؟»

وذات ليلة، عند منبلج الصبح، وفيما هو مستغرق في النوم، استيقظ على دقات قوية على الباب. جلس في فراشه، وأنصت، خشية أن يكون ما سمعه قد وقع له في المنام، إلاّ أن الدقات توالت، فهب واقفاً، تناول عصا لم يكن له من سلاح غيرها. كان، حتى في هذا العمر، على شجاعته، وثقته بنفسه، وحبه للمغامرة، فتح الباب واندفع إلى الخارج، فلم يجد أحداً، لم يكن الفجر قد لاح، تماماً، ولا

يمكن التمييز بين الأشياء، غير أنه استطاع، في غبش الصباح، أن يرى زوالاً يتحرك باتجاه الشاطئ، أدرك فوراً أنه هو الذي طرق الباب عليه، وأنه يدعوه. لكنه استغرب لماذا، حين فتح الباب، مضى ذلك الشخص إلى الشاطئ، طالما أنه كان يقصده.

سار وراءه. سار بخطى وئيدة، أولاً، حتى لا يشعر به، ثم أوسع الخطا، حتى لحق به عند حافة الماء، وعندئذ صرخ بصوت قوي:

- من أنت!؟

ولم يأته جواب. غير أن الزوال توقّف.. ظلّ كذلك هنيهة، ثم استدار، كاشفاً عن وجهه، وعندئذ حدثت المفاجأة المروعة: كانت هذه كاترين الحلوة! كانت هي، بقوامها، بفتنتها، بنظراتها التي تخترق الغبش.. ولما أيقنت أنه عرفها، ندَّت عنها عبارة واحدة:

- وداعاً، وإلى الأبد...

ثم انزلقت في الماء. غابت في البحر، وراح هو يصرخ وراءها:

- كاترين! يا كاترين! يا عزيزتي.. يا حبيبتي..

كاترين لم تلتفت. لم تجب. لم تظهر على سطح الماء. ظلّ هو واقفاً، ثم ألقى بنفسه وراءها. راح يخوّض في البحر. محاولاً اللحاق بها، ثم سبح، وظلّ يسبح، وطلع الصبح،

وأشرقت الشمس، وهو يسبح، لكن كاترين الحلوة اختفت، ابتلعها البحر، ولم يقع لها على أثر..

وفي اليوم نفسه، أقفل باب القصر، وحمل المفتاح إلى سيدته قائلاً:

- انتهت اقامتي.. إنني مسافر.

- إلى أين؟

- للبحث عن والدي..

قال زوجها:

- ولكن والدك مات.. مات منذ زمن بعيد..

قال سعيد حاسم النبرات:

- والدي حي، وأنا ذاهب للبحث عنه..

- أنت تبحث عن وهم...

- أنا أبحث عن حقيقة...

وبعد اسبوع، قبل ركوب الباخرة التي سيبحر على ظهرها، دخل المقهى ليشرب فنجاناً من القهوة، فنجاناً وداعياً، كما قال.. لكنه رأى الزبائن ينصتون بانتباه مركّز، وهم يتجمّعون حول المذياع، ولما انتهى المذيع، قال أحدهم:

- انقلاب!

فردّ عليه آخر:

- بل تصحيح.. أما سمعت البيان؟

ترشّف سعيد قهوته وهو يفكّر، ثم انحدر باتجاه الميناء، ولما صار على ظهر الباخرة، وقف عند الحاجز، وأرسل بصره باتجاه المدينة، فيما الباخرة تغادر، تبتعد، وسؤال كبير عنيد، يلّح عليه:

- ترى... يقتلعون الشجرة من جذورها هذه المرة؟

- انتهت -

«الساعة الثانية بعد منتصف الليل، الاربعاء ١٢ كانون الثاني ١٩٨٣»